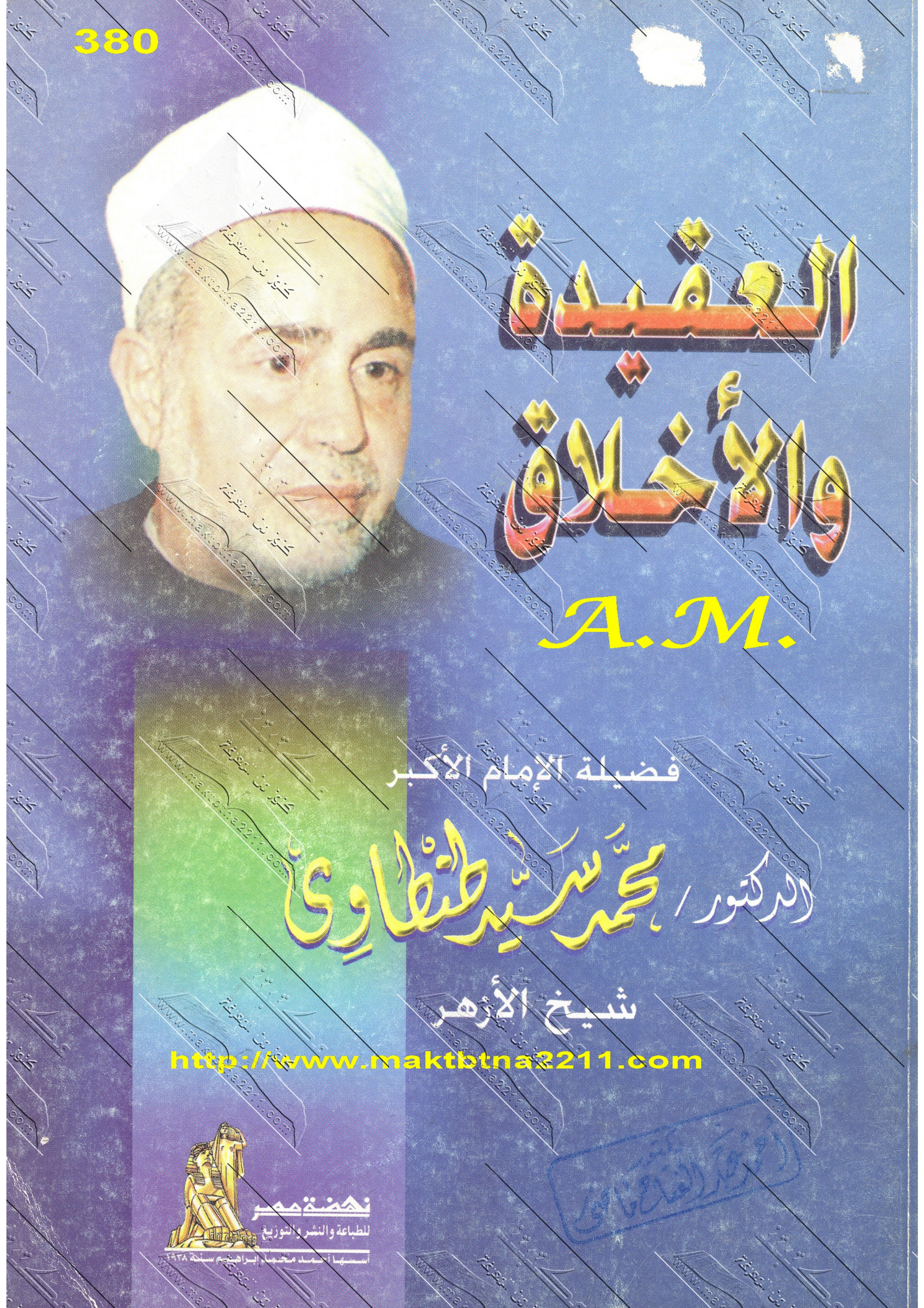

380
العقيدة والأخلاق
A.M.
فضيلة الإمام الأكبر
الدكتور/ محمد سيد طنطاوي
شيخ الأزهر
http://www.maktbtna2211.com
نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

Sat.
20/7/2013



١ - التفسير الوسيط . (١٥ مجلدا)

٢ - القصة في القرآن الكريم . (مجلدان)

٣ - أدب الحوار في الإسلام .

٤ - الاجتهاد في الأحكام الشرعية .

٥ - معاملات البنوك وأحكامها الشرعية .

٦ - جوامع الدعاء من القرآن والسنة .

٧ - العقيدة والأخلاق .

٨ - أحكام الحج والعمرة .

٩ - بنو إسرائيل في القرآن والسنة . (مجلدان)

١٠ - الحكم الشرعي في أحداث الخليج .

١١ - كلمة عن تنظيم الأسرة .

١٢ - السرايا الحربية في العهد النبوي .

١٣ - فتاوى شرعية .

١٤ - أحكام الصيام .

١٥ - المرأة في الإسلام .

١٦ - عشرون سؤالا وجوابا .

من كتب المؤلف

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

عزّ الدين شكري فشير

أبو عمر المصري

رواية

دار الشروق



فضيلة الإمام الأكبر

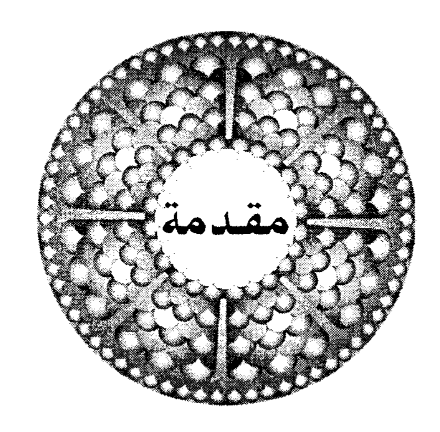
الدكتور / محمد سيد طنطاوى

شيخ الأزهــر



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه.

وبعد: فهذه مباحث عن : [العقيدة الدينية والأخلاق] حرصت في كتابتها على أن تكون مستقاة من كتاب الله - تعالى - ومن السنة النبوية الشريفة، بعد أن رأيت أن بعض الذين كتبوا في هذه الموضوعات، اهتموا بالجانب العقلي والجدلي والافتراضي، أكثر من اهتمامهم بأي شيء آخر .

أسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

محمد سيد طنطاوي

تمهيد

١- تعريف العقيدة.

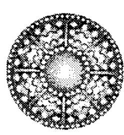
٢- حاجة الإنسان إليها.

٣- تضحية الإنسان من أجل عقيدته.

٤- تطور العقيدة .

٥- العقائد لا إكراه عليها.

١ - تعريف العقيدة



لعل أقرب الأقوال إلى الصواب فى تعريف العقيدة أن يقال : إنها اسم للإيمان ببعض الآراء والمبادئ والأفكار ، التى استقرت فى القلب لأسباب متنوعة ، وصارت كأنها جزء من كيان الإنسان ، يدافع عنها كما يدافع عن ذاته .

يقال : اعتقد فلان فى كذا أى : آمن وصدق به ، فالاعتماد والإيمان والتصديق ألفاظ متقاربة فى معناها .

جاء فى المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٦١٤ : «العقيدة : الحُكْم الذى لا يُقْبلُ الشك فيه لدى معتقده .

وهى فى الاصطلاح الدينى : ما يُقصد به العتقاد دون العمل ، كعقيدة وجود الله ، وبعثة الرسل » .

٢ - حاجة الإنسان إليها

والعقيدة حاجة نفسية مهمينة لا يستطيع الإنسان أن يحيا الحياة النفسية الراضية بدونها ، والذين يزعمون أنهم قد حرروا أنفسهم من العقائد ، يزعمون ذلك فى الظاهر فقط ، لأنهم فى قرارة أنفسهم يؤمنون بخرافات وأباطيل وشهوات وأطماع ، ويعتقدون لجهلهم وانطماس بصائرهم أنهم على الحق ، وأن غيرهم من العقلاء على الباطل .

وللأستاذ عباس محمود العقاد كلام جيد فى هذا المعنى إذ يقول : «فى الطبع الإنسانى جوع إلى الاعتقاد كجوع المعدة إلى الطعام » .

ولنا أن نقول : إن «الروح» تجوع كما يجوع الجسد ، وأن طلب الروح لطعامها كطلب الجسد لطعامه .

حق لا يقبل الجدل أن الحاسة الدينية بعيدة الغور فى طبيعة الإنسان .

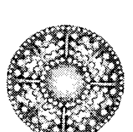
وحق لا يقبل المراء أن الإنسان يجب أن يؤمن ، ولا يستقر فى وسط هذه العوالم بغير إيمان .

وهو قد وُجد فى وسط هذه العوالم لا مراء ، فإذا كان الإيمان هو الحالة التى يتطلبها منه وجوده ، فضعف الإيمان شذوذ يناقض طبيعة التكوين» ويدل على خلل فى الكيان .

وقد اتفق علماء المقابلة بين الأديان ، على تأصل العقيدة الدينية فى طبائع بنى الإنسان من أقدم أزمنة التاريخ [1] .

والخلاصة ، أن العقيدة الدينية - بصفة خاصة - ضرورة نفسية مسيطرة على عقل المرء وشعوره ووجدانه ؛ لأنه مشبعة لميوله الطبيعية والشعورية والعقلية ، وهى ضرورة تُطلَب ، فإذا لم توجد اختُرعت .

٣ - تضحية الإنسان من أجل عقيدته



كل إنسان له عقيدته التى يدافع عنها حتى ولو كانت فى ذاتها عقيدة باطلة ولا أساس لها ، لا من العقل السليم ، ولا من المنطق القويم .

والدليل على أن الإنسان يدافع عن عقيدته حتى ولو كانت فى ذاتها باطلة ، أنك ترى فى القرآن الكريم آيات كثيرة ، تحكى لنا أن الرسل الكرام عندما دعوا أقوامهم إلى وحدانية الله وإلى التحلى بمكارم الأخلاق ، وأخذ هؤلاء الأقوام فى الدفاع عن معتقداتهم الباطلة بأساليب فيها ما فيها من التطاول على الرسل ، ومن وصف هؤلاء الرسل الكرام تارة بالجنون ، وتارة بالسفاهة ، وتارة بغير ذلك من القبائح .

ولم يكتف بعض هؤلاء الأقوام بكل ذلك ، بل هددوا رسولهم بالخروج من ديارهم إذا لم يرجع إلى ملتهم وعقيدتهم .

(١) **من كتاب:** (الله) ص ١٤ . طبعة دار المعارف - الطبعة الخامسة .

واستمع إلى جانب من الحوار الذى حكاه القرآن الكريم بين شعيب - عليه السلام - وبين قومه الكافرين ، لقد قالوا له :

﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾[١]

إلا أن العقيدة عندما تقوم على الحق الذى لا يحوم حوله باطل ، عندما تقوم على المنطق الصحيح ، وعلى العقل السليم ، وعلى الاقتناع التام بها .

عندما تقوم على إخلاص العبادة لله ، الواحد القهار ، على التحلى بمكارم الأخلاق ، عندما تقوم العقيدة على تلك المبادئ الكريمة ، وعلى هذه المقاصد الشريفة ، تكون تضحية أصحابها من أجلها ، أشد وأعظم .

إنها تغزو كل جوارح صاحبها ، وتملك جميع مشاعره ، وتصير موجهه الوحيد ، فلا يحس بغيرها ، ولايرى حياة طيبة بدونها .

من أجل الدفاع عن العقيدة السليمة ، وجُد الشهداء ، الذين قابلوا الموت بوجوه ضاحكة ، ونفوس مستبشرة ، ولسان أحدهم يقول عندما أصابته السهام القاتلة من أعداء الله وأعدائه : «فزت ورب الكعبة» .

من أجل الدفاع عن العقيدة الحقة ، وجد الأخيار الأبرار الذين كانوا لا يبالون بشظف العيش ، ولا يهتمون بما نزل بهم من مصائب ومتاعب ، ماداموا يلاقون ، كل هذا البلاء فى سبيل نشر مبادئهم وعقائدهم

من أجل الدفاع عن العقيدة الدينية الصحيحة وجد المؤمنون الأوفياء الذين ﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾[٢] .

---

(١) سورة الأعراف الآيتان : ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٢٣ .

وتسألنى : أهناك براهين على أن العقيدة إذا استقرت فى القلب ، واختلطت بالمشاعر ، ضحى صاحبها من أجلها بكل شىء ، ودافع عنها حتى آخر لحظة من حياته ؟

والجواب : نعم هناك براهين متعددة ، وأدلة متنوعة على أن العقيدة السليمة يعيش الإنسان بها ولها ، ويضحى من أجلها بذاته وبكل ما يملك ، ولا يقبل بحال من الأحوال أن يتخلى عنها ، ولو أعطى فى مقابل ذلك ما أعطى من متاع الحياة الدنيا .

ومن هذه الأدلة قصة «أصحاب الأخدود» وهم قوم آمنوا وأذعنوا لعقيدة التوحيد ، فخفر لهم أعداؤهم حفرا ثم أشعلوا فيها النار ، ثم ألقوا بهؤلاء المؤمنين الصادقين فيها ، وأبى هؤلاء المؤمنون الصادقون أن يتخلوا عن عقيدتهم ، ورضوا أن يلقى بهم فى النار من أجل الدفاع عن عقيدتهم التى اختلطت بدمائهم .

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول : ﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩)** ﴾[1]

وهل أتاك نبأ «بلال بن رباح» - رضى الله عنه - الذى بعد أن استقرت عقيدة الإسلام فى قلبه أخذ سيده يعذبه عذابًا أليما ، ومع ذلك لم يزد هذا التعذيب بلالا إلا ثباتًا فى سبيل عقيدته .

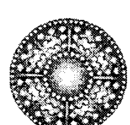
قالل ابن إسحاق : «كان بلال صادق الإسلام ، طاهر القلب ، وكان أمية ابن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهرة فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت ،

(١) سورة البروج الآيات: من ١ إلى ٩ .

أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ، فيقول بلال وهو فى ذلك البلاء : «أحد أحد»[1] .

هذه بعض النماذج للتضحية من أجل العقيدة ، وهناك نماذج أخرى يطول المقال لو تركنا القلم لسردها ، ولكن حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

٤ - تطور العقيدة



نعنى بتطور العقيدة : انتقالها من طور إلى طور ، ومن حالة إلى حالة ، سواء أكان هذا الانتقال من الحق إلى الباطل ، أم من الباطل إلى الحق .

ويرى بعض المؤرخين للعقائد الدينية : أنها تطورت عن الأساطير والقصص والخرافات .

ويرى آخرون : أن العقيدة فى الإنسان نشأت عنده بسبب إحساسه بروعة هذا الكون المجهول وجلاله ، فاختار منه لعبادته وللتقرب إليه ما يراه أنفع له .

ويرى فريق ثالث : أن شعور الإنسان بالضعف ، وبالحاجة إلى قوة تحميه ، هو الذى دفعه إلى الاعتقاد بوجوب الخضوع لتلك القوة وباحترامها وهيبتها ، وقد تمثلت هذه القوة تارة فى الشمس ، وتارة فى الكواكب ، وتارة فى بعض الحيوانات ، وتارة فى الأوثان والأصنام وتارة فى غير ذلك من المخلوقات .

ويرى فريق رابع : أن الإنسان يولد وتولد معه عقيدته النقية من كل سوء ، والتى جاء التعبير عنها فى القرآن الكريم ، وفى السنة النبوية بالفطرة إلا أنه بمرور الأيام وبانتقاله من طور الطفولة إلى الصبا إلى الشباب . . تتأثر عقيدته بالعوامل المتعددة والمتنوعة التى يعيش فيها مع بيئته .

وهذا التأثر يختلف قوة وضعفًا على حسب استعداد كل إنسان ، وعلى حسب ما يحمله من عقل سليم أو سقيم ، ومن تفكير صحيح أو فاسد .

(١) راجع: السيرة النبوية لابن هشان جـ ١ ص ٣٣٩ - طبعة المكتبة التجارية .



وقد اقتضت سنة الله - عز وجل - أن يرسل رسله وأنبياءه إلى الناس ، لكى يخرجهم من ظلمات العقائد الفاسدة ، والتقاليد القبيحة ، إلى نور العقيدة الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة .

قال - تعالى - : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[1]

أى : إنا أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إرسالا متلبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، مبشرا المؤمنين بحسن الثواب ، ومنذرا الكافرين بأشد ألوان العقاب ، وما من أمة من الأمم التى سبقتك إلا وجاءها رسول من عندنا ، ينذرها بسوء عاقبة الكفر ، الذى فشا فيها ، بسبب التقاليد البالية ، والجهالات السائدة ، التى طمست بصائرها ، وجعلتها لا تبتعد عن طريق الرشاد ، وتتغمس فى طريق الغواية .

ونحن نميل إلى رأى هذا الفريق الرابع ؛ لأسباب من أهمها :

١ - أن القرآن الكريم قد أشار إلى أن الناس جميعا ، قد أوجدهم خالقهم - عز وجل - على الفطرة السليمة ، وعلى العقيدة الصحيحة ، إلا أنهم بمرور الأيام ، ومكر الأعوام ، اختلفوا فيما بينهم ، بسبب البغى والتحاسد والتنازع فى طلب الدنيا ، وأدى ذلك إلى اعتناقهم للعقائد الفاسدة ، والعادات القبيحة ، فأرسل الله - تعالى - إليهم الرسل ؛ لهدايتهم إلى صراط المستقيم الذى تركوه . .

واقرأ إن شئت قوله - تعالى - : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾[2]

---

(١) سورة فاطر الآية : ٢٤ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢١٣ .

وقوله – سبحانه – : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ معناه عند جمهور المفسرين : كان الناس أمة واحدة متفقين على عقيدة واحدة : هى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ثم اختلفوا ما بين ضال ومهتد ، فبعث الله إليهم النبيين : ليبشروا من اهتدى منهم بجزيل الثواب ، ولينذروا من ضلَّ بسوء العذاب ، وليحكموا بينهم فيما اختلفوا فيه بالحكم العادل ، وبالقول الفصل .

قال الإمام الفخر الرازى : قال القفال : ويشهد لصحة هذا الرأى قوله – تعالى – : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ لأنه يدل على أن الأنبياء إنما بعثوا حين الاختلاف ، ويتأكد هذا بقوله – تعالى – فى آية أخرى : ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾[1] .

وقال الإمام ابن كثير : «عن قتادة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق ، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . . وهكذا قال قتادة ومجاهد .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يقول كانوا كفارا ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ .

والقول الأول : عن ابن عباس هو الأصح سندا ومعنى ؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام ، فبعث الله إليهم نوحا – عليه السلام – فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض»[2] .

٢ – كذلك من الآيات القرآنية التى تشهد أن الله – تعالى – قد أوجد الناس على الفطرة السوية ، والعقيدة القومية ، ثم بعد ذلك انحرفوا عن الحق بسبب استحواذ الشيطان عليهم .

قوله – تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾[3] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى: جـ ٦ ص١٢ . سورة يونس آية: (١٩)
(٢) تفسير ابن كثير: جـ ١ ص ٢٥٠ .
(٣) سورة الروم الآية: ٣٠ .

وقوله - سبحانه - (فأقم) من الإقامة على الشىء بمعنى الثبات عليه ، وعدم التحول عنه .

وقوله - تعالى - : (حنيفا) من الحنف ومعناه : الميل من الباطل إلى الحق ، وضده الجنف .

والمراد بالفطرة : الملة والعقيدة ، أو المراد بها : قابلية الدين الحق ، والتهيؤ النفسى لإدراكه والأصل فيها أنها بمعنى الخلقة .

جاء فى المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٦٩٥ : «الفطرة : الخلقة التى يكون عليها كل موجود أول خلقه . أو الطبيعة السليمة التى تشب بعيب . والفطرة السليمة - فى اصطلاح الفلاسفة - : استعداد لإصابة الحكم ، والتمييز بين الحق والباطل» .

والمعنى اثبت - أيها العاقل - على العقيدة الصحيحة ، وعلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وأقبل على هذا الدين الحق ، وهو دين الإسلام دون التفات عنه ، أو ميل لما سواه ، فهو فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وخلقهم قابلين لها ، ولا تبديل ولا تغيير لما فطر - سبحانه - الناس عليه . .

فهذه الآية واضحة كل الوضوح فى أن الله - تعالى - قد أوجد الناس على الفطرة السليمة ، والعقيدة الصحيحة ، ثم بعد ذلك اتبع بعض الناس الأهواء الزائفة ، والتقاليد الزائفة ، فأرسل الله - تعالى - الأنبياء لهدايتهم إلى الحق . . .

٣ - وردت أحاديث شريفة تدل على أن الله - تعالى - قد خلق الناس على الفطرة النقية ، والعقيدة السوية ، ومن هذه الأحاديث قوله - ﷺ فيما رواه عن ربه (فى الحديث القدسى) :«إنى خلقت عبادى حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم» .

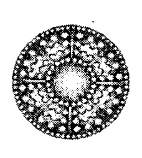
أى : إنى خلقت عبادى ميالين بطبيعتهم إلى الحق ، فجاءت الشياطين فحولتهم من الحق إلى الباطل .

وفى الصحيحين ، عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : «ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء» .

والمعنى : ما من مولود يوجد على صفة من الصفات إلا على الفطرة . أى : على قبول الحق والميل إليه بحسب تكوينه ، إذا تقرر ذلك ، فمن تحول عن فطرته كان سبب تحوله أن أبويه يهودانه ، أى : يجعلانه يهوديا إن كانا يهودين ، أو ينصرانه إن كانا نصرانيين ، أو يمجسانه إن كانا مجوسيين ، بأن يعلّم الأبوان أولادهما ماهما عليه من عقيدة ، ويحببان الأولاد فى الملة التى هما عليها .

والخلاصة : أن العقائد تتطور من حال إلى حال ، وأن الناس قد أوجدهم الله - تعالى - على الفطرة السوية ، وعلى العقيدة النقية من الشوائب ، فإذا ما اختلف الناس بسبب البغى والظلم ، جاء الرسل والمصلحون ؛ لإخراجهم من ظلمات البغى والحسد ، إلى نور الإيمان والعدل .

٥ - العقائد لا إكراه عليها



نعم العقائد لا إكراه عليه ، ولا تباع ولا تشترى ؛ لأنها مرتبطة بالقلب وبالذات الإنسانية ، وما كان كذلك لا سلطان لشىء من القوى الخارجية عليه .

كذلك العقائد : لا تقبل الانتقال من شخص إلى غيره ، إلا أنها تقبل التحول من عقيدة إلى أخرى ، بعد أن يطمئن صاحبها إلى فساد ما كان عليه ، وإلى صحة وسلامة ما استقر فى قلبه ووجدانه من عقائد وأفكار جديدة .

ومن الأدلة على ذلك : أن الأنبياء والرسل جميعا ، قد أرسلهم الله - تعالى - إلى أقوام كانوا بدينون بالعقائد الفاسدة ، حيث كانوا يعبدون المخلوق ، ويتركون عبادة الخالق ، فكانت وظيفة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - إقناع أقوامهم بأساليب حكيمة ومتنوعة ، بالتخلى عن العقائد الباطلة ، وعن الأخلاق القبيحة ، وبالتحلى بإخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وبمكارم الأخلاق ، فكان من هؤلاء الأقوام من أطاع الأنبياء والرسل فسعد وفاز ، ومنهم من أعرض عنهم فخسر وخاب .

ومحاورات جميع الرسل مع أقوامهم تؤكد هذه الحقيقة ، ألا وهى دعوة الرسل للناس إلى نبذ العقائد الباطلة ، واتباع العقائد الحقة المتمثلة فى إخلاص العبادة لله - تعالى - وفى التمسك بالفضائل .

استمع - على سبيل المثال - إلى جانب من دعوة نوح - عليه السلام - لقومه ، الذين مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا .

إنه يقول لهم - كما حكى للقرآن الكريم - ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) ﴾[1] .

ثم يسوق لهم بعد ذلك ألوانًا من النصائح الغالية ، ومن الإرشادات السديدة ، ومن الأدلة الواضحة على صدقه وإخلاصه ، ولكنهم - كما عبر القرآن الكريم - ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) ﴾[2] .

وألفاظ : «وَدّ وُسواعَ ويغوث ويعوق ونسرا» أسماء لتلك الأصنام الخمسة التى كانوا يعبدونها من دون الله ، ويعتقدون أنها تنفعهم وتضرهم .

والمعنى : أن نوحا - عليه السلام - أمر قومه بعبادة الله تعالى وحده ، وحذرهم من سوء عاقبة الكفر والعصيان ، إلا أنهم أعرضوا عنه ، ووصفوه بالجنون ، وقال بعضهم لبعض فى الرد عليه : احذروا أن تتركوا عبادة هذه الأصنام ، التى وجدتم آباءكم يعبدونها ، واحذروا - بصفة خاصة - أن تتركوا عبادة هذه الآلهة الخمسة ، وهى : ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : (وهذه أسماء آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله . فقد روى عن ابن عباس أنه قال : «صارت الأوثان التى

(١) سورة نوح الآيات : ٢ - ٤ .

(٢) سورة نوح الآيتين : ٢٢ ، ٢٣ .

كانت فى قوم نوح فى العرب بعد ذلك . أما «ود» فكان لقبيلة كلب بدومة الجندل . وأما سواع فكان لقبيلة هذيل ، وأما يغوث فكان لقبيلة بنى غطيف ، وأما يعوق فكان لقبيلة همدان ، وأما نسر فكان لقبيلة حمير»[1] .

وعندما نراجع ماحدث بين خاتم الأنبياء محمد - ﷺ - وبين قومه من محاورات ، نرى ألوانًا من الأساليب الحكيمة استعملها - ﷺ - معهم لكى يصرفهم عن العقائد الفاسدة ، وعن التقاليد البالية ، وعن الطباع المرذولة ، ولكى يحببهم فى الإيمان ، وفى مكارم الأخلاق فكانوا يقولون له - كما حكى القرآن عنهم - :

﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[2] .

أى : إنا وجدنا آباءنا على دين معين ، وعلى عقيدة مخصوصة ، وهى عبادة هذه الأصنام التى منها : اللات والعزة ، ومناة الثالثة الأخرى ، وإنا على طريقة آبائنا نسير دون تغيير أو تبديل .

فكان الرسول - ﷺ - يقول لهم - كما حكى القرآن عنه ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾[3] .

أى : قال الرسول - ﷺ - فى رده عليهم أتتبعون آباءكم وتقتدون بهم فى الكفر ، حتى ولو جئتكم بدين وبعقيدة أهدى وأصوب مما كان عليه آباؤكم .

فكان جوابهم عليه - ﷺ - ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[4]

وهكذا العقائد الفاسدة ، عندما ترسخ فى النفوس ، تجعل أصحابها يتحركون فى هذه الحياة دون تدبر أو تفكير أو حجة أو دليل ، فهم أشبه ما يكونون بقطيع من الأنعام الذى يسير خلف قائده ، دون أن يعرف إلى أى طريق يسير

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٦ جـ٢٦١ طبعة دار الشعب .

(٢) سورة الزخرف الآية : ٢٢ .

(٣،٤) سورة الزخرف الآية : ٢٤ .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾[١] .

والخلاصة : أن العقائد مع أنها لا تباع ولا تشترى ، إلا أنها فى إمكان أن يتخلى الإنسان عنها باختياره ورضاه ، متى وجدت عقيدة أخرى اقتنع بها عقله ، واطمأنت إلى صحتها نفسه ، وأذعن لها قلبه ، واستسلمت لها جوارحه ومشاعره .

وكلما كانت العقيدة تقتنع بها العقول السلييمة ، وتتجاوب مع المنطلق الصحيح ؛ كان القبول لها أشد وأعظم ، والثبات عليها أبقى وأقوى

وإنما قلنا : فى الإمكان أن يتخلى الإنسان عنها باختياره ورضاه ، لأن العقائد لا إكراه عليها ، لأسباب من أهمها :

١ - أن هناك آيات متعددة صرحت بأنه لا إكراه ولا إجبار على الدخول فى عقيدة ما أو فى دين ما ، لأن هذا الإجبار أو الإكراه لا فائدة من ورائه ، إذ التدين والاعتقاد إذعان قلبى ، واتجاه بالنفس والجوارح إلى ما يعتقده الإنسان حقًا بإرادة حرة مختارة ، فإذا أكره الإنسان على الدخول فى عقيدة معينة ، أو فى دين معين ازداد كرها لهما ، ونفورا منهما ؛ فالإكراه والاعتقاد : نقيضان لا يجتمعان ، ولا يمكن أن يكون أحدهما ثمرة للآخر .

والإكراه معناه : حمل الغير على قول أو فعل لا يريدة عن طريق التخويف أو التعذيب أو مايشبه ذلك .

قال - تعالى - : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[٢] .

والمعنى : ليس فى الدين - الذى هو تصديق بالقلب ، واذعان فى النفس - إكراه أو اجبار ، وإنما الذى فيه هو الاختيار المطلق ، والرضا التام بما يطمئن إليه قلب الإنسان من اعتقاد ، وقد ظهر الحق لكل ذى عقلل سليم ، فمن آمن به سعد وفاز ، ومن أعرض عنه خسر وخاب .

(١) سورة البقرة الآية: ١٧١ .
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٥٦ .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية روايات : منها ما جاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - «أن رجلا من بنى سالم بن عوف يقال له : «الحصين» كان له ابنان غير مسلمين ، وكان هو قد دخل فى الإسلام ، فقال للنبى - ﷺ - : ألا أكرههما على الدخول فى الإسلام ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾[١] .

٢ - ذكر القرآن الكريم فى آيات متعددة : أن وظيفة الرسول - ﷺ - إنما هى التبليغ والتذكير . والتبشير والإنذار ، وليس من وظيفته الإكراه أو الإجبار على الدخول فى الإسلام . ومن الآيات التى قررت هذه الحقيقة .

قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) ﴾[٢] .

ومنها قوله - سبحانه - : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) ﴾[٣] .

ومنها قوله - عز وجل : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴾[٤] .

ومنها قوله - سبحانه - : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾[٥]

ومنها قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) ﴾[٦] .

ومنها قوله - عز وجل - : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) ﴾[٧] .

---

(١) سورة يونس الآية : ٩٩ .
(٢) سورة المائدة الآية :٦٧ .
(٣) سورة الرعد الآية : ٤٠ .
(٤) سورة الشورى الآية : ٤٨ .
(٥) سورة الغاشية الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .
(٦) سورة الأنعام الآية : ٤٨ .
(٧) سورة ق الآية : ٤٥ .

فهذه الآيات الكريمة واضحة كل الوضوح فى أن رسالة الرسل جميعا - عليهم الصلاة والسلام - وعلى رأسهم خاتمهم محمد - ﷺ - هى التبشير لمن آمن وعمل صالحا بالسعادة والفلاح ، والإنذار لمن أصر على كفره وفسوقه بالشقاء والخسران ، وليس من وظيفتهم إكراه غيرهم على اتباعهم .

٣ - شريعة الإسلام تهدر كل قول أو فعل أو اعتقاد ، يأتى عن طريق القسر أو الاجبار ، أو ما يشبههما ، ولا تعتد إلا بما يصدر عن الإنسان عن اختيار ورضا وإقتناع ، بل إنها قد أباحت لأتباعها أن يتلفظوا بما يتنافى مع عقيدتهم ، عند الأذى الشديد ، والتعذيب الذى قد يؤدى إلى الموت ، ولا يقدح هذا التلفظ فى إيمانهم ، مادامت قلوبهم عامرة به ، والدليل على ذلك قوله - تعالى ـ : ﴿ **مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)** ﴾[١] .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : «أن المشركين أكرهوا عمارا وأبويه : ياسرا وسمية على الارتداد عن الإسلام فأبوا ، فربطو سمية بين بعيرين . ثم قتلوها وقتلوا زوجها ياسرا ، فكانا أول شهيدين فى الإسلام . وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه . فقيل يارسول الله : إن عمارا قد كفر !! فقال - ﷺ - : «كلا» إن عمارا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه» .

فأتى عمار رسول الله - ﷺ - وهو يبكى ، فجعل - ﷺ - يمسح عينيه وقال له : (إن عادوا فعد لهم بما قلت» .

وفى رواية أنه قال له : «كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئن بالايمان فقال له - ﷺ - : «إن عادوا فعد» ونزلت هذه الآية الكريمة[٢] .

والمعنى : من كفر بالله - تعالى - من بعد إيمانه بواحدانية الله - تعالى - وبصدق رسوله - ﷺ - استحق العذاب المهين ، إلا من أكره على النطق بكلمة

(١) سورة النحل الآية : ١٠٦ .
(٢) سورة الآلوسى :جـ ١٤ ص ٢٣٧ .

الكفر ، والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان ، فإنه فى هذه الحالة لا إثم عليه ، ولكن الإثم العظيم ، والعقاب الشديد ، يقع على من انشرح قلبه بالكفر ، واعتقد صحته .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة : جواز التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه الذى يخشى معه فقدان الحياة ، ولا يعد ذلك من باب الارتداد إلى الكفر ، مادام هذا المكره قلبه مطمئن بالإيمان ، وما دامت عقيدته ثابتة على الإسلام .

٤ - الإكراه على العقائد لا يأتى بمؤمنين صادقين ، وإنما يأتى بمنافقين كذابين ، يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم . . .

وهذا النوع من الناس كراهية الإسلام له ، أشد من كراهيته للمخالفين الصرحاء ، لأن المخالف الصريح لعقيدتك تستطيع أن تأخذ حذرك منه ، أما الذى يتظاهر بأنه معك بعد أن أكرهته على ذلك ، أو لأنه هو بطبيعته يخفى خلاف ما يظهر ، فإن ضرره أشد ، وعداوته أقبح ، وإفساده للدين وللدنيا أعظم .

ولذا جاءت عشرات الآيات القرآنية فى ذم النفاق والمنافقين ، وفى تحذير المؤمنين الصادقين من شرورهم ومكرهم .

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ **إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (٣)** ﴾[١] .

ومنها قوله - سبحانه - : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)** ﴾[٢] :

ومنها قوله - عز وجل - : ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (١٤٣)** ﴾[٣] .

---

(١) سورة المنافقون الآيات من : ١ - ٣ .
(٢) سورة البقرة الآيتان : ٨ ، ٩ .
(٣) سورة النساء الآيتان : ١٤٢ ، ١٤٣ .

ومن هذه الآيات الكريمة يتبين لكل ذى عقل سليم أن الإكراه على العقائد يتنافى مع أحكام شريعة الإسلام ، التى لا تعترف إلا بالعقيدة التى يتحلى بها صاحبها عن طواعية واقتناع واختيار ، والتى تحمل صاحبها على أن يلتزم بالإيمان الصادق ، والعمل الصالح الذى يدل على أن ما يقوله بلسانه ، يتوافق مع ماهو مستقر فى قلبه .

والخلاصة أن الإكراه على العقائد - كما يقول بعض العلماء - فوق أنه منهى عنه من ناحية المبدأ ، هو عديم الجدوى من ناحية الاعتقاد ، ومن ناحية العمل . وذلك لأن الإكراه : هو أن تلجئ المرء إلى الأخذ بما لا يراه ولا يؤمن به وإلى العمل على مقتضاه ، وأنه لمن الهين أن تجعل المرء يعمل بما تحب ، ولكنه من العسير ، إن لم يكن من المستحيل أن تجعله يعتقد رغم أنفه ، وأن تجعله يعمل وفق اعتقادك ، وكل ما يمكن فعله هو أن تجعل المرء يبدو كأنه معتقد ، ولكن ما هى الثمرة التى تجتنى من وراء ذلك المظهر مادان القلب منكرا ؟

إن الدين الإسلامى لا يعترف بمثل هذه المظاهر ، ولا يقبل إلا الإيمان الذى انبعث عن طمأنينة قلبية وعن اختيار . لذا حارب النفاق والمنافقين[1] .

٥ - من الثابت تاريخا وواقعيا ، أن المسلمين لم يلجأ فى يوم من الأيام ، إلى إكراه أحد على الدخول فى الإسلام ، وإنما كانوا إذا فتحوا بلدا من البلاد ، عرضوا على أهله الإسلام ، فإن دخلوا فيه عن اقتناع فيها ونعمت ، وإن أبوا إلا البقاء على دينهم وعقيدتهم ، تركوهم وشأنهم ، وعاملوهم بالمعاملة العادلة ، التى قررتها شريعة الإسلام .
وقد رأينا فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** .. ﴾[2] أن الرسول - ﷺ - لم يقبل من الرجل الذى دخل الإسلام ، أن يكره ولديه على ترك دينهما واعتناق الإسلام .

ولقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية وهى قوله - تعالى - :

(١) **من كتاب:** الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية ص ٢٨٠ للمرحوم الدكتور محمود حب الله .
(٢) **سورة البقرة الآية:** ٢٥٦ .

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. ﴾ عن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يقول لامرأة عجوز نصرانية : «أسلمى أيتها العجوز تسلمى ، فإن الله - تعالى - بعث نبيه محمدا - ﷺ - بالحق» فقالت له : أنا امرأة عجوز والموت إلى قريب .

فقال عمر : «اللهم اشهد أنى بلغت ، وقرأ هذه الآية الكريمة» .

فإن قال قائل : ولكن ورد فى الحديث الصحيح ، أن رسول الله - ﷺ - قال : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحق الإسلام وحسابه على الله» .

فهذا الحديث الشريف ظاهرة قد يفهم منه البعض ، أنه يتعارض مع قوله - تعالى - : «لا إكراه فى الدين» ، لأن القتال قد يعنى الإكراه .

فالجواب عن هذه الشبهة : أن المراد بالناس فى الحديث الشريف - كما قال المحققون من العلماء - أولئك الذين يحاربون دعوة الإسلام بكل وسيلة ، والذين يعلنون عداوتهم للمسلمين وما تخفى صدورهم أكبر .

فهؤلاء هم الذين قصدهم رسول - ﷺ - بقوله : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ..» .

وهؤلاء هم الذين أمرنا بدفع عدوانهم ، صيانة لعقائدنا ، وحماية لأمتنا ، ودفاعا عن كرامتنا وأعراضنا .

أما غيرهم ممن هم ليسوا على ديننا ولا يعيشون معنا ، ولكنهم لايسيئون إلينا ، فالقرآن يقول فى شأنهم : ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾[1] .

وأما غيرهم - أيضا - ممن هم ليسوا على ديننا ، ولكمنهم يعيشون معنا ونعيش معهم فى وطن واحد ، وتجمعنا معهم مصالح مشتركة ، وتقلنا أرض واحدة ، وتظللنا جنسية واحدة ، فهؤلاء تنطبق علينا وعليهم القاعدة الفقهية المشهورة التى تقول : «لهم مالنا وعليهم ما علينا» .

(١) سورة التوبة الآية : ٧ .

ولم يذكر لنا التاريخ الإسلامى ، أن أحدا من المسلمين - سواء أكان حاكما أم محكوما - أجبر غيره من أصحاب الديانات الأخرى على الدخول فى الإسلام ، لأن المسلم الصادق فى إيمانه وفى عقيدته هو الذى يعمل بقول الله - تعالى - : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) ﴾[1] .

ومن كل ما سبق يتبين لنا بكل وضوح : أن شريعة الإسلام تهدر وتبطل كل قول أو فعل ، أو اعتقاد ، يأتى عن طريق القهر ، أو الإكراه ، أو الإجبار ، لأن ذلك يتنافى مع مبادئها وأصولها ، التى تقوم على التدبر والتفكر والاقتناع والاختيار ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

(١) سورة الممتحنة الآيتان : ٨ ، ٩ .



الإلهيات

١ - معرفة الله - تعالى - ووجوده .

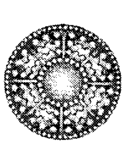
٢ - وحدانية الله - عز وجل - والأدلة على ذلك .

٣ - أسماء الله الحسنى وصفاته العظمى .

٤ - القضاء والقدر .

٥ - أفعال العباد .

معرفة الله - تعالى - ووجوده



إن معرفة الله - تعالى - هى أسمى المعارف وأرقاها وأعظمها وأنقاها ، إذ هى الأساس لكل سعادة ، والأصل الأصيل والركن الركين لكل حياة طيبة آمنة مطمئنة .

معرفة الله - تعالى - معرفة صحيحة ، هى طب القلوب ودواؤها ، هى عافية الأبدان وشفاؤها ، بها يدرك الإنسان ما يجب عليه نحو خالقه ، وما يجب عليه نحو ذاته ، وما يجب عليه نحو غيره .

بها تحقق قول الله - تعالى - : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) ﴾[1] .

ومعرفة الله - تعالى - على رأس الوسائل التى يؤدى إليها : التفكر والتدبر والتأمل فى هذا الكون الزاخر بالعجائب والعبر ، عن طريق العقل السليم ، إذ العقل وظيفته التأمل والنظر والتفكير فيما حوله من مخلوقات .

ولقد مدح الله - تعالى - عباده الذين يتذكرون ويتفكرون ويتعظون فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ﴾[2] .

ومنها قوله - سبحانه - : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

(١) سورة القصص الآية : ٧٧ .

(٢) سورة آل عمران الآيتان : ١٩٠ ، ١٩١ .



﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾[١] .

إن العقل هو الجوهرة الثمينة التى ميز الله بها الإنسان على سائر الحيوان ولولاه لكان من الحيوان ماهو خير منه .

بالعقل استحق الإنسان خلافة الله - تعالى - فى الأرض ، وبه دانت له أحجارها ونباتاتها وحيواناتها .

بالعقل يكون التكليف بالعبادات والمعاملات وغير ذلك من شئون الدين والدنيا ، ولقد اعترف أهل النار بأن السبب الذى أدى بهم إلى هذا المصير السيئ هو ضعف عقولهم ، وانطماس بصائرهم ، وحكى القرآن ذلك عنهم فقال : ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)﴾[٢] .

إن تعطيل وظيفة العقل عن التأمل الصحيح ، وعن التفكير القويم ، وحجبه عن هذه الوظيفة بسبب التقليد الأعمى ، والتعصب القبيح ، والجهل الفاضح ، كل ذلك يهبط بالإنسان إلى مستوى أقل من مستوى الحيوان .

وصدق الله إذ يقول : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾[٣] .

وفى الحديث الشريف : «ما أعطى أحد - بعد تقوى الله - مثل عقل يهدى صاحبه إلى هدى ، ويرده عن ردى» .

(١) سورة البقرة الآية : ١٦٤ .
(٢) سورة الملك الآيتان : ١٠ ، ١١ .
(٣) سورة الأعراف الآية : ١٧٩ .

ومع أن الإسلام يدعو أتباعه إلى التفكير والنظر والتأمل فيما أوجد الله - تعالى - فى هذا الكون من مخلوقات ، إلا أنه أمر أتباعه أن يجعلوا تفكيرهم فيما ينفعهم .

أمرهم أن يجعلوا تفكيرهم فى دائرة نطاق عقولهم وفى حدود مداركه .

أمرهم أن يتفكروا فى خلق السموات والأرض ، وفى خلق أنفسهم ، وفى غير ذلك من المخلوقات الأخرى لكى يزداد إيمانهم بمعرفة الله - تعالى - إلا أن شريعة الإسلام نهت أتباعها عن التفكير فى ذات الله ، لأن ذاته - عز وجل - فوق الإدراك ، وفوق إحاطة العقول بكنهها وتصورها .

وصدق الله إذ يقول ﴿ **فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)** ﴾[١] .

وفى الحديث الشريف : «تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى ذاته فإنكم لن تقدروا قدره» .

تخفى عن الناس سنا طلعتك   وكل ما فى الكون من صنعتك

إن الإسلام يجعل المقصد الأسنى والغاية الكبرى من التفكير : إيقاظ العقل لكى يستعمل وظيفته فى معرفة نعم الله - تعالى - وفى هداية الإنسان إلى قوانين الحياة ، وعلل الوجود ، وسنن الكون ، وحقائق الأشياء .

إن معرفة الله - تعالى - هى ثمرة العقول الذكية الملهمة ، وهى نتاج التفكير العميق المشرق ، هى وليدة الفطرة الإنسانية النقية ، هى التى عن طريقها يهتدى الإنسان إلى مالله - عز وجل - من صفات جليلة ، ومن نعوت كريمة ، ومن نعم على عباده لا تعد ولا تحصى ، ومن دلائل ساطعة على وحدانيته - عز وجل - وعلى وجوده وقدرته ، وتفرده بالخلق والإبداع ﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾[٢] .

أما وجود الله - تعالى - فهو الحقيقة العظمى التى استقرت فى كل قلب سليم ، وفى كل عقل قويم ، وفى كل فطرة نقية ، وفى كل نفس سوية .

---

(١) سورة الشورى الآية: ١١ .   (٢) سورة الأعراف الآية: ٥٤ .

وجود الله - عز وجل - هو أول الحقائق وأكبرها وأوضحها ، دلت على ذلك الفطرة الإنسانية والعقول البشرية .

ولقد حكى لنا القرآن الكريم فى آيات كثيرة ، أن المشركين كانوا يعترفون بوجود الخالق - عز وجل - دون جدال منهم فى ذلك .

ومن هذه الآيات الكريمة قوله ـ تعالى - : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) ﴾[1] .

وقوله - سبحانه ـ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) ﴾[2] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣) ﴾[3] .

إذًا : فوجود الله - تعالى - اعترف به المؤمنون وغير ، المؤمنين ودلت عليه الفطرة الإنسانية ، والعقول البشرية .

دلت عليه الفطرة الإنسانية ، لأن الإنسان بمقتضى الشعور المغروس فى نفسه ، يحس ويشعر بأن فوق هذه المخلوقات المحدودة المتناهية ، خالقا غير محدود ولا متناه ، يهيمن على كل شىء ، ويدبر كل أمر .

هذا الشعور المغروس في النفس الإنسانية ، ينبع من أعماق النفس وليس من العقل .

هذا الشعور يجده الإنسان فى قرارة ذاته دون تعلم ولا تلقين ولا توجيه أو إرشاد .

هذا الشعور هو الذى يميز الإنسان عن الحيوان .

ولقد اعترف بهذ الشعور الفطرى المسلمون وغير المسلمين ، فها هو ذا الفيلسوف

(١) سورة الزخرف الآية: ٨٧ .
(٢) سورة الزخرف الآية: ٩ .
(٣) سورة العنكبوت الآية: ٦٣ .

الشهير «ديكارت» يقول : «إنى مع شعورى بنقص فى ذاتى ، أحس فى الوقت نفسه بوجود ذات كاملة ، وأرانى مضطرا إلى اعتقادى بأن هذا الشعور قد غرسته فى ذاتى تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال ، وهى «الله» - جل جلاله .

وهذا الشعور المغروس فى النفس الإنسانية بوجود الله - تعالى - قد يخفت أحيانا بسبب استيلاء الشهوات والآهواء على الإنسان ، إلا أنه يستيقظ سريعاً وقويا عند الشدائد والآلام والمصائب .

وقد أكد القرآن هذه الحقيقة فى كثير من آياته ، ومن ذلك قوله - تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾[١]

وقوله - سبحانه - : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) ﴾[٢] .

ولقد سأل رجل الإمام جعفر الصادق - رحمة الله - عن «الله» ، فقال له : ألم تركب البحر ؟

قال : بلى . فقال له : فهل حدث لك مرة أن هاجت بك وبمن معك الريح العاصف ؟

قال : نعم . فقال له : وهل انقطع بك الأمل أنت ومن معك فى النجاة ؟

قال نعم .

فقال له : فهل خطر ببالك ، وانقدح فى نفسك ، أن هناك من يستطيع أن ينقذكم مما أنتم فيه من بلاء ؟ قال : نعم . فقال له الإمام جعفر : فذلك هو «الله»

(١) سورة يونس الآية:١٢ .

(٢) سورة يونس الآية:٢٢ .

ولعل هذا الإحساس العميق بوجود الخالق - عز وجل - الذى تهدى إليه الفطرة الإنسانية السوية ، هو الذى عبر عنه الأستاذ عباس العقاد - رحمه الله - «بالوعى» حين قال :

فى رأينا أن مسألة وجود الله مسالة «وعى» قبل كل شىء .

فالإنسان له «وعى» يقينى بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية ، ولا يخلو من «وعى» يقينى بالوجود الأعظم ، وبالحقيقة الكونية ، لأنه متصل بهذا الوجود ، بل قائم عليه .

والوعى والعقل لا يتناقضان ، وإن كان الوعى أعم من العقل فى إدراكه ، لأنه مستمد من كيان الإنسان كله ، ومن ظاهره وباطنه ، وما يعيه هو ومالا يعيه ، ولكنه يقوم به قياما مجملا محتاجا إلى التفصيل والتفسير» .

ثم يقول - رحمه الله - : «ونحن إذا رجعنا إلى تاريخ الإيمان فى بنى الإنسان ، وجدنا أن اعتماده على «الوعى» أعظم جدا من اعتماده على القضايا المنطقية ، والبراهين العقليلة ، وأنه أقوى جدا من كل يقين يتأتى من جانب التحليل والتقسيم . .»[1] .

والعلماء الأخيار ، والعقلاه الأبرار ، كثيرا ما يعبرون عن وجود الله - تعالى - على أنه من البدهيات التى يدركها الإنسان بفطرته ، ويهتدى إليها بطبيعته . .

فهذا أحد الصالحين يقول له قائل : إن فلانا قد أقام على وجود الله ألف دليل . فيرد هذا الرجل الصالح الحكيم فيقول : لأن فلانا هذا فى نفسه ألف شبهة .

وكأنه يريد أن يقول : إن وجود الله حقيقة لاشك فى أمرها ، ولا مجال لإنكارها ، ولا يحتاج إلى إقامة برهان أو دليل ، فالأمر كما قال الشاعر :

وليس يصح فى الأذهان شىء   إذا احتاج النهار إلى دليل

---

(١) راجع كتاب «الله» مبحث براهين وجود الله من ص ٢١١ على جـ ٢١٤ - الطبعة الخامسة - طبعة دار المعارف للمرحوم عباس العقاد .

ويقول الشيخ ابن عطاء الله السكندرى : «إلهى كيف يستدل عليك ، بما هو فى وجوده مفتقر إليك ؟

أيكون لغيرك من الظهور ماليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك !! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك ؟

والخلاصة : أن فطرة الله - تعالى - التى فطر الناس عليها ، هى خير دليل على وجوده - عز وجل - ، وجودا تتزلزل الجبال الرواسى ، ولا يتزلزل هذا اليقين بوجوده - عز وجل - فى نفوسهم وفى كل ذرة من كيانهم .

وإذا كانت الفطرة الإنسانية قد دلت على وجود الخالق - سبحانه - ، فإن العقل السليم قد دل - أيضا - على وجوده - سبحانه - وجودا لا مجال معه الشك أو التردد . . .

تارة عن طريق هذه المخلوقات التى لابد لها من خالق أو جدها وأبرزها من العدم إلى الظهور ، إذ من البدهيات الأولية ، والمسلمات العقلية ، أن كل مخلوق لابد له من خالق .

قال - تعالى - : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ** (٣٦) ﴾[١] .

أى : جل شأن الله الذى خلق الأنواع والأصناف كلها ذكورا وإناثا التى تنبت فى الأرض ، والتى خلقها من أنفسهم ، إذ الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر ، والتى خلقها مما لا يعلمون .

وتارة عن طريق إتقان وإحسان هذه المخلوقات ، وإكمال صنعتها ؛ وجعلها فى هذه الصورة البديعة التى تشهد بأن لها خالقا قادرا حكيما .

---

(١) سورة «يس» الآية : ٣٦ .

قال - تعالى - : ﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ﴾[(١)] .

وقال - سبحانه - : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) ﴾[(٢)] .

وهذا الإحسان فى خلق الكائنات تراه فى كل شىء ؛ فى الإنسان وفى الحيوان وفى النبات وفى الأرض وفى السماء وفى الجبال وفى البحار وفى الأنهار فى كل المخلوقات التى لا يعلم عددها إلا الله - تعالى - .

وتارة عن طريق هذا التقدير المحكم الدقيق الذى يجعل كل شىء فى مكانه الملائم ؛ وزمانه المناسب ، وكيفيته المتناسقة ، وكميته المتوازنة .

قال - تعالى - : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) ﴾[(٣)] .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾[(٤)] .

هذه المخلوقات التى لا تعد ولا تحصى ، والتى أوجدها الله - تعالى - بتلك الصورة البديعة السوية الدقيقة ، هى التى جعلت الأعرابى يعبر عن وجوده - سبحانه - بتلك العبارات الواضحة فيقول لمن سأله عن وجود الله - تعالى - البعرة تدل على البعير ، وأثر السير يدل على المسير ، فكيف بسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، أفلا يدل ذلك على العلى الكبير ؟ !!

(١) سورة السجدة الآيتان : ٦ ، ٧ .
(٢) سورة الملك الآية : ٣ ، ٤ .
(٣) سورة القمر الآية : ٤٩ .
(٤) سورة الحجر الآية : ٢١ .

والحق أن هذا الكون بما فيه من مخلوقات علوية وسفلية أكبر شاهد على وجود الله - تعالى - لأن العقل السليم لا يتصور أن توجد تلك المخلوقات العجيبة الباهرة دون موجد لها ؛ كما لا يتصور أن توجد صنعة بدون صانع .

إن هناك فروضا عقلية ثلاثة يمكن أن نفرضها فى تعليل الأصل الذى عن طريقه وجدت هذه المخلوقات التى ضمها هذا الكون الهائل البديع . .

الفرض الأول : أن تكون هذه المخلوقات قد وجدت من العدم .

الفرض الثانى : أن تكون هذه المخلوقات قد وجدت عن طريق الصدفة .

الفرض الثالث : أن يكون لهذه المخلوقات موجد قادر حكيم .

أما الفرض الأول فهو ظاهر البطلان دون أن يختلف فى ذلك عاقلان ، لأن العدم لا يتصور أن يكون أصلا لما هو موجود ، إذ فاقد الشىء لا يعطيه كما يقولون ، وصدق الله - تعالى - إذ يقول :

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦) ﴾[١] .

أى : هل وجد هؤلاء الضالون على هذه الصورة البديعة والهيئة القويمة ، من غير أن يكون هناك خالق لهم ؟ وهل هم الذين خلقوا أنفسهم أو خلقوا السموات والأرض ؟

كلا ثم كلا إن شيئًا من ذلك لم يحدث ، وإنما الذى حدث وأيده العقل والواقع أن الذى أوجدهم وخلقهم وخلق هذا الكون بأرضه وسمائه إنما هو الله - تعالى - كما قال - سبحانه - :

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) ﴾[٢] .

(١) سورة الطور الآيتان: ٣٥ ، ٣٦ .
(٢) سورة الزمر الآية: ٦٢ .

وأما الفرض الثانى فهو أشد بطلانا ، وأعظم تهافتًا من سابقه ، لأن الصدفة لا يمكن أن ينبثق عنها هذا الكون البديع المحكم المتوازن المتناسق الذى تحكمه سنن مطرده ، وقوانين فى غاية الدقة .

ليس معقولا أن تكون الصدفة التى هى وليدة الاعتباط والاتفاق غير المقصود ، هى التى أوجدت هذه المخلوقات بهذه الصورة الدقيقة المحكمة التى تجعل العقل البشرى ينطق بأعلى الأصوات فيقول : إن المشاهدة تقول لى : كن موقنا بأن لكل شىء فى هذا الوجود مُوجدا أوجده ، وأن لكل معلول علة وأن لكل فعل فاعلا ولكل مؤثر أثرا ، وأن شيئا مالا يصدر عن غير سبب .

ليس معقولا أن تكون الصدفة هى التى خلقت الذكر والأنثى ، وجعلت بين الزوجين المودة والرحمة .

ليس معقولا أن تكون الصدفة هى التى هدت كل مخلوق إلى وظيفته التى خلق من أجلها ، وأعطته من الحواس والمشاعر ما يعينه على أداء هذه الوظيفة .

ليس معقولا أن تكون الصدفة هى التى أوجدت الكواكب بهذه الهيئة التى فى نهاية الدقة والتنظيم والسرعة الهائلة .

ألا ما أصدق - قوله تعالى - : ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)** ﴾[1] .

ومادام هذان الفرضان الأول والثانى قد ثبت بطلانهما يقينا ، لأنهما خارجان عن دائرة العقل والمنطق والعلم ؛ لم يبق إلا الفرض الثالث ، وهو أن لهذا الكون خالقا مدبرا قادرا حكيما موجدا لغيره :

---

(١) سورة يس الآيات : ٣٨ - ٤٠ .

﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1] .

والحق الذى لا شك فيه أن العلماء قد أقاموا الأدلة المتعددة والمتنوعة على وجود الله - عز وجل - بأساليب متنوعة منها الدقيق الذى لا يفهمه إلا من أوتى قسطا من العلم الواضح الذى يدركه الأمى .

قال فضيلة الشيخ محمد الغزالى - رحمه الله - وهو يتحدث عن وجود الله ما ملخصه : «وجود الله - تعالى - من البداهات التى يدركها الإنسان بفطرته ويهتدى إليها بطبعيته ، وليس من مسائل العلوم المعقدة ، ولا من حقائق التفكير العويصة .

ولا بأس من سوق طائفة من الدلائل التى تفتق للذهن الغافل منافذ يبصر بها ويلتفت لما وراءها .

(ا) إن الإنسان لم يخلق نفسه ، ولم يخلق أولاده ، ولم يخلق الأرض التى يدرج فوقها ، ولا السماء التى يعيش تحتها .... ومن المقطوع به أن شيئًا لا يحدث من تلقاء نفسه ، فلم يبق إلا الله !!

وقد لفت القرآن أنظار العرب إلى مظاهر الإبداع فى المجتمع الساذج الذى يحيون فيه فقال : ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)﴾[2] .

ويسمى هذا الدليل : دليل الإبداع .

(ب) لو دخل المرء دارا فوجد بها غرفة مهيأة للطعام ، وأخرى للمنام ، وأخرى للنظافة ، وأخرى للضيافة .. لجزم بأن هذا الترتيب لم يتم وحده وأن هذا الإعداد النافع لابد أنه قد نشأ عن تقدير وحكمة ، وأشرف عليه فاعل يعرف ما يفعل .

(۱) سورة الأعراف الآية : ٥٤ .
(۲) سورة الغاشية الآيات : ١٧ - ٢٠ .

والناظر فى الكون وآفاقه ، والمادة وخصائصها ، ويعرف أنها محكومة بقوانين مضبوطة ، شرحت الكثير منها علوم الطبيعة والكيمياء والطب .. بطريقة أبعدت كل شبهة توهم أن هذا الكون قد وجد كيفما اتفق .

قال - تعالى - : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62) ﴾[1]

ويسمى هذا الدليل : دليل العناية .

(جـ) هل فكرت فى هذه السيارات المنطلقة ، أعنى هذه الكواكب التى تخترق أعماق الجو ، والتى تلتزم مدارا واحدا لا تنحرف عنه يمينًا ولا يسارا .. من الذى هيمن على نظامها وأشرف على مدارها ؟ بل من الذى أمسك بأجرامها الهائلة ، ودفعها تجرى بهذه القوة الفائقة ؟ إنها لا ترتكز فى علوها إلا على دعائم القدرة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (41) ﴾[2]

ويسمى هذا الدليل دليل الحركة .

(د) لا شك أن لوجود كل واحد منا بداية معروفة ، فنحن قبل ميلادنا لم نكن شيئا يذكر .

وعناصر هذا الكون الذى نعيش فيه كذلك لها بداية معروفة عند أهل الخبرة .

---

(1) سورة الفرقان الآيتان : 61 ، 62 .

(2) سورة فاطر الآية : 41 .

إننا جازمون بأن وجودنا محدث ، لأن تفكيرنا وإحساسنا يهدينا لذلك ، وغير معقول أن يتطور العدم إلى وجود تطورا ذاتيا .

إنه إذا وقعت حادثة لم يعرف فاعلها . . قبل : إن الفاعل مجهول ، ولم يقل أحد قط أنه ليس لها فاعل ، فكيف يراد من العقلاء أن يقطعوا الصلة بين العالم وربه ؟

إننا لم نكن شيئاً ، فكنا ، فمن كَوَّننا :

﴿ **قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ** ﴾[1]

ويسمى هذا دليل الحدوث[2] .

والخلاصة : أن معرفة الله - تعالى - هى أعظم المعارف وأجلها ، إذ هى الأساس الذى تبنى عليه الحياة الروحية الصحيحة كلها .

وأن وجود الله - عز وجل - تشهد به الفطرة الإنسانية ، والعقول الإنسانية ، وقد أقام علماء الإسلام الأدلة الكثيرة والمتنوعة على أن وجود الله - عز وجل - حقيقة لاشك فى أمرها ، ولا مجال لإنكارها .

والذين جادلوا فى هذه الحقيقة السافرة كالشمس ، والباهرة كفلق الصبح ، هم قوم جرفتهم الشهوات ؛ وغلبتهم الغرائز السفلى ، فبرروا هبوطهم وانحرافهم بالإلحاد ، وإنكار وجود الله - تعالى - ، حتى لا يحاسبهم أحد ، ولا يحاسبوا أنفسهم على الانغماس فى المحرمات ﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** ﴾[3] .

ونختتم حديثنا عن معرفة الله - تعالى - ووجوده ، بهذه الإشراقات القلبية ، وبهذه التجليات الفطرية ، التى خطتها يد إنسان عرف ربه ، وأيقن بواحدانيته ووجوده فقال :

---

(١) **سورة الأنعام الآية :** ٩١ .

(٢) **من كتاب :** (عقيدة المسلم) ص ١٥ وما بعدها .

(٣) **سورة النور آية :** ٤٠ .

أنت أنت الله[1]

إذا ما اتجه الفكر فى السموات حيث انتشرت النجوم فى الليل ، وإذا ما كلَّ البصر فيما لا نهاية له من الآفاق المظلمة ، وإذا ما خشعت النفس خشعتها من رهبة السكون ، فإنك تشرف بوجهك الكريم من خلال هذه الآفاق ، ونسمع صوتك فى ذلك السكون ، وتمس بعظمتك النفس الخاشعة المطمئنة ، حينئذ تبدو الآفاق المظلمة كأنها باسمة مشرقة ، ويتحول السكون إلى نبرات مطربة تنبعث من كل صوب ، وحينئذ تتغنى النفس الخاشعة لتقول : «أنت أنت الله» .

وإذا ما كان المتأمل على شاطئ البحر الخضم ، وأرسل الطرف بعيدًا بعيدًا ، حيث تختلط زرقة السماء بزرقة الماء ، وحيث تنحدر شمس الأصيل رويدًا رويدًا كأنها الإبريز المسحور ، لتغيب فى هذا المتسع الملح الأجاج ، وحيث تتهادى الفلك ذلت الشراع الأبيض فى حدود الأفق الملون بألوان الشفق ، كأنها طائر يسبح فى النعيم - إذ ذاك يشعر المتأمل بعظمة واسعة دون عظمة البحر الواسع ، وإذ ذاك تقر العين باطمئنان الفلك الجارى على أديم الماء الممهد ، وفى رعاية الله الصمد ، حيث تكون مظهر العظمة ، وحيث تطمئن النفس لروية ما تطمئن إليه فى منظر جميل ، إذ ذاك يدق الفؤاد بدقات صداها فى النفس : «أنت أنت الله» .

وإذا ما انطلقت السفينة بعيدًا بعيدًا فى البحر اللجى ، وهبت الزوابع ، وتسابقت الرياح ، وتلبد بالسحب الفضاء ، واكفهر وجه السماء ، وأبرق البرق ، وأرعد الرعد ، وكانت ظلمات بعضها فوق بعض ، ولعبت بالسفينة الأمواج ، وأجهد البحار جهده ، وأفرغ الربان حيلته ، وأشرفت السفينة على الغرق ، وتربص الموت من كل صوب وحدب - إذ ذاك يشق ضياؤك هذه الظلمات والمسالك : وتحيط رأفتك بهذه الأخطار

(١) من «**خواطر نفس**» : للدكتور منصور فهمى .

والمهالك ، وتصل بحبال نجدتك المكروبين البائسين ، وإذ ذاك يردد القلب واللسان : «أنت أنت الله» .

وإذا ما اشتد السقم بمن أحاطت به عناية الأطباء ، وسهر الأوفياء ، ونام بين آمال المخلصين ودعوات المحبين ، ثم ضعفت حيلة الطبيب ولم ينفع وفاء الحبيب ، واستحال الرجاء إلى بلاء - إذ ذاك تتجلى مستويًا على عرش عظمتك ، والنواصى خاشعة ، والنفوس جازعة ، والأيدى راجفة ، والقلوب واجفة لتقول : «أنا قضيت» ، ويقول الطبيب والقريب والحبيب : «لك الأمر ، أنت أنت الله» .

وإذا ما باين الدنيا إنسان وباينته ، إذ ينظر إلى المال فيلقاه فانيًا ، وإلى الجاه فيلقاه ذاويًا ، وإلى الأمانى فيلقاها زائلة ، وإلى الآمال فيجدها باطلة ، وإلى الشهوات فيلقاها خادعة كاذبة ، وإلى المسرات فيجدها آفلة غاربة - إذ ذاك يستغنى عن الجاه والمال ، وتشل فى نفسه حركة الآمال . وبين جاه يدول ، وأمل يزول ، لا يملأ فراغ النفس إلا ذكرك : «أنت أنت الله» .

وإذا ما وقعت العين على زهرة تتفق فى الأكمام ، أو تلافت العين بعين يملؤها الحسن والابتسام ، وإذا أعجب المعجبون بجمال الفجر المتنفس ، وتغريد الطير المتربص ، وعاود الصدر انشراحه ، وملأ القلب ارتياحه - إذ ذاك يشرق فى قلوبنا نورك الجميل فنراك ونقول : «أنت أنت الله» .

فيما يمس النفس من مظاهر العظمة ، ومظاهر الوسعة ، ومظاهر الرحمة ومظاهر القدرة والقضاء ، ومظاهر الدوام والبقاء ، ومظاهر الجمال والجلال اعتاد الناس أن يصفوك بالعظيم ، والواسع والرحيم ، والقادر والدائم ، والجميل والجليل ، وأوتار القلوب تردد : «أنت أنت الله ، أنت أنت الله» .

وحدانية الله - تعالى - والأدلة عليها

الوظيفة الأساسية التى من أجلها بعث الله - تعالى - أنبياءه ورسله هى : دعوة الناس إلى إخلاص العبادة والطاعة لله الواحد القهار، وتنقية الإيمان بالله - عز وجل - مما شابه من رذائل الوثنية، ونجاسة الشرك الذى جعل بعض الناس يعبدون أصناما لا تنفع ولا تضر، أو أوثانا لا تملك من أمرها شيئا، أو مخلوقات أخرى كالشمس والقمر والنجوم، وغير ذلك من المخلوقات التى سخرها الخالق - عز وجل - لمنفعة الإنسان .

والسؤال : كيف عالج القرآن الكريم هذه القضية علاجا حكيما مقنعا ؟

وكيف ناقش المنكرين لوحدانية الله - تعالى - مناقشة تجعل كل ذى عقل سليم يعتقد بأن المستحق للعبادة هو الله - تعالى - وحده ؟

وكيف حاور الشاكين فى أن المستحق للعبادة والخضوع هو الله رب العالمين، محاورة تهدى العقول إلى طريق الحق والصواب ؟

وكيف جادل كل من يعارض فى وحدانية الله - عز وجل - مجادلة موضوعية تزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم بأن المستحق للعبادة هو الله - تعالى - وحده، وتحمل غيرهم على اتباع الحق متى فتحوا قلوبهم له، ومتى تركوا التقاليد البالية، والتعصب الذميم، والعناد الأحمق، والهوى المردى، والمتاع الدنيوى الزائل !!

للإجابة على هذه الأسئلة نقول :

إن المتدبر للقرآن، يراه عندما حاور المنكرين لواحدانية الله - تعالى - أو الشاكين فيها، لم يأت لهم بدليل واحد على أن المستحق للعبادة هو الله - تعالى - وحده، ولم يكتف بأسلوب واحد لتأكيد وتقرير هذه الحقيقة، وإنما ساق حشودا من الأدلة والبراهين، وألوانا من الأساليب الحكيمة، التى تقنع العقول، وتشرح الصدور، وتجعل كل ذى قلب سليم يهتف من أعماق نفسه : إنما الله إله واحد، لاعبادة إلا له - عز وجل - :

﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[1]

وهاك جانبا من الأدلة ومن الأساليب التى سلكها القرآن الكريم لتأكيد. هذه الحقيقة العظمى .

أولا : بين القرآن الكريم للناس جميعا ، أن الرسول - ﷺ - عندما دعاهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، قد أكد وقرر ما جاء به كل رسول من قبله .

وحكى القرآن الكريم ذلك فى آيات منها قوله - سبحانه - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾[2]

أى : وما أرسلنا من قبلك من رسول يامحمد ، إلا وأعلمناه عن طريق وحينا الأمين ، أنه لا إله يستحق العبادة إلا أنا الواحد القهار ، فعليه أن يأمر قومه بطاعتى وعبادتى والخضوع لى وحدى .

ثم فصل القرآن الكريم هذا الإجمال فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) ﴾[3]

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٦٥) ﴾[4]

وقوله - عز وجل - ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[5]

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٥٤ .
(٢) سورة الأنبياء الآية: ٢٥ .
(٣) سورة الأعراف الآية: ٥٩ .
(٤) سورة الأعراف الآية: ٦٥ .
(٥) سورة الأعراف الآية: ٨٥ .

وهكذا نجد أن كل نبى أرسله الله - تعالى - إلى الناس ، كانت الكلمة الأولى التى ينصح بها قومه : أن يأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده وأن ينهاهم عن أن يشركوا به شيئا ، ثم يرشدنا إلى وجوب التحلى بالفضائل ، والتخلى عن الرذائل .

ثانيا : بين القرآن للناس جميعا ، أن الأديان السماوية التى أنزلها الله - عز وجل - على أنبيائه ، متفقة فى جوهرها ، وأن الخلاف بينها إنما هو فى الفروع فحسب ، ومن الآيات القرآنية التى قررت هذه الحقيقة قوله - سبحانه - : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾[1]

قال الإمام الفخر الرازى عند تفسيره لهذه الآية : «أى شرع الله لكم ياأصحاب محمد من الدين ، ما وصى به نوحا ومحمدًا وإبراهيم وموسى وعيسى .. وإنما خص - سبحانه - هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر ، لأنهم أكابر الأنبياء ، وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرين ...»[2]

والمراد بما سنه وشرعه - سبحانه - على ألسنة هؤلاء الرسل الكرام : أصول الأديان التى لا يختلف فيها دين عن دين ، أو شريعة عن شريعة ، كإخلاص العبادة لله - تعالى - والإيمان بكتبه ورسله ، وملائكته ، واليوم الآخر كما قال - تعالى - : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [3]

أما ما يتعلق بفروع الشرائع ، كتحليل بعض الطيبات لقوم على سبيل التيسير لهم ، وتحريمها على قوم على سبيل العقوبة لهم ، فهذا لا يدخل فى الأصول الثابتة

(١) سورة الشورى الآية: ١٣ .
(٢) تفسير الفخر الرازى : جـ ٢ ص ٢٨٢ .
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٨٥ .

فى جميع الأديان ، وإنما يختلف باختلاف الظروف والأحوال ، ويؤيد ذلك قوله - سبحانه - :

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[1]

أى : لكل أمة من الأمم الحاضرة والماضية ؛ وضعنا شريعة حكيمة ، ومنهاجا واضحا خاصا بها فيها يتعلق بالجزئيات والفروع . أما الأصول والأركان كإخلاص العبادة لله ، والتحلى بمارم الأخلاق ، فالأديان كلها متفقة فيها .

وقوله - سبحانه - : (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) : تفصيل وتوضيح لما شرعه الله - تعالى - لهؤلاء الرسل الكرام ولما وصاهم به .

والمراد بإقامة الدين : التزام أوامره ونواهيه ، وطاعة الرسل فى كل ما جاءوا به من عند ربهم . أى : أوصاكم الله - تعالى - ياأمة محمد - ﷺ - كما أوصى الأمم السابقة ، بإخلاص العبادة لخالقكم ، وبالتزام الفضائل واجتناب الرذائل وعدم الاختلاف فى أحكامه التى لا تقبل ذلك . ثم بين - سبحانه - موقف المشركين من الدين الحق فقال : «كبر على المشركين ما تدعوهم إليه» .

أى : شق وعظم على المشركين دعوتكم إياهم إلى إخلاص العبادة لله وحده ، وإلى ترك ما ألفوه من الشرك ومن التقاليد الفاسدة التى ورثوها عن آبائهم .

وقوله - سبحانه - «الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب» : بيان لكمال قدرته - تعالى - ونفاذ مشيئته ، أى : الله - تعالى - بإرادته وحكمته يصطفى ويختار لرسالته من يشاء من عباده ، ويهدى إلى الحق من ينيب إليه ، ويرجع إلى طاعته ويقبلل على عبادته بإخلاص وخشوع .

هذا ، وقد كانت أقول النبى - ﷺ - تأكيدا وتفصيلا لما جاء فى القرآن الكريم ، فقد أثنى - ﷺ - على جميع الأنبياء ، ومدحهم بما هم أهل له ، وبين أنه هو خاتمهم ، ففى الصحيحين - البخارى ومسلم - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - أنه قال «إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة - أى : طوبة - من زواية ، فجعل الناس يطوفون

(1) سورة المائدة الآية : ٤٨ .

به ويعجبون له : ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال - ﷺ - : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين»

وعندما قال له - ﷺ - أحد أصحابه : ياخير البرية : رد عليه - ﷺ - بكل تواضع بقوله : (ذاك إبراهيم - عليه السلام -) .

وقال ﷺ : (الأنبياء إخوة من عَلاَّت : دينهم واحد ، وأمهاتهم شتى) .

هكذا نرى أن الأديان السماوية التى أنزلها - سبحانه - على أنبيائه ، متفقة فى أنه لاعبادة إلا لله - تعالى - وحده .

ثالثا : من أهم وسائل الإقناع التى اتبعها القرآن الكريم ، فى دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لخالقهم : أنه ساق الشبهات التى تذرع بها المشركون فى عبادتهم لغير الله - تعالى - بأمانة وموضوعية ، ثم رد عليها بما يزهقها ، ويكشف عن بطلانها .

ومن أهم هذه الشبهات : التقليد الأعمى من المشركين لآبائهم ورؤسائهم ، وزعمهم أن تلك الآلهة الباطلة ستشفع لهم ، وستدافع عنهم . .

أما التقليد الأعمى للآباء والانقياد للزعماء والرؤساء ، فقد حكاه القرآن عنهم فى آيات متعددة ، ورد عليهم بما يجعلهم يقلعون عن ذلك لو كانوا يعقلون . ومن هذه الآيات قوله - تعالى - :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾[1] .

أى : وإذا قيل لأولئك الضالين ، اتركوا التقليد الأعمى واتبعوا الحق الذى جاءكم من عند ربكم ، أعرضوا عن الناصح لهم ، وقالوا على سبيل العناد والجهل : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام ، ومن خضوع للقادة والزعماء !! وهنا يرد عليهم القرآن بما يزيل جهلهم ، ويهديهم إلى الطريق الحق لو فتحوا عقولهم له فيقول : «أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون» أى أيتبعون ما وجدوا عليه

(١) سورة البقرة الآية: ١٧٠ .

آباءهم ، ويقلدونهم هذا التقليد الدميم ، حتى ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا من أمور الدين الصحيح ولا يهتدون إلى طريق الصواب .

ومن أجمع الآيات التى نفرت من التقليد الباطل ، وصورت تصويرا بليغا مؤثرا العداوة التى تكون بين التابعين والمتبوعين ... قوله - تعالى - ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)** ﴾[١] .

فأنت ترى هذه الزيات الكريمة قد مدحت المؤمنين الصادقين الذين أخلصوا عبادتهم لخالقهم ، عن إذعان واقتناع ، وذمت الذين ينقادون للمخلوقات والمعبودات الباطلة دون فهم أو إدراك ، وصرحت بأن الزعماء والرؤساء سيتبرءون من أتباعهم ومرءوسيهم ، وأن هؤلاء الأتباع سيندمون ويتحسرون ويتمنون العودة إلى الدنيا لكى يتبرءوا من زعمائهم ، ولكن هذا التبرؤ والتحسر لن يفيدهم شيئًا ، وإنما الجميع مصيرهم إلى النار وبئس المصير .

وأما مزاعم المشركين بأن معبوداتهم الباطلة ستنفعهم فقد حكاها القرآن فى آيات منها قوله تعالى - : ﴿ **أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾[٢] .

أى : لله وحده الدين الخالص ، والمشركون الذين اتخذوا معبودات باطلة ليعبدوها من دون الله ، كانوا يقولون فى الرد على من ينهاهم عن ذلك : إننا ما نعبد هذه المعبودات إلا من أجل أن توسل بها ، لكى تقربنا إلى الله قربى ، ولتكون شفيعة لنا عنده حتى يرفع عنا البلاء والمحن .

---

(١) سورة البقرة الآيات : ١٦٥ - ١٦٧ .

(٢) سورة الزمر الآية : ٣ .

أما الآيات القرآنية التى صرحت بأن هذه المعبودات الباطلة لن تستطيع أن تدافع عن نفسها فضلا عن الدفاع عن غيرها ، فهى كثيرة وقد قررت هذه الحقيقة بأساليب متنوعة ، تارة عن طريق بيان أن هذه الآلهة مع عابديها ستكون وقودًا للنار ، كما فى قوله - تعالى - :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) ﴾[١] .

وتارة عن طريق بيان أن الآلهة لا تسمع ولا ترى ، كما فى قوله - سبحانه - : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾[٢] .

وتارة عن طريق ضرب الأمثال كما فى قوله - تعالى - :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾[٣] .

رابعًا : من أبلغ الأساليب والبراهين التى استعملها القرآن لإقناع العقول ، بأن المستحق للعبادة والطاعة ، هو الله - تعالى - وحده : ضرب الأمثال .

وإنما تضرب الأمثال ، لتوضيح المعنى الخفى ، وتقريب المعقول من المحسوس ؛ وعرض الشىء الغائب فى صورة الأمر المشاهد ؛ فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب ؛ وأثبت فى النفوس .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣) ﴾[٤] .

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ٩٨ .
(٢) سورة فاطر الآية : ١٤ .
(٣) سورة الحج الآية : ٧٣ .
(٤) سورة العنكبوت الآية : ٤٣ .

وفى آية ثانية : ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] .

وفى آية ثالثة : ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)﴾[2] .

ومن الأمثال التى ضربها الله - تعالى - لبيان أنه ـ سبحانه- لا معبود بحق سواه قوله - عز وجل - :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾[3] .

أى : ذكر الله - تعالى - لكم - أيها الناس - لكى تتعظوا وتتفكروا وتخلصوا العبادة لخالقكم ؛ حال رجلين . أحدهما : عبد مملوك لغيره وهذا لا يقدر على شىء من التصرفات حتى لو كانت قليلة .

والثانى : عبد حر مالك لأمر نفسه ، رزقة الله - تعالى - مالا وفيرا حلالا حسنًا : فهو ينفق من هذا المال فى السر والعلن على المحتاجين والمساكين .

هذان هما الجانبان المتقابلان فى هذا المثل ، والفرق بينهما واضح وعظيم عند كل ذى عقل سليم ، ولذا جاء بعدهما الاستفهام الإنكارى التوبيخى وهو قوله : (هل يستوون) ؟ أى : هل يستوى فى عرفكم أو فى عرف أى عاقل ، هذا العبد المملوك العاجز الذى لا يقدر على شىء ، مع هذا الإنسان الحر المالك الذى رزقه الله - تعالى - رزقًا واسعًا حلالا ؛ فشكر الله عليه ، وأنفق منه سرا وجهرًا؟ ! إن مما لاشك فيه أنهما لا يستويان حتى فى نظر من عنده أدنى شىء من عقل . ومادام الأمر كذلك فكيف سويتم - أيها المشركون الجهلاء - فى العبادة بين الخالق الرازق الذى يملك كل شىء ؛ وبين غيره من المعبودات الباطلة التى لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تجلب خيرًا أو تدفع ضرا !!

---

(١) سورة الحشر الآية: ٢١ .

(٢) سورة إبراهيم الآية: ٢٥ .

(٣) سورة النحل الآية: ٧٥ .

وقوله - سبحانه - (الحمد لله) : ثناء منه - سبحانه- على ، ذاته حيث ساق - سبحانه - هذه الأمثال الواضحة للتميز بين الحق والباطل .

أى : قل - أيها الإنسان المؤمن العاقل - الحمد كله لله - تعالى - على إرشاده لعباده المؤمنين ، وتعليمهم كيف يقذفون بحقهم على باطل أعدائهم فإذا هو زاهق .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : (بل أكثرهم لا يعلمون) أى : بل أكثر هؤلاء المشركين ؛ لا يعلمون كيف يميزون بين الحق والباطل لانطماس بصائرهم واستيلاء الجحود والحسد والجهل عليهم .

وقال : - سبحانه - : (بل أكثرهم) للإشعار بأن هناك قلة من أولئك المشركين ، تعرف الحق معرفة تامة ولكن الهوى والغرور والتقليد الأعمى حال بينها وبين اتباع الحق .

هذا هو المثال الذى ذكره الله - تعالى - للاستدلال على بطلان التسوية بين عبادة الله - تعالى - الخالق لكل شىء ، والمالك لكل شىء وبين عبادة غيره من الأصنام ، والجمادات التى لا تخلق شيئًا ، ولا تضر ولا تنفع ولكن هل اكتفى القرآن بضرب هذا المثل الواضح فى التفرقة بين الحق والباطل ؟ كلا ، لقد ساق القرآن بعد هذا المثل مثلا آخر أشد وضوحا فى الدلالة على وجوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، فقال - سبحانه - :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) ﴾[١] .

أى وذكر الله - تعالى - لكم - أيها الناس - مثلا آخر لرجلين : أحدهما أبكم لا يستطيع النطق بكلمة ولا يقدر على فعل شىء ؛ وهو فى الوقت ذاته «كل على مولاه» أى : حمل ثقيل وهم كبير على مولاه الذى يتولى شئونه من طعام وشراب وغيرهما . فضلا عن كل ذلك فإن هذا الرجل الأبكم العاجز ؛ حيثما يوجهه مولاه وكافله لقضاء أمر من الأمور ، يعود خائبًا ، لعجزه وضعف حيلته ، وزوال إدراكه .

(١) سورة النحل الآية: ٧٦ .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هذا الرجل بأربع صفات ، تدل على سوء فهمة ، وقلة حيلته ، وانسداد طرق الخير فى وجهه .

هذا هو الجانب الأول من المثل ، أما الجانب الثانى منه ؛ فيتجلى فى قوله - سبحانه - : «هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم» .

أى : هل يستوى هذا الرجل الأبكم العاجز ، مع رجل يأمر غيره بالعدل ويسلك الطريق المستقيم ، ويتحلى بالحق القويم ، وبالعقل السليم ، إذ هو صالح فى ذاته ونافع لغيره .

لا شك أن هذين الرجلين لا يستويان فى عقل عاقل ، إذ أن أولهما : أبكم عاجز خائب ، وثانيهما : فصيح بليغ ، وفى الوقت نفسه نافع لغيره ، وجامع لخصال الخير فى ذاته .

ومادام الأمر كذلك ، فكيف سويتم - أيها المشركون الضالون - فى العبادة بين الله الواحد القهار ، وبين تلك المعبودات الباطلة الصماء الخرساء التى لا تملك الدفاع عن نفسها .

وبذلك نرى أن هاتين الآتيين الكريمتين قد ساقتا مثلين واضحين ، لبيان الفرق الشاسع بين ذات الله - تعالى - الخلاق العليم ، والرزاق الكريم ، وبين تلك المعبودات الباطلة التى أشركها الجاهلون فى العبادة مع الله - تعالى - أو بين المؤمن الذى هو على بصيرة من أمره ، وبين الكافر الذى استحب العمى على الهدى ، أو بين الحق فى وضوحه وجماله وجلاله وبين الباطل فى ظلامه وقبحه .

وهناك مثل ثالث لايقل فى روعته وجلاله ، وفى إحقاقه للحق وفى إبطاله للباطل ، عن المثلين السابقين ويتجلى هذا المثل فى قوله - تعالى - :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾[1] .

والمعنى : إن مثل المشرك الذى يعبد آلهة متعددة ؛ كمثل عبد مملوك لجماعة من

(١) سورة الزمر الآية : ٢٩ .

الناس متشاكسين متنازعين لسوء أخلاقهم وطباعهم وهذا العبد ممزق بينهم ؛ لأن أحدهم يطلب منه شيئًا معينا . والثانى يطلب منه شيئًا يناقض ما طلبه الأول . وهو حائر بينهم جميعًا ؛ لا يدرى أيطيع ما أمره به الأول أم الثانى أم الثالث .

هذا هو حال المشرك فى حيرته ، وضلاله ، وانتكاس باله .

أما مثل المؤمن ، فهو كمثل عبد مملوك لسيد واحد ، وخالص لفرد واحد ، وليس لغيره من سبيل إليه ، ولا سلطان عليه ، فهو يخدم سيده بإخلاص وطاعة ، وفى راحة تامة من الحيرة التى انغمس فيها ذلك العبد الذى يملكه الشركاء المتشاكسون المتنازعون .

فالمقصود بهذين المثلين بيان ما عليه العبد المشرك من ضلال وتحير وتمزق وما عليه العبد المؤمن من هداية واستقرار واطمئنان .

ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : «واضرب يامحمد لقومك مثلا وقل لهم : ما تقولون فى رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء ، بينهم تنازع واختلاف . كل واحد منهم يدعى أنه عبده . . وهو متحير فى أمره .

وفى آخر : قد سلم لمالك واحد وخلص له ، فهو معتنق لما لزمه من خدمته ، معتمد عليه فيما يصلحه ، أى العبدين أحسن حالا وأجمل شأنًا ؟

والمراد تمثيل حال من بعيد آلهة شتى ، ويبقى متحيرا ضائعا ، وحال من يعبد إلها واحدًا لا شريك له»[1] .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : «هل يستويان مثلا» للإنكار والاستبعاد .

أي لا يستوى حال الرجل الذى يملكه متشاكسون متنازعون ، بحال الرجل الذى لا يملكه سوى خالقه ورازقه ، فى رأى أى ناظر ، وفى عقل أى عاقل ، فالأول فى حيرة من أمره ، والثانى على بينة من شأنه .

وجملة «الحمد لله» تقرير وتأكيد لما قبلها من نفى الاستواء واستبعاده .

---

(١) **تفسير الكشاف**: جـ ٤ ص ١٢٦ .

وتصريح بأن ما عليه المؤمنون في العبودية لله - تعالى - يستحق منهم كل شكر وثناء على الله - تعالى - حيث وفقهم لذلك .

وهاك مثلا رابعًا لا مجال للجدل فيه لوضوحه واعتماده على المنطق السليم فى إثبات أن لهذا الكون إلها واحدا ، يجب أن يخلص له الجميع العبادة والطاعة ، وهذا المثل منتزع من أحوال النفس الإنسانية ، التى هى أقرب ما تكون إلى الإنسان ، ويتجلى فى قوله - تعالى - :

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾[1] .

والمعنى ضرب الله - تعالى - لكم أيها الناس مثلا منتزعها من أنفسكم التى هى أقرب شىء إليكم ، وبيان هذا المثل : أنكم لا ترضون أن يشارككم فى أموالكم التى رزقناكم إياها عبيدكم وإماؤكم ، مع أنهم مثلكم فى البشرية ، ونحن الذين خلقناهم كما خلقناكم ، بل إنكم لتخافون على أموالكم منهم أن يشاركوكم فيها ، كما تخافون عليها من الأحرار المشابهين لكم فى الحرية وفى جواز التصرف فى تلك الأموال ، فإذا كان هذا شأنكم مع عبيدكم الذين هم مثلكم فى البشرية ، والذين لم تخلقوهم ، بل نحن الذين خلقناهم وخلقناكم ، فكيف أجزتم لأنفسكم أن تشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة مع أنه - سبحانه - هو الخالق لكم ولهم ، والرازق لكم ولهم ؟ !!

إن تصرفكم هذا ظاهر التناقض والبطلان ، لأنكم لم ترضوا أن يشارككم غيركم فى أموالكم ، ورضيتم أن تشركوا مع الله - تعالى - غيره فى العبادة ، مع أنه - سبحانه - هو الخالق والرازق لكل شىء .

فالمقصود من الآية الكريمة : إبطال الشرك بأبلغ أسلوب ، وأوضح بيان ، وأصدق حجة ، وأقوى دليل ، ولذا ختمها - سبحانه - بقوله : «كذلك نفصل الآيات لقوم

---

(١) سورة الروم الآية : ٢٨ .

يعقلون» أى : مثل ذلك التفصيل الجلى الواضح ، نفصل الآيات الدالة على وحدانيتنا لقوم يعقلون هذه الأمثال ، وينتفعون بها فى إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

قال الإمام القرطبى عند تفسيره لهذه الآية : (قال بعض العلماء : هذه الآية أصل فى الشركة بين المخلوقين ، لافتقار بعضهم إلى بعض ، ونفيها عن الله - سبحانه - وذلك أنه قال «ضرب لكم مثلا من أنفسكم» فيجب أن يقولوا : ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقتنا فيقال لهم : فكيف يتصور أن تنزهوا أنفسكم من مشاركة عبيدكم ، وتجعلوا عبيدى شركائى فى خلق ، فهذا حكم فاسد ، وقلة نظر وعمى قلب .

فإذا أبطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة والخلق كلهم عبيد الله - تعالى - فيبطل أن يكون شىء من العالم شريكا لله فى شىء من أفعاله»[1] .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم لا يكتفى بإيراد مثل واحد ، أو أسلوب واحد ، للدلالة على المستحق للعبادة إنما هو الله - تعالى - وحده ، وإنما يسوق الأمثال المتنوعة ، ليزداد المؤمنون إيمانهم ، وليعود غيرهم إلى الرشد والصواب ، إن كانوا من أولى الألباب .

خامسا : التنفير من الإشراك بالله - تعالى - تنفيرا يجعل كل عاقل ينأى بنفسه عن الاقتراب منه ، وقد جاء هذا التنفير بأساليب متعددة . .

منها : التصريح بأن كل الذنوب قد يغفرها الله - تعالى - سوى الإشراك به ، قال - تعالى - :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) ﴾[2] .

أى إن الله - تعالى - لا يغفر لمشرك مات على شركه ، ويغفر مادون ذلك من

(١) **تفسير القرطبى** : جـ ١٤ ص ٢٣ .
(٢) **سورة النساء الآية** : ٤٨ .

الذنوب لمن يشاء أن يغفر له ، ومن يشرك بالله فى عبادته غيره من خلقه ، فقد ارتكب من الآثام والكبائر مالا تتعلق به المغفرة .

وقد أورد الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة ، ثلاثة عشر حديثا نبويا تتعلق بها ، ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ : (لا تزال المغفرة بالعبد مالم يقع فى الحجاب . قيل يانبى الله وما الحجاب ؟ قال : الإشراك بالله ، ثم قرأ - ﷺ - هذه الآية) . وشبيه بهذه الآية

قوله - سبحانه - ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾[1] .

ومنها : تصوير حال من يشرك بالله - تعالى - تصويرا تنخلع له القلوب ، ويحمل كل عاقل على اجتناب هذا الرجس ، كما فى قوله - سبحانه - :

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾[2] .

أى : ومن يشرك بالله - تعالى - فى عبادته ومات على ذلك ، فكأنما سقط من السماء على الأرض ، فاختطفته جوارح الطير بسرعة فمزقت أوصاله ، أو تسقطه الريح فى مكان بعيد أشد البعد ، بحيث لا يعثر له على أثر .

ومنها : بيان أن الإشراك بالله يؤدى إلى أشد ألوان العذاب ، ومن الآيات التى أكدت هذه الحقيقة قوله - تعالى - : ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾[3]

(١) سورة المائدة الآية : ٧٢ . (٢) سورة الحج الآية : ٣١ .
(٣) سورة الزمر الآيتان : ١٥ ، ١٦ .

ومنها : الإخبار بأن المؤمنين لايليق بهم أن يستغفروا للمشركين مهما بلغت القرابة بينهم ، كما فى قوله - سبحانه - :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ﴾[1]

أى : ما صح وما استقام للنبى - ﷺ - ولأصحابه ، أن يطلبوا المغفرة للمشركين مهما بلغت درجة القرابة فيما بينهم ، من بعد ما ظهر لهم أن هؤلاء المشركين من أصحاب النار بسبب موتهم على الكفر . ولا حجة لهم فى استغفار إبراهيم - عليه السلام - لأبيه آزر ، لأن استغفاره له إنما كان بسبب وعد صدر من إبراهيم لأبيه فلما أصر الأب على كفره ومات على ذلك تبرأ منه إبراهيم - عليه السلام - لأنه كثير الخشوع لله - تعالى - . والمراد بهذا الوعد ما جاء فى القرآن من قول إبراهيم لأبيه : ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾[2] هذه بعض الآيات التى وردت فى التنفير من الإشراك بالله - تعالى - ، وهناك آيات أخرى فى هذا الشأن ، لو استقصيناها لطال المقال ، ولعل فيما ذكرناه العظة لأولى الألباب .

سادسا : من أحكم الأدلة التى استعملها القرآن الكريم لإثبات أن المستحق للعبادة والطاعة إنما هو الله - تعالى - وحده : مخاطبة العقول عن طريق المشاهدة ، بأن هذا الكون البديع ، الذى كل شىء فيه يسير بنظام متقن ، وبترتيب دقيق .. لا يصلح لخلقه وإيجاده إلا إله واحد لا شريك له ..

وصدق إذ يقول : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) ﴾[3]

---

(١) سورة التوبة الآيتان : ١١٣ ، ١١٤ .

(٢) سورة مريم الآية : ٤٧ .

(٣) سورة الملك الآيتان : ٣ ، ٤ .

أى : ما ترى - أيها الناظر فى هذا الكون - فى خلق الرحمن من تفاوت أو اضطراب أو خلل ، فإن كنت فى شك من ذلك ، فكرر النظر فيما خلقنا حتى يتضح لك الأمر ، وستكون النتيجة بعد تكرار النظر مرات ومرات ، إلى هذا الكون الذى أوجدناه بقدرتنا ، أن ينقلب إليك بصرك خائبا وهو كليل متعب ، لأنه لم يجد فيما خلقناه أدنى شىء من الخلل أو الوهن أو التباين .

من الآيات القرآنية الكثيرة التى تشبه هاتين الآيتين فى الدلالة على أن هذا الكون قد أوجده الله - تعالى - بتقدير بديع ، وتكوين حكيم ، وإتقان ليس بعده إتقان ، قوله - سبحانه - :

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾[١]

ولقد ساق القرآن الكريم كثيرا من الأدلة العقلية والنقلية ، التى تشهد بأن هذا الكون البديع المتقن ، لا يصلح أن يكون بهذه الصورة الجميلة المحكمة إلا إذا كان خالقه إلها واحدا ، وهو الله - تعالى - «الذى أحسن كل شىء خلقه»

ومن الآيات التى قررت هذه الحقيقة قوله - تعالى - :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤) ﴾[٢] .

والمعنى : لو كان فى السموات والأرض آلهة أخرى سوى الله - تعالى - تدبر أمرهما ، لفسدتا ولخرجتا عن نظامهما البديع ، الذى لا خلل فيه ولا اضطراب ،

(١) سورة يس الآيات : ٣٧ - ٤٠ .

(٢) سورة الأنبياء الآيات : ٢٢ - ٢٤ .

وذلك لأن تعدد الآلهة يلزمه التنازع والتغالب بينهم ، فيختل النظام لهذا الكون ، ويضطرب الأمر ، ويعم الفساد فى هذا العالم .

ولما كان المشاهد غير ذلك ، إذ كل شىء فى هذا الكون يسير بنظام محكم دقيق ، دل على أن لهذا الكون كله ، إلها واحدا قادرا حكيما لاشريك له .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية :

«والمعنى لو كان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة شتى ، غير الواحد الذى هو فاطرهما لفسدتا ، وفيه دلالة على أمرين : أحدهما : وجوب ألا يكون مدبرهما إلا واحدًا ، والثانى : ألا يكون ذلك إلا إياه وحده لقوله : «إلا الله» .

فإن قلت : لم وجب الأمران ؟ قلت : لعلمنا أن الرعية تفسد بتدبير الملكين : لما يحدث بينهما من التناكر والتغالب والاختلاف ، ولقد قال عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الأشدق : كان والله أحب إلى من دم عينى ، ولكن لا يجتمع فحلان فى شول[1] - أى : لا يجتمع ذكران فى عدد من الإناث !! -

وبعد أن ساق - سبحانه - هذا الدليل العقلى الناصع على وحدانيته ، أتبعه بدليل آخر نقلى ، فقال - تعالى ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤) ﴾[2]

أى : إن هؤلاء المشركين قد أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى بسبب جهلهم وعنادهم ، قل لهم - أيها الرسول الكريم - هاتوا برهانكم على أن مع الله - تعالى - آلهة أخرى ، ولا شك أنهم لا برهان لهم على ذلك ، لأن الوحى الإلهى الناطق بتوحيد الله موجود فى القرآن الذى نزل على ، وموجود فى كتب الأنبياء السابقين . وبذلك تكون الآيات الكريمة قد أقامت أعظم الأدلة العقلية والنقلية على وحدانية الله - عز وجل - .

وشبيه بهذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) ﴾[3] .

---

(١) تفسير الكشاف : جـ ٣ ص ١١١ .

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٢٤ . (٣) سورة المؤمنون الآية : ٩١ .

أى : لم يتخذ - الله تعالى - ولدا كما يزعم هؤلاء الجاهلون ، لأنه - سبحانه - منزه عن ذلك ، ولم يكن معه إله يشاركه فى ألوهيته وربوبيته ، ولو كان الأمر كما يزعمون من أن معه إلهًا آخر ، لذهب كل إله بما خلق واستقبل به عن غيره ، ولحدث بينهم التحارب والتغالب ، ولفسد هذا الكون . تنزه الله - تعالى - وتقدس عما قاله هؤلاء الضالون .

سابعًا : دحض مزاعم المشركين فى أن الله - تعالى - قد شاء لهم الكفر وقد جاء هذا الدحض لمزاعمهم بأساليب متنوعة ، وفى آيات متعددة منها قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (148) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (149) ﴾[1]

أى : سيقول الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة : سيقولون لو شاء الله ألا نشرك معه فى العبادة غيره لنفذت مشيئه ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، بل شاء لنا أن نشرك معه فى العبادة هذه الأصنام ومثل هذا الكلام الساقط قد قاله الأقوام السابقون لأنبيائهم ، واستمروا على ذلك حتى نزل بهم عذابنا فأهلكهم . قل - أيها الرسول الكريم لهؤلاء المشركين : هل عندكم من علم ثابت تعتمدون عليه فى قولكم «لو شاء الله ما أشركنا» ! إن كان عندكم هذا العلم فأخرجوه لنا لنتباحث معكم فيه ، فإن العاقل لا يتكلم بدون علم ، ولا يحيل كذبه على مشيئة الله - تعالى التى لا يدرى أحد عنها شيئًا . .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (35) ﴾[2] .

(1) سورة الأنعام الآيتان : ١٤٨ ، ١٤٩ .

(2) سورة النحل الآية : ٣٥ .

قوله - سبحانه - : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٢٠) ﴾[١] .

والحق أن هؤلاء المشركين ما يتبعون فى أقوالهم وعقائدهم إلا الظن الباطل ، والكذب الواضح .

ثم قل لهم - أيها الرسول الكريم - للمرة الثانية على سبيل التبكيت والتوبيخ : لله وحده البينة الواضحة ، ولو شاء سبحانه - هدايتكم - هداكم أجمعين لهداكم ، ولكنه - تعالى - لم يشأ لأنكم صرفتم اختياركم إلى سلوك طريق الباطل ، فلما زغتم عن الحق أزاغ الله قلوبكم ، أما الذين صرفوا اختيارهم إلى طريق الحق ، فقد هداهم الله - تعالى - إليه ، كما قال - تعالى - : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) ﴾[٢]

والخلاصة : أن مشيئة الله - تعالى - لعباده ، لا يعلمها أحد من الناس ، وإنما الذى نعلمه جميعًا أن الله - تعالى - كلفنا بتكاليف معينة علينا أن ننفذها بإخلاص وقوة ، ، ثم بعد ذلك نترك النتائج لله - تعالى - يسيرها كيف يشاء ويعجبنى فى هذا المقام قول الإمام جعفر الصادق - رضى الله عنه - «إن الله - تعالى - أراد بنا أشياء ، وأراد منا أشياء : فما أراده بنا أخفاه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فلماذا نشغل أنفسنا بما أراده بنا عما أراده منا» !!

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أبطلت مزاعم المشركين الذين ادعوا أن الله - تعالى - هو الذى شاء لهم الشرك ، وبينت أن مشيئته - سبحانه - لا علم لهم ولا لأحد بها ، وأنهم هم الذين إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى اتخذوه سبيلا ، وأنهم لا يتبعون فى أقوالهم وأعمالهم إلا الظن الباطل ، والجهل الفاضح .

---

(١) سورة الزخرف الآية : ٢٠ .

(٢) سورة الليل الآية : ٥ - ١٠ .

ثامنًا : أسلوب التحدي والمقارنة ونعنى به أن القرآن الكريم نراه فى كثير من المواطن يسرد ألوانًا من النعم الجليلة التى أنعم بها على الناس ، ثم يتبعها بالتحدى الساخر لمن يزعم أن أحدًا يستطيع أن يشاركه فى خلق هذه النعم أو إيجادها ، أو حتى فى إيجاد ما يشبهها .

ففى سورة «النحل» - مثلا - وتسمى - أيضا - سورة النِّعم ، نراه فى مطلعها يتحدث باستفاضة عن النعم التى سخرها - سبحانه - للناس ، كنعمة الأنعام ، والماء ، والسماء ، والليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والأرض ، والبحر ، والجبال . . ثم يعقب على ذلك بقوله :

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) ﴾[١] .

والاستفهام للإنكار والتوبيخ لأولئك المشركين الذين عبدوا غير الله- تعالى - أى : أفمن يخلق هذه النعم الجليلة ، وتلك المخلوقات البديعة ، كمن لا يخلق شيئًا على الإطلاق . بل هو مخلوق كتلك الأصنام والأوثان التى أشركتموها فى العبادة مع الله - تعالى - ؟ إن فعلكم هذا لدليل واضح - أيها المشركون - على جهلكم ، وانطماس بصيرتكم ، وقبح تفكيركم !!

وقوله - سبحانه - «أفلا تذكرون» : زيادة فى توبيخهم وفى التهكم بهم . أى : أبلغ بكم السفه والحمق ، أنكم سويتم فى العبادة بين من يخلق ومن لا يخلق ، وهلا فكرتم قليلا لكى تفيئوا إلى رشدكم ؟

وفى سورة «لقمان» نرى القرآن بعد أن ساق جانبًا من النعم التى أنعم الله - تعالى - بها على عباده يقول :

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [٢] .

وفى سورة «الاحقاف» الآية الرابعة نجد قوله - سبحانه - : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤) ﴾

(١) سورة النحل الآية : ١٧ . (٢) سورة لقمان الآية : ١١ .

وفى سورة «النمل» يورد القرآن عددًا من الآيات المشتملة على صنوف من جلائل النعم ، ثم يختمها بالتحدى الواضح لمن يزعم أن هناك أحدًا سوى الله - تعالى - أنعم على الناس بمثل هذه النعم .

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾[1]

وهكذا يرى المتدبر للقرآن الكريم ، أن كثيرًا من آياته ، تعقد المقارنات بين الحق والباطل ، وتتحدى المشركين أن يأتوا بدليل أو ما يشبه الدليل على صحة باطلهم أو أن معبوداتهم تنفع أو تضر !!

تاسعًا : تلقين النبى - ﷺ - وأتباعه الحجج القاطعة والبراهين الساطعة ، التى تزيدهم إيمانًا على إيمانهم ، بأن المستحق للعبادة والطاعة ، إنما هو الله - تعالى - وحده .

وهذا التلقين قد جاء بأساليب شتى من أبرزها : أمر النبى - ﷺ - وأتباعه ، أن يثبتوا على عقيدة التوحيد ، وأن يعلنوا للناس أنهم أن يتزحزحوا عنها مهما تحملوا فى سبيل ذلك من بأساء وضراء ، ومن الآيات القرآنية الكثيرة التى كلفت النبى - ﷺ - أن يجهر للناس بهذه الحقيقة الكبرى قوله - تعالى - :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[2]

(١) سورة النمل الآيات : من ٥٩ إلى ٦٤ . (٢) سورة الانعام الآيتان : ١٦٢ ، ١٦٣ .

وقوله - سبحانه - : ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦)﴾(١)

وقوله - عز وجل - : ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤)﴾(٢) .

وقوله - سبحانه - : - ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾(٣)

أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : الله - عز وجل - هو الواحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وهو الذى يقصده غيره بالسؤال والطلب والعون والمساعدة ، وهو - سبحانه - منزه أن يكون له ولد أو والد ، وعن أن يكون له شبيه أو نظير ، كما قال - سبحانه - : «ليس كمثله شىء وهو السميع البصير»

عاشرًا : تذكير الناس بأنهم عند الشدائد والمصائب لا يلجأون إلا إلى الله وحده لدفعها عنهم . وهناك آيات كثيرة أكدت هذه الحقيقة ، منها قوله - قوله - ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)﴾(٤) .

(١) سورة الزمر الآيات : ٦٤ - ٦٦ .
(٢) سورة الزمر الآيات : ١١ - ١٤ .
(٣) سورة الإخلاص الآيات : ١ - ٤ .
(٤) سورة يونس الآيتان : ٢٢ - ٢٣ .

والمعنى : هو الله وحده الذى يرعاكم بقدرته سواء أكنتم فى البر أم فى البحر ، حتى إذا كنتم فى إحدى أسفاركم راكبين فى السفن وأنتم فى حالة مرح وسرور ، وانقلبت أحوالكم فجأة ، حيث ارتفعت الأمواج ، واشتدت العواصف ، وتأكدتم قد أحاط بكم الهلاك . .

هنا وفى تلك الساعات العصيبة ، توجهتم إلى الله - تعالى - وحده بالدعاء قائلين : نقسم لك ياربنا لئن أنجيتنا من تلك الأهوال التى نحن فيها لنكونن من الشاكرين لك ، المخلصين لك العبادة وحدك . .

فلما أنجاكم بفضله ورحمته خالقكم ، إذا أنتم تبغون فى الأرض بغير الحق ، وتشركون معه فى العبادة آلهة أخرى . واعلموا - أيها الناس - أن ضرر هذا الشرك وذلك البغى إنما يعود عليكم وحدكم فى الدنيا والآخرة .

ومن الآداب والأحكام التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين : أن كثيرا من الناس جبلوا على أنهم عند المصائب والمحن يتضرعون إلى الله - تعالى - وحده لكى ينقذهم منها .

وبعد : فهذه مقتطفات من الآيات القرآنية التى بينت للناس بالأدلة الساطعة ، وبالأساليب المتنوعة ، أن المستحق للعبادة ، والطاعة إنما هو الله رب العالمين ، والمتدبر فيها يراها قد اشتملت على الأدلة العقلية والنقلية ، التى تقنع العقول ، وترضى العواطف ، كما اشتملت على ألوان من الترغيب والترهيب ، والعقلاء من الناس فى كل زمان ومكان يتعلمون من هدى القرآن الكريم ، ومن هدى الرسول - ﷺ - ما يجعلهم ينجحون فى دعوتهم لغيرهم إلى اتباع طريق الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبالمجادلة بالتى هى أحسن ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

أسماء الله الحسنى وصفاته العظمى

معرفة أسماء الله الحسنى ، ومعرفة صفاته العظمى ، تغرس فى قلب الإنسان الإيمان العميق ، والاخلاص التام فى العبادة لله الواحد القهار .

إن هذه المعرفة هى التى نبعث الخشوع فى النفس ، والسلامة فى العقل ، والطهارة فى القلب ، والنقاء فى الوجدان .

هى التى تحرك الإنسان نحو كل خير ، وقصده عن كل شر وإثم ، وتفتح أمام روحه آفاقا فسيحة من الأعمال الصالحة ، والأقوال الطيبة ، والأفعال الحميدة ، والسلوك القويم ، الذى يجعل صاحبه ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

قال - تعالى - : ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾[1] .

قال الإمام القرطبى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : «قوله - تعالى - (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) : أمر باخلاص العبادة لله تعالى - .

قال مقاتل وغيره من المفسرين : نزلت هذه الآية فى رجل من المسلمين كان يقول فى دعائه يارحمن يارحيم ، فقال رجل من المشركين : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربًا واحدا ، فما بال هذا يدعو ربين اثنين ؟ فنزلت هذه الآية»[2] .

والأسماء : جمع اسم . وهو اللفظ الدال على الذات فقط ، أو على الذات مع صفة من صفاتها ، سواء أكان مشتقا كالرحمن الرحيم ، أم مصدرا كالرب والسلام .

والحسنى : تأنيث الأحسن ، أفعل تفضيل ، ومعنى أنها ذلك أحسن الأسماء وأجلها لإخبارها عن أحسن المعانى وأشرفها .

والمعنى : ولله - تعالى - جميع الأسماء الدالة على أفضل المعانى ، وأكمل الصفات ، فادعوه بها ، أى : فسموه واذكروه ونادوه بها .

---

(١) **سورة الأعراف الآية** : ١٨٠ .

(٢) **تفسير القرطبى** : جـ ٧ ص ٣٢٥ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً﴾ [1] .

أى ، قل يامحمد للناس : سموا المعبود بحق وهو الله - عز وجل - بلفظ الله ، أو بلفظ الرحمن ، فبأى واحد منهما سميتموه فقد أصبتم ، فإنه - سبحانه - له الأسماء الأحسن من كل ما سواه .

وقال - سبحانه - «فله الأسماء الحسنى» للمبالغة فى كمال أسمائه - تعالى - وللدلالة على أنه مادامت أسماؤه كلها حسنة ، فلفظ الله ، ولفظ الرحمن كذلك ، كل واحد منهما حسن .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : «إن لله تسعة وتسعين اسما ، من حفظها دخل الجنة ، وإن الله وتر يحب الوتر» .

والمقصود : من حفظ هذه الأسماء ، واستحضر معناها ، واستشعر فى نفسه آثارها ، وكان سلوكه وقوله وفعله على مقتضاها دخل الجنة .

قال الآلوسى : «والذى أراه أنه لا حصر لأسمائه - عزت أسماؤه - فى التسعة والتسعين ، ويدل على ذلك ما أخرجه البيهقى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله - ﷺ - من أصابه هم أو حزن فليقل : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى فى يدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وذهاب همى وجلاء حزنى . . » فهذا الحديث صريح فى عدم الحصر .

وحكى الإمام النووى اتفاق العلماء على ذلك ، وأن المقصود من الحديث ، الإخبار بأن الاسماء التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة ، وهو لا ينافى أن له - تعالى - أسماء غيرها[2] .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ١١٠ .

(٢) تفسير الآلوسى : جـ ٩ ص ١٢٣ .

وفى آخر سورة «الحشر» آيات كريمة ، ذكرت بضعة عشر اسما من أسماء الله الحسنى ومن صفاته العليا ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى - : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾[١] .

ففى هذه الآيات الكريمة ذكر - سبحانه - من أسمائه الحسنى ، أربعة عشر اسما هى :

١ - لفظ «**الله**» وهذا اللفظ علم على ذات الخالق - عز وجل - ، تفرد به - سبحانه - ولا يطلق على غيره ، ولا يشاركه فيه أحد ، ولا يطلق هذا اللفظ - أيضًا - إلا على المعبود بحق ، بخلاف لفظ «إله» فإنه قد يطلق على المعبود بحق ، وقد يطلق على المعبود بباطل .

قال القرطبى : لفظ «الله» هذا الاسم أكبر أسمائه - تعالى - وأجمعها ، حتى قال بعض العلماء : إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره ، ولذلك لم يثن ولم يجمع فالله اسم للموجود الحق ، الجامع لصفات الإلهية ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود والحقيقى ، لا إله إلا هو - سبحانه - [٢] .

وقال بعض العلماء : «لفظ الجلالة «الله» علم على الذات الإلهية المقدسة اللواجبة الوجوه ، المستحقة لجميع المحامد ، وأما بقية الأسماء فكل اسم منها يدل على صفته ، ولهذا صح أن تكون وصفا للفظ الجلالة وأن يُخبر بها عنه[٣] .

٢ - «**الرحمن**» أى : العظيم الرحمة ، المنعم على عباده بجلائل النعم ، ولا يطلق هذا اللفظ إلا على الله - تعالى - من حيث إن معناه لا يصح إلا له - سبحانه - .

---

(١) **سورة الحشر الآية** : ٢٢ : ٢٤ .

(٢) **تفسير القرطبى** : جـ ١ ص ٨٦ .

(٣) **تمن كتاب** : «العقائد الإسلامية» جـ ٢٤ لفضيلة الشيخ السيد سابق .

٣ - «**الرحيم**» أى : الدائم الرحمة ، المنعم على عباده بدقائق النعم ، ويطلق هذا اللفظ على غير الله - تعالى - كما قال - سبحانه - فى صفة النبى ﷺ : ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾[١] .

٤ - «**الملك**» أى : المالك لجميع الأشياء ، والحاكم على جميع المخلوقات ، والمتصرف فيها تصرف المالك فيما يملكه ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾[٢] .

٥ - «**القدوس**» : أى المنزه عن كل نقص ، البالغ أقصى ما يتصوره العقل فى الطهارة ، وفى البعد النقائص والعيوب ، وعن كل مالا يليق .

فالقدس : هو الطهارة . والتقديس التطهير الإلهى المذكور فى قوله - تعالى : «ويطهركم تطهيرا» والأرض المقدسة : أى : المطهرة . والبيت المقدس : أى : الذى يتطهر فيه من الذنوب . وبيت المقدس : أى : بيت الطهارة من كل ما لا يليق .

٦ - «**السلام**» : أى : ذو السلامة من كل مالا يليق . أو ذوو السلام على عباده فى الجنة ، كما قال - تعالى - ﴿ **سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ﴾ .

وهذا اللفظ يدل على الأمان والاطمئنان ، والحصانة والسلامة ، فالله - تعالى - هو الناشر للسلام والأمان بين عباده ، وهو المانح لهم نعمة السلامة فى الدنيا والآخرة .

٧ - «**المؤمن**» : أى المتفضل على عباده بالأمن والأمان ، والمصدق لرسله بأن أظهر على أيديهم اللمعجزات التى تدل على أنهم صادقون فيما يبلغونه عنه .

وإنما يستحق الأمان أهل الإيمان والاستقامة ، فالله - تعالى - يعطى الأمان لمن استجار به ، وأدى ما يجب عليه نحو خالقه - عز وجل - .

٨ - «**المهين**» : من الهيمنة وهى القيام على الشىء والرعاية له . فالمهيمن : هو المسيطر على هذا الكون ، الرقيب على عباده ، الحافظ لأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم .

---

(١) **سورة التوبة الآية**: ١٢٨ .

(٢) **تفسير القرطبى** :جـ١٨ ص ٤٦ .

٩ - «**العزيز**» من العز بمعنى القوة والشدة والغلبة والرفعة والامتناع فالعزيز هو الذى يغلب غيره ، ولا يتجاسر على مقامه أحد .

١٠ - «**الجبار**» أى : العظيم القدرة ، القاهر فوق عباده ، الذى تنفذ مشيئته على سبيل الإجبار فى كل أحد ، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد ، والذى لا يخرج أحد عن قبضته ، فالله - تعالى - هو الجبار المطلق ، لأنه يجبر كل أحد ولا يجبره أحد .

قال القرطبى : قال ابن عباس : الجبار : هو العظيم . وجبروت الله عظمته وهو على هذا القول صفة ذات من قولهم : نخلة جبارة .

وقيل هو من الجبر بمعنى الإصلاح . يقال : جبرت العظم فجبر ، إذا أصلحته بعد الكسر ، فهو فعال من جبر ، إذا أصلح الكسير ، وأغنى الفقير» .

١١ - «**المتكبر**» أى : الشديد الكبرياء والعظمة والجلالة ، والتنزه عما لا يليق بذاته .

وهاتان الصفتان - الجبار والمتكبر - هما صفتا مدح بالنسبة لله تعالى وصفتا ذم بالنسبة لغيره - تعالى - .

وفى الحديث الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال فيما يرويه عن ربه : «الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى فى واحد منهما قصمته ، ثم قذفته فى النار» .

١٢ - «**الخالق**» أى : هو - سبحانه - الخالق لكل شىء ، الموجه لكل مخلوق ، المنشئ لهذا الكون على مقتضى حكمته وإرادته ومشيته .

١٣ - «**البارئ**» إى : المبدع المخترع للأشياء ، والمبرز لها من العدم إلى اللوجود . يقال : برأ الله الخلق ، أى : خلقه وأوجده على غير مثال سابق .

١٤ - «**المصور**» أى : المعطى لكل مخلوق صورته التى تميزه عن غيره ، المصور للأشياء على هيئات مختلفة ، وعلى أنواع شتى من التصوير بمعنى التخطيط والتشكيل ، وجعل الشىء على صورة محددة مميزة عن سواها .

هذه هى أسماء الله الحسنى التى وردت فى هذه الآيات الكريمة من سورة «الحشر» وهناك أسماء أخرى كثيرة ذكرها العلماء فى كتبهم [1] ، ومنها :

الغفار : أى : الكثير المغفرة وستر الذنوب ، إذ الغفر والغفران فى اللغة معناهما الستر .

القهار : أى الغالب لكل ما سواه ، القاهر فوق عباده ، المذل لكل جبار عنيد .

الوهاب : أى الذى يهب العطاء دون عوض ، ويعطى من يشاء بغير حساب .

الرزاق : أى خالق الأرزاق وخالق أسبابها ، والمتفضل بإيصالها إلى خلقه .

الفتاح : أى الذى يفتح خزائن رحمته لعباده ، وبقدرته ينفتح كل مغلق وينكشف كل مشكل .

العليم : أى العالم بكل شىء لا يغيب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

القابض : الذى يقبض النفوس بقهرة ، والأرواح بعدله ، والأرزاق بحكمته .

الباسط : أى الموسع الأرزاق لمن يشاء من عباده ، بمقتضى حكمته وإرادته .

الخافض : أى الذى يخفض من هو مستحق للخفض ، بالخزى ، والذل والإهانة والعقاب .

الرافع : أى الذى يرفع من يستحق الرفعة من عباده المتقين إلى أعلى الدرجات .

المعز : أى يعز من استمسك بدينه ، ويمنحه النصرة والغلبة ، ويرزقه حسن العاقبة .

المذل : أى يذل أعداءه بسبب كفرهم وعصيانهم وفسوقهم عن أمره .

الحكَم : أى الحاكم الذى لا راد لقضاء ، ولا معقب لحكمه .

السميع : أى المتصف بالسمع لجميع الموجودات دون حاسة أو آلة

البصير : أى المبصر لجميع المبصرات ، ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

العدل : أى العادل فى كل أقواله وأفعاله وأحكامه ، والمنزه عن الظلم والجور .

---

(١) **راجع على سبيل المثال:** تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٠٦ طبعة دار الشعب .

اللطيف : أى المحسن إلى عباده والمنعم عليهم ، والعالم بخفايا الأمور ودقائقها .

الحليم : أى الذى لا يحمله على المسارعة إلى الانتقام عجلة مع قدرته التامة على الانتقام .

العظيم : أى البالغ أقصى مراتب العظمة والجلال فى كل صفة من الصفات وفى كل أمر من الأمور .

الشكور : أى الذى بفضله وكرمه يعطى الكثير من الخير على العمل القليل .

العلىّ : أى الذى بلغ أسمى المراتب التى لا يتصورها العقل ، ولا يحيط بها الفهم .

الكبير : أى الذى لا تستطيع الحواس ولا العقول إدراكه ، والذى يتصاغر أمام عظمته كل شىء .

الحفيظ : أى يحفظ الكائنات من الخلل والاضطراب ، ويحفظ أعمال العباد فلا يضيع منها شىء .

المقيت : أى المقتدر على كل شىء ، والمعطى مخلوقاته غذاءهم المادى والروحى .

الحسيب : أى يحاسب عباده ، ويكافئهم على أعمالهم الطيبة ، لأنه صاحب الجلال والإكرام .

الجليل : أى الذى له صفات الجلال ، لكمال صفاته ، وعظم قدره ، وسابغ خيره .

الكريم : أى المانح الخير لمخلوقاته من غير سؤال ولا عوض ، الكثير العطاء والإحسان لمن يشاء من عباده .

الرقيب : أى الذى يراقب أحوال عباده ، ويحاسبهم على أقوالهم وأفعالهم .

المجيب : أى الذى يجيب دعاء الداعين ، وسؤال السائلين فى الوقت الذى يريده ويشاؤه .

الواسع : أى الذى وسعت رحمته كل شىء ، ووسع علمه كل شىء ، وأحاطت نعمه بكل شىء .

الحكيم : أى هو الذى يضع الأشياء فى مواضعها ، ويعلم خواصها ومنافعها ، لكمال علمه ، وإتقانه كل شىء .

الودود : أى المحب الخير لخلقه ، والمحسن إليهم إحسانا مصحوبًا بالود والحب والرحمة .

المجيد : أى صاحب المجد والشرف ، البالغ النهاية فى العلو والعظمة والفضل .

الباعث : أى الباعث لخلقه يوم القيامة للحساب ، والباعث لرسله إلى عباده لكى يهدوهم إلى الصراط المستقيم .

الشهيد : أى البالغ النهاية فى عمله بالأمور الظاهرة والباطنة ، وبإحاطته بأحوال خلقه .

الحق : أى الذى يحق الحق ويبطل الباطل ، إذ هو الحقيق بالعبادة ، الثابت الذى لا يتغير ولا يزول .

الوكيل : أى القائم بأمور عباده ، وبجميع ما يحتاجون إليه ، والموكول إليه كل شئون خلقه .

القوى : أى صاحب القدرة التامة ، الذى تتصاغر أمام شدته وقوته كل الكائنات .

الحميد : أى المحمود من عباده العظيم نعمه عليهم ، والمستحق للحمد والثناء والعلو والكمال .

الحى : أى صاحب الحياة الدائمة الأبدية التى لا بداية لها ولا نهاية فهو الباقى أزلا وأبدا .

القيوم : أى الدائم القيام بتدبير أمر خلقه وحفظهم ، والمعطى لهم ما به قوامهم ومعاشهم .

الصمد : أى هو الذى يصمد إليه الخلق فى حوائجهم ، ويقصدونه وحده بالسؤال والطلب والعون والمساعدة .

الواحد : أى هو الفرد المتفرد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله المستحق للعباده والطاعة .

القادر : أى ذو القدرة التامة التى لا يعجزها شىء ، ولا يقيدها سبب ، ولا يحول دون نفاذها مانع .

الأول : أى هو - سبحانه - السابق على جميع الموجودات ، إذ هو موجدها ومحدثها ابتداء .

الآخر : أى الباقى بعد فناء وهلاك وزوال جميع المخلوقات «كل شىء هالك إلا وجهه» .

الظاهر : أى الظاهر وجوده عن طريق مخلوقاته التى أوجدها بقدرته ، إذ كل موجود لابد له من موجد .

الباطن : أى المحتجب بكنه ذاته عن أن تدركه الأبصار أو تحيط بحقيقة ذاته العقول .

التواب : أى الذى يتوب على عباده بأن يوفقهم إلى الرجوع إليه ، ويقبل توبتهم ، ويمسح زلتهم .

الرءوف : أى العظيم الرافة والرحمة والشفقة بعباده ، الكفيل بإزالة الضرر عنهم .

المغنى : أى المستغنى عن كل ماعداه ، والمفتقر إليه كل ماسواه .

الهادى : أى الذى هدى وأرشد كل مخلوق إلى وظيفته ، وأمده بالوسائل والملكات التى تحققها .

البديع : أى الذى لا مثيل له ولا شبيه لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ولا فى مصنوعاته .

الباقى : أى الدائم الوجود ، الموصوف بالبقاء الأبدى الأزلى ، المستحيل معه الفناء أو العدم .

الوارث : أى الباقى بعد فناء جميع الموجودات ، والوارث لجميع الأشياء بعد زوال أهلها .

الرشيد : أى المرشد لعباده إلى ما يصلحهم ، والموجه لهم إلى ما فيه خيرهم فى الدنيا والآخرة .

الصبور : أى الذى لا يتعجل بالعقوبة ، وإنما أحكامه تأتى بقدر وبحكمة فى أوقاتها المناسبة .

هذه نماذج من أسماء الله – تعالى – الحسنى ، ومن صفاته الجليلة العليا ، وهى كما قال الإمام ابن كثير والإمام الآلوسى ، ليست محصورة فى عدد معين وإنما تشمل كل اسم كريم ، وكل صفة سامية تتناسب مع الخالق – عز وجل ذى الجلال والإكرام ، وذى العزة والإحسان ، والذى لاتصح العبادة إلا له وحده ، كما قال – سبحانه – ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)** ﴾[١] .

وأسماء الله – تعالى – الحسنى التى وردت فى القرآن الكريم ، وفى السنة النبوية المطهرة ، منها ما يتعلق بذاته – عز وجل – كالواحد ، والصمد ، والحق ، والقدوس ، والأول ، والآخر .

ومنها ما يتعلق بعظمته وجلاله ، كالعظيم ، والعزيز ، والعلى ، والقوى ، والقهار ، والمجيد .

ومنها ما يتعلق بعلمه وإحاطته بشئون خلقه ، كالعليم ، والسميع والبصير ، والخبير ، والشهيد .

ومنها ما يتعلق بقدرته وتدبيره لأمور عباده ، كالقدير ، والحافظ ؛ والوكيل والحسيب .

ومنها ما يتعلق برحمته ورأفته بخلقه ، كالرحيم ، والودود ، والرءوف ، والحليم ، والشكور .

ومنها ما يتعلق بإيجاده لهذا الكون بهذا النظام المتقن ، كالخالق ، والبارئ ، والمصور ، والبديع .

---

(١) سورة البقرة الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .

ومنها ما يتعلق بأفعال أو بصفات أخرى تليق بجلاله وكماله - عز وجل كالقابض ، والباسط ، والرافع ، والمعز ، والهادى ، والوارث . . .

وفوق كل ذلك فقد وردت أحاديث نبوية شريفة ، صرحت بأن لله - عز وجل - اسما أعظم من دعا به أجاب الله دعاءه .

ومن هذه الأحاديث ما رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن بريدة - رضى الله عنه - قال : سمع النبى - ﷺ - رجلا يقول (اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

فقال - ﷺ - : (والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى) .

وأخرج - أيضا - أبو داود والترمذى والنسائي وابن ماجه عن أنس ابن مالك - رضى الله عنه - قال : دخل النبى - ﷺ - المسجد ورجل قد صلى وهو يدعو ويقول فى دعائه : اللهم لا إله إلا الله ، أنت المنان ، بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام .

فقال النبى - ﷺ - : (أتدرون بم دعا الله ؟ دعا الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن أسماء بنت يزيد - رضى الله عنها - أن النبى - ﷺ - قال : اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾[1] وفاتحة آل عمران : ﴿ الٓمٓ (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) ﴾[2] .

وأخرج الحاكم عن سعد بن مالك - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (هل أدلكم على اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل

(١) سورة البقرة الآية: ١٦٣ .
(٢) سورة آل عمران الآية: ١ ، ٢ .

به أعطى ؟ الدعوة التى دعا بها يونس حيث نادى فى الظلمات : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) .

فقال رجل : يارسول الله ، هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة ؟

فقال رسول الله - ﷺ - : ألا تسمع قول الله - تعالى - ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]

هذه بعض الأحاديث النبوية الشريفة التى وردت فى بيان اسم الله الأعظم .

قال بعض العلماء : وقد اختلف العلماء فى تعيين اسم الله الأعظم ، والراجح من أقوالهم أنه دعاء مؤلف من عدة أسماء من أسمائه الحسنى ، إذا دعا به الإنسان مع توفر شروط الدعاء المطلوبة شرعا ، استجاب الله - تعالى - له . وليس هو سرا من الأسرار التى يعطيها الله لبعض عباده ، فتنخرق لهم العادات ، ويحققون ما يعجز غيرهم عن تحقيقه ، ولا ينبغى أن نزيد شيئا فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ »[2]

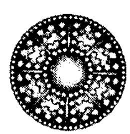
نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا جميعًا فَهْم أسمائه الحسنى ، وأن يوفقنا إلى العمل بما ترشد إليه من عقائد صحيحة ، ومن عبادات سليمة ، ومن أقوال طيبة ، وأفعال صالحة ، إنه على ما يشاء قدير ، نعم المولى ونعم النصير .

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ٨٨ .

(٢) من كتاب: «العقائد الإسلامية» ص ٣١ لفضيلة الشيخ السيد سابق .

القضاء والقدر



مسألة القضاء والقدر، من المسائل التى كتب العلماء فيها كتابات واسعة، منها : الجاف المعقد، ومنها : الواضح الميسر ...

وسنحاول - بعونه تعالى - أن تكون كتابتنا عن هذه المسألة واضحة المعالم. مقبولة الفهم، مدعمة بالآيات القرآنية، وبالأحاديث النبوية، وبالأدلة العقلية ..

وسنجمل الحديث عن هذه المسألة فى نقاط محددة هى كما يأتى :

١ - ما معنى لفظى القضاء والقدر؟

لفظ القضاء معناه لغة : الحُكْم. نقول : قضى القاضى فى المسألة بكذا، أى : حكَم فيها بحكم معين. والهيئات القضائية، هى الهيئات التى تتولى بحث الخصومات التى تدور بين الناس، تحكم فيها بالحكم المناسب.

والمتدبر للقرآن الكريم يراه قد استعمل مادة القضاء فى معان متعددة ..

تارة بمعنى الحكم، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)** ﴾[١].

أى : إن هؤلاء الذين يعرضون عليك خصوماتهم - أيها الرسول الكريم - لا يؤمنون إيمانا حقا حتى يجعلوك حاكما بينهم، ثم لا يجدوا فى أنفسهم ضيقا أو شكا فى قضائك بينهم، ويخضعوا لحكمك خضوعا تاما لا تردد معه ولا ارتياب.

وتارة بمعنى الإعلام والإخبار، كما فى قوله - سبحانه - :

---

(١) سورة النساء الآية: ٦٥.

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾[1] .

أى : وأعلمنا بنى إسرائيل فى التوراة وأخبرناهم ، بأنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ، وسيتكبرون على الناس بغير حق تكبرا كبيرا يؤدى بهم إلى الخسران والدمار .

وتارة بمعنى الأمر ، كما فى قوله - عز وجل - : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[2] .

أى : وأمَر ربك عباده أن يخلصوا له الطاعة وأن يحسنوا إلى آبائهم .

وتارة بمعنى الأداء للشىء ، كما فى قوله - سُبحانه - : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾[3] .

أى : فإذا ما انتهيتم من أداء الصلاة فأكثروا من ذكر الله - تعالى - فى كل أحوالكم . . .

وتارة بمعنى الإرادة والمشيئة ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾[4] .

أى : ما يصح وما يستقيم ولا يتصور فى حقه - تعالى - أن يتخذ ولدا لأنه منزه عن ذلك ، وهو - جل شأنه - إذا أراد قضاه أمر ، فإنما يقول له كن فيكون فى الحال دون تأخير أو تردد .

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٤ .

(٢) سورة الإسراء الآية: ٢٣ .

(٣) سورة النساء الآية: ١٠٣ .

(٤) سورة مريم الآية: ٣٥ .

وتارة يأتى لفظ القضاء بمعنى الإيجاد للشىء على أحسن وجه كما فى قوله - عز وجل - : ﴿ **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** (١٢) ﴾[1] .

أى : ففرغ - سبحانه - من خلق وإيجاد السموات على أبدع صورة وأحكم هيئة فى مقدار يومين ، وأوحى - عز وجل - فى كل سماء منها ما أراده وشاءه ، وزين السماء القريبة منا بالنجوم المضيئة ، وحفظها من الاختلال والاضطراب ، وذلك كله هم تنظيم الخالق لمخلوقاته ، فهو - سبحانه - صاحب العزة التامة ، والعلم الذى وسع كل شىء .

هذه أهم المعانى التى ورد القرآن بها لمادة القضاء . . . .

أما لفظ «القدَر» - بفتح الدال وإسكانها - فمعناه : الترتيب والتحديد . تقول : قدرت الكتاب تقديرا ، إذا حددت صفحاته ، ورتبت موضوعاته .

جاء فى المعجم الوسيط : «القدر : مقدار الشىء وحالاته المقدرة له . ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾[2] - أى : أنا كل شىء أوجدناه بتقدير حكيم ، وبتنظيم دقيق - والقدر - أيضا - يطلق على وقت الشىء أو مكانه المقدر له»[3] .

ومن الآيات القرآنية التى تشير إلى أن لفظ القدر يطلق على الترتيب والتحديد والتنظيم قوله - تعالى - : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً** (١) **الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً** (٢) ﴾[4] .

أى : وخلق كل شىء فى هذا الوجود خلقا متقنا حكيما بديعًا فى هيئته وفى زمانه وفى مكانه وفى وظيفته وفى ترتيبه وتنظيمه ، على حسب ما تقتضيه إرادته وحكمته - سبحانه - .

---

(١) سورة فصلت الآية : ١٢ .
(٢) سورة القمر الآية : ٩٤ .
(٣) المعجم الوسيط : جـ٢ ص١٨٧ .
(٤) سورة الفرقان الآيتان : ١ ، ٢ .

ومنها قوله - ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ① الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ③ ﴾ .

أى : نزِّه - أيها الرسول الكريم - أسماء ربك عن كل مالا يليق بها ، فهو - سبحانه - الذى خلق الخلائق كلها ، وجعلها متساوية فى الأحكام والإتقان حسبما اقتضته حكمته ، وهو الذى جعل الأشياء على مقادير مخصوصة فى أجناسها وفى أنواعها وفى أفرادها وفى صفاتها وفى أفعالها ، وهدى كل مخلوق إلى ما يناسبه طبعًا واختيارا .

ومنها قوله - عز وجل - : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ㉑ ﴾[1] .

أى : وما من شىء من الأشياء الموجودة فى هذا الكون إلا ؛ ونحن قادرون على إيجاده ، وما نخرجه إلى حيز الوجود إلا ملتبسًا بمقدار معين ، وفى وقت محدد ، تقتضيه حكمتنا ، وتستدعيه مشيئتنا ، ويتناسب مع حاجات العباد وأحوالهم .

هذا ، ويؤخذ من أقوال العلماء : أن المقصود بالقضاء والقدر فى اصطلاح المتكلمين : أن الله - تعالى - حكم على الأشياء وقدَّرها فى الأزل ، وعلم أنها ستقع فى أوقات معلومة عنده وحده - عز وجل - ، وعلى صفات مخصوصة ، وبنظام محكم ، وبسننه - سبحانه - التى لا تتخلف ولا تتبدل ، والتى ربط فيها بين الأسباب ومسبباتها على حسب ما تقتضيه حكمته السامية ، وقدرته النافذة ، ومشيئته العليا .

٢ - وجوب الإيمان بالقضاء والقدر :

إن الإيمان بالقضاء والقدر جزء أساسى من عقيدة المسلم ، لأن المسلم لا يكون إسلامه كاملا ، وإيمانه تامًا إلا إذا صدق وأذعن وأيقن ؛ بأن الله - تعالى - قد قدر الأمور أزلا قبل وقوعها ، وقضى فيها بقضائه المحكم ، وأحاط بها علمًا قبل وجودها ، وأنه لا يحدث شىء فى هذا الكون إلا وهو مطابق لقضائه وقدره - سبحانه - ، سواء أكان هذا الشىء خيرا أم شرا ، حلوا أم مرا ، سعادة أم شقاء ، غنى أم فقرا .

---

(١) سورة الحجر الآية : ٢١ .

قال - تعالى - : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) ﴾(١)

والمعنى : اعلموا - أيها المؤمنون - أنه ما أصابكم من مصيبة كائنة فى الأرض كالقحط والزلازل ، أو كائنة فى أنفسكم كالأمراض والأسقام ، إلا وهذه المصيبة مسجلة فى اللوح المحفوظ ، وهذا التسجيل حاصل من قبل أن نخلق هذه الأنفس وهذه المصائب ، واعلموا أن كل ذلك شىء هين ويسير على قدرة الله - تعالى - .

وقد فعلنا ما فعلنا من إثبات ما يصيبكم فى كتاب من قبل خلقكم ، وأخبرناكم بذلك ، لكى لا تحزنوا على ما أصابكم حزنًا يؤدى بكم إلى الجزع ، وإلى عدم الرضا بقضاء الله وقدره ، ولكى لا تفرحوا بما أعطاكم - سبحانه - من نعم لا تحصى ، فرحًا يؤدى بكم إلى البطر والطغيان والغرور .

فأنت ترى أن هاتين الآيتين قد سكبنا فى قلب المؤمن ، كل معانى الثقة والرضا بقضاء الله - تعالى - فى كل الأحوال .

وليس معنى ذلك عدم مباشرة الأسباب التى شرعها الله - تعالى للنجاح لأن ما سجله الله فى كتابه علينا قبل أن يخلقنا لا علم لنا به ، وإنما علمه مرده إليه وحده ، وهو - سبحانه - لا يحاسبنا على ما نجهله ، وإنما يحاسبنا على ما أمرنا به أو نهانا عنه عن طريق رسوله محمد - ﷺ - .

وكما سجل - سبحانه - أقوالنا قبل أن يخلقنا ، فقد شرع الأسباب وأمرنا بمباشرتها ، وبين لنا فى كثير من آياته ، أن جزاءنا من خير أو شر على حسب أعمالنا .

وعندما قال بعض الصحابة للنبى - ﷺ - : أفلا نتكل على ما قدره الله علينا ؟ أجابهم بقوله : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» .

ولقد أخبرنا - ﷺ - فى حديثه الصحيح أن الإيمان بالقضاء والقدر جزء من عقيدة المؤمن ، فعندما قال جبريل للنبى - ﷺ - : «فأخبرنى عن الإيمان ؟ أجابه -

(١) سورة الحديد الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .

ﷺ - بقوله : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره» فقال له : صدقت .

ولقد أفتى الصحابة - رضى الله عنهم - بكفر من ينكر القضاء والقدر ، ففى صحيح مسلم عن يحيى بن يعمر قال : كان أول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجهنى .

قال يحيى : فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حاجين أو معتمرين فقلنا : لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله- ﷺ - فسألناه عما يقول هؤلاء فى القدر ؟

قال : فوُفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد ، فاكتنفته أنا وصاحبى ، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبى سيكل الكلام إلىَّ .

فقلت لعبد الله بن عمر : ياأبا عبد الرحمن إنه قد ظهر عندنا ناس يقرءون ويتفقرون العلم - أى : ويطلبون العلم ويتتبعونه - ، وأنهم يزعمون أنه لا قدر ، وأن الأمر أنُف أى : وأن الأمر مستأنف لم يسبق به قدر ولا علم من الله - تعالى - وإنما يعلمه بعد وقوعه - .

فقال له عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - فرذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أنى برىء منهم ، وأنهم براَء منى ، والذى يحلف به عبد الله بن عمر ، لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه شيئًا حتى يؤمن بالقدَر .

فقول عبد الله بن عمر يدل دلالة واضحة على أن الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان ، وأن من ينكر ذلك يكون خارجًا عن شريعة الإسلام .

ثمار الإيمان بالقضاء والقدر

وقد يسأل سائل : أهناك فوائد تعود علينا من وراء الإيمان بالقضاء القدر ؟

والجواب : نعم هناك فوائد متعددة من وراء ذلك ، ومن هذه الفوائد :

أن الإنسان منا متى اعتقد اعتقادا جازما أن ما قضاه الله - تعالى - فى علمه

لابد أن يتم ، وأن ما قدره لابد أن يكون متى اعتقد ذلك انطلق فى هذه الحياة ليؤدى ما يجب عليه نحو خالقه - عز وجل - ونحو عقيدته ، ونحو ذاته ، ونحو غيره .

يؤدى التكاليف التى كُلِّف بها ، بكل نشاط وإقدام وإخلاص وإتقان ثم بعد ذلك يترك النتائج لله - عز وجل - يصرفها كيف يشاء .

كذلك من فوائد الإيمان العميق بقضاء الله وقدره ، أنه يغرس فى الإنسان الشجاعة التى تجعله يتحمل المشاق ، ويخوض الأهوال ؛ ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وينطق بكلمة الحق ، ويحرص على مواصلة الأعمال الصالحة ، وإذا مسه الضر لا يجزع ، وإذا صادفه التوفيق والنجاح لا يبطر ، لأنه - بعد أن أدى واجبه كاملا غير منقوص - فوض الأمر لخالقه الذى اقتضت سنته أنه لا يضيع أجر من أحسن عملا .

كذلك من فوائده : أنه يجعل الإنسان يفهم شريعة الإسلام فهمًا صحيحا ، هذا الفهم يجعل المسلم يحارب الفقر بالعمل ، ويحارب الجهل بالعلم ، ويحارب الرياء والنفاق بالإخلاص والصدق ، ويقاوم المرض والسقم باستعمال الدواء ، واتخاذ وسائل العلاج ، ويرد على شبهات المارقين والملحدين بالبراهين الشرعية والعقلية التى تهدم باطلهم وتأتى على بنيانهم من القواعد .

وهذا الفهم السليم لمعنى القضاء والقدر ، هو الذى سار عليه الرسول - ﷺ - وسار عليه أصحابه - رضى الله عنهم - ، وسار عليه السلف الصالح من بعدهم .

فها هو ذا سيدنا رسول الله - ﷺ - دخل يومًا على الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فوجده قد قضى معظم الليل نائما ، فقال له : ياعلى هلا قمت من الليل ؟ أى : للتهجد ، فقال : يارسول الله : أنفسنا بيد الله ، إن شاء بسطها ، وإن شاء قبضها !! فغضب - ﷺ - وخرج وهو يضرب على فخذه ويقول : «وكان الإنسان أكثر شىء جدلا» .

والرسول - ﷺ - عندما غضب من جواب على - رضى الله عنه - إنما أراد أن يعلم أمته أن ما قدره الله - تعالى - على عباده ، هو شىء فى علمه المحيط بكل شىء ، ولا علم لأحد به من البشر .

ويعجبنى فى هذا المقام قول الإمام جعفر الصادق - رضى الله عنه - : إن الله - عز وجل - أراد بنا أشياء وأراد منا أشياء ، فما أراده بنا أخفاه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فلماذا نشغل أنفسنا بما أراده بنا عما أراده منا» ؟ !!

أى : أراد بنا - سبحانه - أشياء نحن لا نعلمها ولسنا مسئولين عنها ، وأراد منا عبادات ومعاملات وعقائد وآداب وغير ذلك من أحكام شرعية نحن نعلمها ، ومطالون بها ، ومحاسبون عليها ، والعاقل هو الذى يشغل نفسه بما كلف به وليس بما لم يكلف به .

وها هو ذا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - نراه مع إيمانه العميق بقضاء الله وقدرة ، عندما يعلم أن الطاعون قد ظهر فى المكان الذى هو مسافر إليه يمتنع عن دخوله ، ويأمر من معه بعدم دخوله كذلك .

ففى الصحيحين عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - خرج إلى بلاد الشام ، فلما كان بِسَرْغ - وهى قرية بأطراف الشام - لقيه أمراء بلاد الشام ، فأخبروه أن الطاعون قد ظهر فى بلاد الشام فاستشار عمر بعض المهاجرين والأنصار ، فبعضهم أشار بمواصلة السير إلى بلاد الشام ، وبعضهم أشار بالرجوع إلى المدينة المنورة .

وأخذ عمر برأى القائلين بالرجوع ، فقال له أبو عبيدة : أفرارًا من قدَر الله ؟ !!

أى : أترجع فرارا من المقدر ؟ فقال له عمر : لو قالها غيرك ياأبا عبيدة ؟

نعم : نفر من قدر الله إلى قدَر الله !!

فأنت ترى أن عمر - رضى الله عنه - مع إيمانه الكامل بالقضاء والقدر أخذ بالحذر ، وباشر الأسباب التى تؤدى إلى النجاة من هذا الطاعون .

إن القضاء والقدر لا يصح شرعا أو عقلا أن يتخذه الناس طريقًا إلى التواكل والتكاسل وارتكاب ما نهى الله - تعالى - عنه .

وإنما الذى يجب أن يسلكه العقلاء هو أن يتخذوا القضاء والقدر سبيلا إلى تحقيق المقاصد الشريفة والغايات النبيلة ، والأقوال الطيبة ، والأعمال الصالحة إن العقلاء

يدفعون القدر بالقدر ، فيدفعون قدَّر الجوع بقدَر الأكل ؛ ويدفعون قدَر الظلمأ بقدَر الرى ، وقدَر المرض بقدَر العلاج وقدَر الكسل بقدَر النشاط والعمل .

لقد ذكروا أن أحد اللصوص سرق شيئا من غيره فى عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ، فلما حضر بين يديه سأله عمر لماذا سرقت ؟ فقال : قدَّر الله على ذلك .

فقال عمر : اضربوه ثلاثين سوطا ، ثم اقطعوا يده . فقيل له : ولماذا ؟ فقال : القطع لسرقته ، والضرب لكذبه على الله - تعالى - .

إن القضاء والقدر ليس فيه معنى الإجبار أو الإكراه أو القسر .

قال الخطابى : قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر ، إجبار الله - تعالى - العبد على ما قدره وقضاه ، وليس الأمر كما يتوهم المتوهمون ، وإنما معناه الإخبار عن تقديم علم الله - تعالى - بما يكون من اكتسابات العبد ، وصدورها عن تقدير منه - سبحانه - ، وخلقه لها ، خيرها وشرها» .

وعلم الله - سبحانه - بما سيقع من الناس ، ووقوعه حسب هذا العلم ، لا تأثير له فى إرادة الإنسان وقوله وفعله وسلوكه الاختيارى ، فإن علم الله - تعالى - المحيط بكل شىء صفة انكشاف لاصفة تأثير .

فمثلا علمى وعلمك بأن فلانا مجتهد فى عمله ، هذا العلم لا تأثير له فى نجاح فلان هذا .

وعلمى وعلمك بأن أخاك ذكى ومقبل على دروسه ، هذا العلم ليس له تأثير فى نجاحه .

ولقد حذر النبى - ﷺ - أتباعه من فهم القضاء والقدر فهما منحرفا عن الحق ، متجاوزا الصواب ، ودعا إلى مقاومة أصحاب هذا الفهم الخاطئ .

فعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - عن النبى - ﷺ - أنه قال : «يكون فى آخر الزمان قوم يعملون المعاصى ، ثم يقولون : الله قدّرها . الرّادُّ عليهم يومئذ كالشاهر سيفه فى سبيل الله » .

كما حذر - ﷺ - أمته من التنازع والتخاصم فى شأن القضاء والقدر ، وإنما علينا أن نؤمن إيمانا تاما بأن الله - تعالى - محيط علمه بكل شىء ، وأن هذا العلم هو من اختصاص الله - تعالى - وحده ، وليس من اختصاصنا ، لأنه من أسراره - عز وجل - أن نؤمن إيمانا تاما بأنه - سبحانه - قد كلفنا بتكاليف على لسان رسوله محمد - ﷺ - وأمرنا بأدائها بإخلاص وإحسان . . .

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : خرج علينا رسول الله - ﷺ - ونحن نتنازع فى القدر ، فغضب حتى احمر وجهه ، وقال : أبهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه» .

ألا ما أكثر الفوائد الدينية والدنيوية التى تعود علينا ، إذا ما فهمنا مسألة القضاء والقدر فهما سليما ، كما علمنا إياه سيدنا رسول الله - ﷺ - وكما فهمه عنه أصحابه .

لقد فهموه على أنه خير وسيلة تدفع إلى القول الطيب ، وإلى العمل الصالح ، وإلى الإقدام على كل ما يرضى الله دون خوف أو وجل ، لأن النكوص عن ذلك لا يؤخر الحياة ولا يفيد صاحبه شيئا .

دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن الكريم:

بعض الناس يقرءون القرآم الكريم أو يستمعون إليه ، فيتوهمون أن بين بعض آياته اختلافا أو تعارضا .

والحق الذى لا يحوم حوله باطل ، أنه لا تعارض ولا اختلاف بين آيات الذكر الحكيم ، إذ عند التأمل والتدبر وسؤال أهل العلم يزول هذا التوهم ، ويتبين أن هذه الآيات متفقة وليست مختلفة ، ومنسجمة فى المعنى مع غيرها وليست متعارضة .

وسنذكر بعض الآيات القرآنية التى ظن بعض الناس أن بينها وبين غيرها تعارضا ، كما سنذكر بعض الآيات التى قصت علينا جانبا من أقوال المشركين ، فيما يتعلق بمشيئة الله - تعالى - وإرادته ، أو بشأن القضاء والقدر ، وكيف رد القرآن عليهم .

كما سنذكر - أيضا - بعض الآيات القرآنية التى فهمها بعض الناس فهما بعيدا عن الصواب ، ونبين التفسير الصحيح لها .

وهام بعض النماذج لهذه الآيات ، إذ بالمثال يتضح المقال - كما يقولون - .

(ا) قال الله - تعالى - : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) ﴾[1]

إن هاتين الآيتين تعرضان لشبهة قديمة جديدة لأن كثيرا من مجادلى الرسل موهوا بها ، ونسبوا شركهم إلى مشيئة الله - تعالى - ، وحديثه لأن كثيرا من العصاة والفساق عن أمر الله - تعالى - يتذرعون بها عندما يرتكبون الآثام والمنكرات .

إنهم يقولون عندما يصرون على فسوقهم وكفرهم : هذا أمر الله ، وهذا قضاؤه وقدره ، وتلك مشيئته وإرادته ، ولو شاء الله عدم كفرنا أو فسوقنا لما فعلنا ذلك ، وإذا كان الله - تعالى - قد قضى علينا بالشرك أو بارتكاب ما نهى عنه فما ذنبنا ؟ ولماذا يعاقبنا عليها ؟

والمعنى : سيقول الذين أشركوا لو شاء الله - تعالى - ألا نشرك به وألا يشرك به آباؤنا من قبلنا ، لنفذت مشيئته ، ولما أشركنا نحن ولا آباؤنا !!

ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، بل شاء لنا أن نشرك معه فى العبادة هذه الأصنام ، وقد رضى لنا ذلك ، فلماذا تطالبنا يامحمد بتغيير مشيئة الله ؟ ولماذا تدعونا إلى الدخول فى دين الإسلام الذى لم يشأ الله لنا الدخول فيه ؟

وشبيه بقولهم هذا ، قولهم فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥) ﴾[2]

---

(١) سورة الأنعام الآيتان : ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) سورة النحل الآية : ٣٥ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم ﴾[1] .

وقد رد القرآن الكريم على قولهم هذا بما يدحضه فقال : ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ﴾ [2]

أى : مثل ذلك التكذيب من مشركى مكة للرسول - ﷺ - كذب الذين من قبلهم رسلهم ، واستمروا فى تكذيبهم حتى أنزلنا بهم العذاب الذى أهلكهم .

ومن مظاهر هذا التكذيب لرسلهم ، أنهم عندما نصحهم الرسل بإخلاص العبادة لله - تعالى - ، ردوا عليهم بقولهم : إن ما نحن عليه من شرك واقع بمشيئة الله وإرادته ، فرد عليهم الرسل بقولهم : لو كان الأمر كما تقولون لما عذب الله - تعالى - المشركين السابقين عليكم ، والذين تعلمون علم اليقين أن العذاب قد نزل بهم لكونهم نسبوا شركهم وكفرهم وفسوقهم إلى مشيئة الله - تعالى - .

ثم بعد هذا الرد المفحم للمشركين أمر - سبحانه - رسوله محمدا - ﷺ - أن يطالبهم بدليل على كذبهم فقال : «قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » ؟

أي : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التوبيخ والتعجيز : هل عندكم من علم ولو قليل تعتمدون عليه فى قولكم «لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا» ؟

إن كان عندكم شيء من العلم فى ذلك فأخرجوه لنا لنتباحث معكم فيه ، فإن العاقل لا يتكلم بدون علم ، ولا يحيل على مشيئة الله التى هى من اختصاص علمه وحده ، أما غيره - عز وجل - فلا علم له بهذه المشيئة .

ثم بين - سبحانه - حقيقة حالهم فقال : «إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون» .

إى : أنتم - أيها المشركون - لستم على شيء من العلم ، وإنما أنتم تتبعون فى أقوالكم وأعمالكم وعقائدكم الظن الباطل ، والكذب الواضح الصريح .

وبعد أن نفى عنهم - سبحانه - أقل ما يقال له علم ، ووصمهم بالكذب أثبت لذاته الحجة الصادقة التى لا تعلوها حجة فقال : «قل فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين» .

(١) سورة الزخرف الآية : ٢٠ . (٢) سورة الأنعام الآية : ١٤٨ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذى قالوا لوشاء الله ما أشركنا ، قل لهم لقد ثبت كذبكم ، وثبت أن الله - تعالى - قد أعطانى الأدلة على صدقى وعلى هدايتى إلى الحق ، ولو شاء - سبحانه - هدايتكم جميعًا لفعل ، ولكنه لم يشأ ذلك لأنكم آثرتم الغى على الرشد ، والجهل على العلم ، والعناد على التفكر ، والكفر على الإيمان ، ومن كان كذلك تركه الله - تعالى - فى ضلاله وطغيانه ، لأنه - سبحانه - هو القائل : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) ﴾[1] .

وهو القائل : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾[2]

أى : فلما أعرضوا عن الحق بسبب عنادهم وغرورهم أعرض الله - تعالى - عنهم .

وبهذا نرى بطلان أقوال الذين ينسبون كفرهم وفسوقهم إلى مشيئة الله - تعالى - وإرادته ، لأن مشيئته وإرادته لا علم لنا بها ، وإنما علم ذلك عنده وحده - سبحانه - ، وهذا العلم صفة انكشاف وليس صفة تأثير ، ومشيئته - عز وجل - لها سنته التى لا تتخلف وهى : أنه لا جبر على طاعة ولا قسر على معصية ، وأنه من يفتح عينيه على الحق يبصر النور والضياء ، ومن يصر على الباطل يغرق فى الظلمات والسيئات .

(ب) وصدق الله إذ يقول :﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) ﴾[3] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ

---

(١) سورة الليل الآيتان : ٥ - ١٠ .

(٢) سورة الصف الآية:٥ .

(٣) سورة الإنسان الآيتان : ٢ ، ٣ .

حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) ﴾[١] .

ففى هاتين الآيتين الكريمتين رد على ضعاف الإيمان الذين قالوا فى الآية السابقة عليهما : ياربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب وكانوا يخافون من الناس أكثر من خوفهم من الله - تعالى - .

فالله - تعالى - يقول لهم : سيصيبكم الموت أيها الجبناء ولو كنتم فى أقوى الحصون ، ومادام الأمر كذلك فليكن موتكم وأنتم مقبلون ، بدل أن تموتوا وأنتم مدبرون .

ولقد بلغ الحال بهؤلاء الذين ضعف إيمانهم ، وظهر نفاقهم ، أنهم كانوا إذا أصابتهم حال حسنة من نعمة أو رخاء أو غنيمة قالوا ذلك كله من عند الله ، وإن أصابتهم سيئة من جدب أو مصيبة قالوا هذه المصائب من عندك يامحمد - ﷺ - .

فرد الله - تعالى - عليهم بقوله - قل لهم يامحمد واحدة من النعمة والمصيبة هى من عند الله - خلقًا وإيجادا ، من غير أن يكون لك مدخل فى وقوع شىء منها بوجه من الوجوه .

وعلى كل عاقل أن يعلم أن ما أصابه من نعم فبتوفيق الله وفضله وإرشاده إلى الوسائل التى توصله إلى الخير ، وما أصابه من سيئة أى : من مصيبة أو ما يشبهها فبسبب وقوعه فيما نهى الله - تعالى - عنه ، وبسبب تركه للأسباب التى توصله إلى النجاة والفوز . كما قال - تعالى - ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) ﴾[٢]

قال الجمل فى حاشيته على تفسير الجلالين : فإن قلت : كيف وَجْهُ الجمع بين قوله - تعالى - : «قل كل من عند الله ، وبين قوله - سبحانه - : «وما أصابك من سيئة فمن نفسك» فأضاف - سبحانه - السيئة إلى فعل العبد فى هذه الآية ، بينما أضاف الكل إلى الله فى الآية السابقة ؟

(١) سورة النساء الآيتان : ٧٨ ، ٧٩ .
(٢) سورة الشورى الآية : ٣٠ .

قلت : أما إضافة الأشياء كلها إلى الله - تعالى - فى الآية السابقة فى قوله : «قل كل من عند الله» . فعلى الحقيقة ، لأن الله - تعالى - هو خالقها وموجدها ، وأما إضافة السيئة إلى فعل العبد فى قوله - تعالى - «وما أصابك من سيئة فمن نفسك» فعلى سبيل المجاز ، والتقدير : وما أصابك من سيئة فمن أجلها وبسبب اقترافها الذنوب ، وهذا لا ينافى أن خَلقها من الله - تعالى -[1] .

ويصح أن يكون التوفيق بين قوله ـ تعالى - : «قل كل من عند الله» ، وبين قوله- سبحانه : «وما أصابك من سيئة فمن نفسك» أن يكون المقصود بالجملة الأولى الرد على هؤلاء المنافقين الذين قصدوا الإساءة إلى النبى - ﷺ - وتجريده من كل فضل ، ونسبة كل مصيبة إليه ، ولم يقصدوا تفويض الأمور كلها إليه - تعالى - كما لم يقصدوا الإيمان بقضاء الله وقدره ، فرد الله - تعالى - عليهم ببيان أن خلق وإيجاد الأشياء من الله - تعالى - .

والمقصد فى الجملة الثانية وهى قوله - تعالى - «وما أصابك من سيئة فمن نفسك» : اتخاذ الأسباب بمعنى من توكل على الله وقدم العمل الصالح أعطاه - سبحانه - النتائج الطيبة ، ومن لا يتخذ الأسباب ويخالف المنهاج السليم الموصل إلى النجاح ، أصابه الفشل والخسران . فالجملة الأولى لبيان القدر . والجملة الثانية لبيان العمل .

(جـ) وقال - سبحانه ـ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾[2] .

هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات التى تنسب فيها الهداية والإضلال إلى الله - تعالى - وحده ، أو تطلق فيها المشيئة والإرادة إلى الله - تعالى - وحده .

هذه الآية أو الآيات معناها واضح جلى ، فالآية التى معنا تقول : ولو شاء الله - تعالى - أيها الناس - أن يجعلكم أمه واحدة متفقة على الحق لجعلكم لأن قدرته لا يعجزها شىء ، ومشيئته لا يحول بينها حائل ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين : جـ ١ ص ٤٠٣ .

(٢) سورة النحل الآية : ٩٣ .

لحكم يعلمها ولا تعلمونها ، ولسنن وضعها فى خلقه ، والأمر الذى اقتضته مشيئته أن يضل من يشاء إضلاله لإيثاره الغى على الرشد ، وأن يهدى من يشاء هدايته لحسن استعداده ، ولسلامة اختياره ، ونهيه النفس عن الهوى ، ولتسألن جميعًا عن أعمالكم الدنيوية ، «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» «ولا يظلم ربك أحدًا» .

فقوله - تعالى - «يضل من يشاء ويهدى من يشاء» ليس معناه سلب حرية الاختيار عن الإنسان ، وإنما معناه أن مشيئة الله - تعالى - التى لا نعلمها لا يحدها حد ، وأن للهداية والإضلال أسبابا ومسببات ، ومقدمات ونتائج .

فكما أن الطعام يغذى ، والماء يروى ، والسكين تقطع ، والنار تحرق ، فكذلك هناك أسباب توصل إلى الهداية ، وأخرى توصل إلى الضلال ، وإسناد الهداية والإضلال إلى الله - تعالى - من حيث إنه الخالق لكل شىء ، ومن حيث إنه وضع نظام الأسباب والمسببات ، وليس معنى هذا الإسناد الإجبار أو الإكراه للإنسان على الضلالة والهداية .

والمتدبر للقرآن الكريم يجد أن الإطلاق للشىء فى موضع قد تقيده آية أخرى فى موضع آخر يذكر فيها الاختيار الإنسانى صريحا ، كما فى قوله - سبحانه - : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)** ﴾[(١)] .

ففى هذه الآية الكريمة أسند - سبحانه - المخالفة والمحاربة للرسول إلى الإنسان ، كما أنه - عز وجل - قد أسند اتباع الطريق المخالف لطريق المؤمنين إلى الإنسان - أيضاً - .

قال صاحب المنار عند تفسيره لهذه الاية : «والذى أريد أن أوجه الأذهان إلى فهمه هو أن هذه الآية مبينة لسنة الله - تعالى - فى عمل الإنسان ، ولمقدار ما أعطيه من

(١) سورة النساء الآية: ١١٥ .

الإرادة والاستقلال والعمل والاختيار ، فالوجهة التى يتوجه إليها فى حياته ، والغاية التى يقصدها من عمله ، يوليه الله إياها ، ويوجهه إليها . . »[1] .

وما أكثر الآيات القرآنية التى قررت ووضحت أن الهداية لها أسباب ، وأن الضلال له أسباب ، وأن سنن الله – تعالى – فى ذلك لا تتغير ولا تتبدل .

ومن هذه الآيات التى بينت أن الهداية لها أسباب قوله – تعالى – : ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) ﴾[2] .

وقوله – سبحانه – : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾[3] .

وقوله – عز وجل – : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾[4] .

فهذه الآيات واضحة كل الوضوح فى بيان أن هداية الله لعبده من أسبابها إطاعة هذا العبد لخالقه ، وجهاده من أجل إعلاء كلمة الحق ، وسيره على الطريق المستقيم .

ومن الآيات التى قررت أن الضلال له أسباب قوله – تعالى – : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾[5] .

وقوله – سبحانه – : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) ﴾[6] .

وقوله – عز وجل – : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ

(١) تفسير المنار : جـ ٥ ص ٤١٥ .
(٢) سورة الرعد الآية : ٢٧ .
(٣) سورة العنكبوت الآية : ٦٩ .
(٤) سورة محمد الآية : ١٧ .
(٥) سورة الصف الآية : ٥ .
(٦) سورة غافر الآية : ٣٥ .

اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧) ﴾[١] .

فهذه الآيات واضحة كل الوضوح - أيضًا - فى أن الذى انغمس فى الضلال من أسباب انغماسه : زيغه وبعده عن الحق وتكبره وغروره ، وخروجه عن كل ماهو خير وبر ، ونقضه للعهود والمواثيق ، وقطعه لما أمر الله به أن يوصل ، وإفساده فى الأرض .

اجعل - أيها القارئ - هذا المصباح بين يديك وسر فى نوره بين شتى السور ، فلن تجد فى دين الله قلقا أو اضطرابا ، ورنما ستجد مشيئة الله وإرادته التى لا حدود لها ، ولا علم لنا بها . لا جبر معها ولا إكراه لأحد وستجد أن الإيمان بالقضاء والقدر الذى هو جزء من حقيقة الإيمان ولا يتم إلا به ، ليس فيه ما يجعل الناس يتكاسلون عن العمل الصالح ، بل هو حافز لهم على العمل الصالح .

وستجد أن القرآن يقرر فى عشرات الآيات أن العمل الصالح هو ثمرة الإيمان العميق ، وأن كل إنسان مسئول عن عمله مسئولية تامة ، كما قال - سبحانه - : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾[٢] .

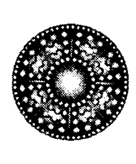
وتذكر الحكمة التى تقول : «إن الله - تعالى - أراد بنا أشياء ، وأراد منا أشياء ، فما أراده بنا أخفاه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فلماذا نشغل أنفسنا بما أراده بنا عما أراده منا» ؟

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة فصلت الآية: ٤٦ .

أفعال العباد



موضوع أفعال العباد من الموضوعات التى تحدث عنها علماء الكلام حديثًا طويلا ، وتضاربت أقوالهم حول هذه المسألة تضاربًا كادت تضيع معه معالم الحق .

وسنحاول أن نعرض هذه المسألة بأسلوب ميسر - بإذن الله - تعالى - فنقول :

المقصود بأفعال العباد ما يصدر عنهم من قول أو فعل ، ومن خير أو شر ، ومن طاعة أو معصية ، ومن غير ذلك من شئون تتعلق بحياتهم وتصرفاتهم .

وهذه الأفعال التى تصدر عن الإنسان ، منها : ماليس له اختيار أو إرادة فيها ، كطوله وقصره ، ودقات قلبه ، ولون بشرته ، وتكوين جسده وطبيعة صوته ، فهذه أمور تحدث وتتم بمحض القدرة العليا للخالق - عز وجل - ، وعلى وفق المشيئة الإلهية وحدها ، ولا مدخل للإنسان فيها ، ولا مسئولية عليه بالنسبة لها ، وتسمى هذه الأمور بالأفعال الضطرارية ، أو اللاإرادية .

قال - تعالى - : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) ﴾[1]

ومنها : أفعال تصدر عن الإنسان بإرادته الحرة ، واختياره التام ، وتفكيره الخاص ، واتجاهه المستقل ، كاختياره لطعامه وشرابه ولنوامه ويقظته ومخالطته لغيره من الناس ، وكإزادته لقول معين ، أو عمل محدد . .

فهذه أفعال يفعلها الإنسان باختياره المطلق ، وتسمى الأفعال الاختيارية وهو مسئول عنها ، ومحاسب عليها سواء أكانت خيرا أم شرا .

قال - تعالى - : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾[2] .

---

(١) سورة القصص الآية: ٦٨ .

(٢) سورة فصلت الآية:٤٦ .

فقد أسند - سبحانه العمل الصالح والعمل السيئ إلى الإنسان ، ولو لم يكن الإنسان حرًا فى اختياره لفعله لما أسند إليه هذا العمل .

ومن فضل الله - تعالى على الإنسان أنه زوده بالعقل الذى يميز به بين الحق والباطل فى العقائد ، وبين الخير والشر فى الأفعال ، وبين الصدق والكذب فى الأقوال .

وعلى الإنسان بواسطة هذه الجوهرة التى منحه الله - تعالى - إياها وهى العقل ، أن يوجهها نحو الصراط المستقيم ، وأن يحرص على التمسك بالحق وبمكارم الأخلاق .

قال - تعالى - : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾[١] .

أى : قد أفلح وفاز ونجح الإنسان الذى يحرص على تزكية نفسه وتطهيرها ، وقد خاب وخسر وهلك الإنسان الذى طغى ولم يمنع نفسه عن الهوى .

والعلماء منذ أزمان بعيدة لم يختلفوا فى أن الأفعال الخارجة عن إرادة الإنسان كدقات قلبه ليس مسئولا عنها ولا يحاسب عليها .

وإنما خلافهم فى الأعمال الاختيارية التى تدخل فى نطاق إرادة الإنسان وحرية تصرفه ككلامه أو عدم كلامه ، و زيارته لغيره أو عدم زيارته ، وفعله لشىء معين وتركه لشىء محدد .

والمشهور من المذاهب فى هذه المسألة ثلاثة:

الأول: مذهب الجبرية ، وهم الذين يقولون بأن الإنسان مسير وليس مخيرا ، بمعنى أنه مجبر على أفعاله وأقواله الاختيارية ، وأنه لا أثر لإرادته ، ولا لقدرته ، وإنما هو كالريشة فى مهب الريح تتقاذفه ذات اليمين وذات الشمال .

أى : أن كل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال ليس مسئولا عنها ولا يحاسب عليها ، لأنه لا عمل له فيها لا خلقا ولا كسبا .

ولا شك أن هذا المذهب باطل عند جميع العقلاء ، لأنه يؤدى إلى إباحة فعل المحرمات ، ويؤدى إلى التسوية بين العمل الصالح والعمل السيئ ، ويؤدى إلى عدم

(١) سورة الشمس الآيتان: ٩ ، ١٠

معاقبة المفسيدين فى الأرض ، ويؤدى إلى عدم التفرقة بين الكفر والإيمان ، وبين الطاعة والعصيان ، ويؤدى إلى عدم الحاجة إلى التكاليف الشرعية . لأن القائلين به يزعمون أن الإنسان مسير غير مخير ، وأنه مجبور على كل أفعاله ، وأنه كالجماد الذى لا حركة له ، ومادام الأمر كذلك فهو غير مسئول عن أفعاله .

ويكفى فى الرد عليهم قوله - تعالى - : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)** ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)** ﴾[٢] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣)** ﴾[٣] .

وقوله - تعالى - : ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)** ﴾[٤] .

الثانى : مذهب المعتزلة ، وهم الذين يقولون أن أفعال العبد قسمان : قسم لا اختيار له فيه أصلا ، ولا تتعلق به إرادته ، وهذا ليس مسئولا عنه وغير مكلف به ، كدقات قلبه وجريان الدم فى عروقه ، وتردد أنفاسه فى صدره .

وقسم آخر صادر عنه بإرادته واختياره ، كأكله وشربه واختياره لمن يتعامل معهم ، وهذا القسم هو مناط التكليف وعليه يترتب الثواب والعقاب ، وهذه الأفعال الصادرة باختيار العبد وإرادته الحرة هى مخلوقة له .

الثالث مذهب الأشاعرة،وهم يقولون : إن الإنسان ليس له من أعماله وأفعاله

---

(١) سورة الزلزلة الآيتان : ٧ ، ٨ .

(٢) سورة ص الآية:٢٨ .

(٣) سورة النساء الآية:١٢٣ .

(٤) سورة الأنبياء الآية:٤٧ .

سوى الكسب ، أما خلق الأفعال وإيجادها فمرده إلى الله- تعالى - وحده . فالله - عز وجل - يخلق الشبع عند الأكل ، ويخلق المعرفة عند طلب العلم ، فالعبد ليس له إلا الكسب الذى هو عبارة عن تعلق الإرادة بالفعل ، فالعباد كاسبون لا خالقون ، وبالكسب يكون التكليف والثواب والعقاب .

قال - تعالى - : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) ﴾[١] .

وقال - سبحانه : - ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾[٢] .

ومما سبق يتبين لنا أن المعتزلة والأشاعرة متفقان على أن للانسان عملا يثاب عليه، وفعلا يمدح عليه إن كان حسنًا، ويعاقب عليه ويذم إن كان سيئًا .

قال بعض العلماء : «واتفاق الأشاعرة والمعتزلة على هذا القدر - بالنسبة لأفعال العباد - جعل الخلاف بينهما لا فائدة منه لغير طلاب العلوم النظرية الذين يريدون التوسع فى البحث ، والتعمق فى الجدل ، أما طلاب العقائد الدينية كما ورد بها كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة ، فإنه يكفيهم ذلك القدر الذى اتفقوا علبه ، وهو أنهم يؤمنون بأنه الله - تعالى - قد أمرهم بالصالحات ، ونهاهم عن السيئات ، ووعد الطائعين جنات النعيم ، وأعد للعاصين نار الجحيم ، وأن للانسان عملا قد انبنى عليه أمر الله ونهيه ، أما كون ذلك العمل مخلوقا للعبد أو مكسوبا ، فذلك لم يكلفهم به الله - تعالى - وما لهم إليه من حاجة .

على أن كتاب الله من أوله إلى آخره ، وسنة رسوله الصحيحة ، بصرحان بأن للإنسان عملا ، ويكفى من ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) ﴾[٣] .

ومجمل القول فى ذلك : أن الإنسان له عمل باتفاق العقلاء ، وهذا هو الذى ورد

---

(١) سورة الزمر الآية: ٦٢ .

(٢) سورة الأعراف الآية: ٥٤ .

(٣) سورة التوبة الآية: ١٠٥ .

به الكتاب والسنة ، ولكنه تصوير هذا العمل ، وتسميته خلقا أو كسبا ، فذلك لم يكلفنا الله - تعالى - به ، فلنعتقد أن للانسان عملا يمدح عليه ويذم ، ويعاقب مادان مختارا ، أما المضطر والمكره فلم يكلفهما الله ، ولم يترتب على عمليهما شيء ، وماعدا ذلك من الأبحاث ، فإنه يصح لنا أن نعرفه على أنه أبحاث عقلية ، نختار أنفعها عند الحاجة ، وأصلحها مناسبة للزمان والمكان ، والله الهادى إلى الصواب»[1] .

وهذا الرأى هو الذى نختاره ونرجحه لسداده ووضوحه .

وبعد : فهذه مباحث تتعلق بالإلهيات ، تحدثنا فيها بشيء من التفصيل تارة ، وبشيء من الايجاز تارة أخرى ، عن معرفة الله - تعالى - ، وعن الأدلة العقلية والنقلية عن وجوده - عز وجل - ثم عن البراهين الساطعة التى تشهد بوحدانية الله - تعالى وبوجوب إخلاص العبادة له وحده .

ثم عن أسمائه الحسنى ، وصفاته العظمى التى تليق بجلاله وكماله .

ثم عن موضوع القضاء والقدر من حيث معناه ، ووجوب الإيمان به ، والفوائد التى تعود علينا عندما ترسخ عقيدة القضاء والقدر فى نفوسنا ، ودفع التعارض المتوهم بين بعض آيات القرآن الكريم .

ثم ختمنا هذه المباحث بكلمة عن أفعال العباد ، وآراء علماء الكلام فيها ، وبيان الرأى الذى نختاره منها . وبالله التوفيق .

(١) **من كتاب:** توضيح العقائد فى علم التوحيد ص ١٢٥ لفضيلة المرحوم الشيخ عبد الرحمن الجزيرى .



النبــوات

١ - حاجة الإنسانية إلى الرسل.

٢ - عددهم ووجوب الإيمان بهم .

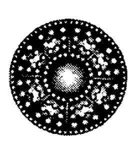
٣ - وحدة رسالتهم .

٤ - صفاتهم .

٥ - معجزاتهم .

٦ - عصمتهم ودفع الشبهات عنهم .

١ - حاجة الإنسانية إلى الرسل
- عليهم الصلاة والسلام -



إذا كان الناس فى كل زمان ومكان ، لا يستغنون عن ضرورات الحياة لأبدانهم كالطعام والشراب ، فإن حاجتهم إلى الرسل الكرام الذين يهدونهم إلى الطريق المستقيم ، ويغذون أرواحهم بالعلم النافع أشد وأعظم .

وذلك لأن غذاء الروح بالعلم النافع ، وبالخلق العظيم ، وبالعقائد الصحيحة ، وبالهدى القويم ، وبالمنهج السليم الذى جاء به الرسل من عند خالقهم - عز وجل - كل ذلك يجعل الإنسان متى اتبع هذا المنهج يظفر بالسعادة لروحه ولجسده ، أما غذاء الجسد بالطعام والشراب وغيرهما من الماديات الخالية من كل ما يحميها من الأنانية والأحقاد والأطماع . فإن هذا الغذاء قد يكون ضرره أكبر من نفعه ، وشره أكثر من خيره ، لأن صاحبه لم يتحر الحق فى جمعه ، ولم يحرص على تحصيله بالطرق الحلال .

إن حاجة الإنسانية إلى الرسل كحاجتها إلى حياتها الآمنة المطمئنة ، إذ لو تركت الحياة الإنسانية تسير وفق ما تمليه العقول ، لعاش الناس فى خلاف دائم ، وفى عراك مستمر ، وفى تنازع لا ينقطع ، ولما اتفقوا على حقيقة واحدة تصلح حالهم ومآلهم ، لأن العقول مختلفة فى مقاصدها وغاياتها . .

لذا كانت بعثة الأنبياء الذين بلغوا عن خالق الإنسان ما يصلحه وما يهديه ، ضرورة لافكاك عنها لتجنيب العالم الانغماس فى ظلمات الأطماع والأنانية والشرور والعدوان .

لقد بين الرسل الناس ما يجب عليهم نحو خالقهم ، وما يجب عليهم نحو أنفسهم ، وما يجب عليهم نحو آبائهم ، وما يجب عليهم نحو غيرهم . ولو اتبع الناس فى كل زمان ومكان تعاليم أنبيائهم ، لعاشوا فى سعادة غامرة ، ولفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض .

إننا نرى بأعيننا ، ونلمس بمشاعرنا ، أن الناس فى كل زمان ومكان محتاجون إلى المصلحين الذين يعملون على مافيه سعادة الأفراد والجماعات ، إذ لولا هؤلاء المصلحون لظل كثير من الناس فى غيهم يعمهون .

والأمم التى كثر فيها المصلحون ، كثر فيها الخير ، والرقى ، والأمن ، والرخاء والتعاون بين أفرادها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

أما الأمم التى قل فيها المصلحون والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، فإنها يكثر فيها الشر والفسوق والعصيان ، ويكون أمرها فرطا ، وعاقبتها الخسران .

إن الرسل الكرام هم الذين تلقوا من خالقهم عن طريق الوحى ما يهدى الناس إلى الصراط المستقيم ، وقد بلغ الرسل ما كلفوا بتبليغه إلى الناس بكل صدق وأمانة ونشاط وإخلاص ، وعلموهم مالهم من حقوق وما عليهم من واجبات ، وبشروهم بحسن العاقبة إذا أحسنوا ، وبسوء المصير إن أساءوا ، وكان الرسل فى كل أمة هم المرجع لغيرهم عند الحيرة ، وهم الهداة لهم إلى الطريق القويم فى أمور الدنيا والآخرة ، لذا كانت حاجة الناس إليهم ضرورية دون أن يختلف فى ذلك عاقلان .

إن إقامة الدين ، وإن عبادة الله - تعالى - تنتظم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، كما تنتظم الأقوال الطيبة ، والأعمال الصالحة والأفعال الكريمة ، والمعاملات الحسنة ، والآداب القويمة ، والعبادات الصحيحة ، والعلاقات السليمة بين الأفراد والجماعات ، كما تنتظم كل ما يزكى النفس ، ويطهر القلب ، ويضئ العقول بالمعارف النافعة ، لكى يبلغ الإنسان الكمال المادى والأدبى فى هذه الحياة .

وهذه القيم السامية لايمكن للبشر أن يصلوا إليها بعقولهم ، وإنما يتعلمونها من تعاليم وهدايات الرسل الكرام الذين تلقوا علمهم من الله - تعالى - عن طريق وحيه الأمين .

وهؤلاء الرسل أرسلهم الله - تعالى - إلى الأمم فى جميع العصور المتطاولة ، إذ لم تخل أمة من رسول يبشرها وينذرها ، كما قال - تعالى - : ﴿ **رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً** ﴾[1] .

---

(١) سورة النساء الآية: ١٦٥ .

ومن الآيات القرآنية التى قررت أن رحمة الله - تعالى - بعباده قد اقتضت أن يرسل فى كل أمة رسولا يرشدها إلى الحق قوله - تعالى - : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾[2] .

ولقد فصل الأستاذ الإمام محمد عبده - رحمه الله - فى كتابه : «رسالة التوحيد» الحديث عن حاجة البشر إلى الرسل ، وكان مما قاله : «لقد أرسل - تعالى - لعباده رسلا مرشدين هادين ، وميزهم بخصائص لا يشاركهم فيها سواهم ، وأيدهم بمعجزات باهرات تملك النفوس ، وتأخذ الطرق على سوابق العقول ، فيستخذى الطامح ، ويذل الجامح ، ويُصدمَ بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده ، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه .

يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته ، فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الإذعان له ، ويستوى فى كونه لما يجيئون به المالك والمملوك ، والسلطان والصعلوك ، والعاقل والجاهل ، والمفضول والفاضل ، فيكون الإذعان لهم أشبه بالاضطرارى منه بالاختيارى النظرى .

يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، وما أراد أن يعلموه من شئون ذاته وكمال صفاته ، وأولئك هم الأنبياء والمرسلون .

فبعثة الأنبياء - صلوات الله عليهم - من متممات كون الأنسان ، ومن أهم حاجاته فى بقائه ، ومنزلتها من النوع كمنزلة العقل من الشخص ، نعمة أتمها الله لكى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل[3]» .

---

(١) سورة فاطر الآية: ٢٤ .

(٢) سورة يونس الآية: ٤٧ .

(٣) الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده : جـ ٣ ص ٤٢٧ - طبعة دار الشروق - تحقيق وتقديم الدكتور محمد عمارة .

٢ - عددهم - صلوات الله وسلامه عليهم -

يجب على كل مسلم أن يؤمن بأن الله - تعالى - قد أرسل رسلا اصطفاهم من بنى آدم ، وأرسلهم إلى الناس مبشرين ومنذرين ، ومبينين لهم ما فيه صلاحهم فى معاشهم ومعادهم «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» .

وهؤلاء الرسل الكرام منهم من قص الله علينا أحوالهم مع أقوالهم وذكرهم بأسمائهم ، ومنهم من لم يذكر الله لنا أسماءهم ، ولم يبين لنا من أرسلوا إليهم .

قال - تعالى - : ﴿ **وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤)** ﴾

أما الذين ذكرهم الله - تعالى - بأسمائهم من الرسل الكرام ، وحكى لنا جانبًا مما دار بينهم وبين أقوامهم من محاورات ومجادلات ، فهم خمسة وعشرون ، منهم ثمانية عشر رسولا ذكرهم - سبحانه - فى قوله - تعالى - : ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦)** ﴾[1] .

وهاك ترجمة موجزة لكل واحد من هؤلاء الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى هذه الآيات :

(١) سورة الأنعام لآيات : ٨٣ - ٨٦ .

١ - إبراهيم - عليه السلام - تكرر اسمه فى القران الكريم فيما يقرب من سبعين مرة ، وينتهى نسبه إلى نوح - عليه السلام - .

وهو إبراهيم بن آزر بن ناحور بن ساروغ بن راعوين قالع بن عابر بن سام بن نوح .

وكانت المدة بين إبراهيم وبين نوح - عليهما السلام - حوالى ثلاثة آلاف سنة .

وكانت ولادته بأرض بابل بالعراق ، ثم هاجر مع أبيه إلى بلاد الشام ، ثم عاد إلى أرض بابل . ثم رجع إلى بلاد الشام ، ثم ذهب إلى مصر ، وتوفى بفلسطين .

٢ - إسحاق - عليه السلام - وقد تكرر اسمه فى القرآن الكريم سبع عشرة مرة ، وكان الحديث عنه مرتبطا - فى الأعم الأغلب - بالحديث عن أبيه إبراهيم .

وتوفى - أيضاً - بفلسطين ، ودفن إلى جوار أبيه إبراهيم - عليهما السلام - .

٣ - يعقوب - عليه السلام - وقد تكرر بهذا الاسم فى القرآن ست عشر مرة . ويطلق عليه - أيضا - اسم إسرائيل - أى : صفوة الله أو عبد الله وهو ابن اسحاق - عليهما السلام - .

وكانت وفاته - أيضا - بفلسطين ، ودفن إلى جوار أبيه إسحاق وجده إبراهيم - عليهم السلام .

٤ - نوح - عليه السلام - وقد تكرر اسمه فى القرآن الكريم فى ثلاثة وأربعين موضعًا .

وينتهى نسبه إلى آدم - عليه السلام - ، وقد ذكروا أن المدة بينهما تقارب ألفى عام .

وكان قومه يعبدون الأصنام ، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، يدعوهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده وترك عبادة الأصنام ، وقد أهلكهم الله - تعالى - بالطوفان بسبب إصرارهم على الكفر .

٥ - داود وهو ابن يسى من بسط يهوذا من بنى إسرائيل ، وكانت ولادته فى بيت لحم سنة ١٠٨٥ ق . م تقريبا ، وهو الذى قتل جالوت كما جاء فى القرآن الكريم :

«وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء» . وكانت وفاته سنة ١٠٠٠ ق . م تقريبا .

٦ - سليمان وهو ابن داود - عليهما السلام - ولد بأورشليم - القدس حوالى سنة ١٠٤٣ ق . م . وتوفى سنة ٩٧٥ ق . م .

وقد جاء ذكر داود وسليمان فى آيات متعددة من القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) ﴾[1]

٧ - أيوب وهو - كما يقول ابن جرير - ابن موصى بن روم بن عيص بن أسحاق ابن إبراهيم .

٨ - يوسف وهو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام - وكانت ولادته قبل ولادة عيسى بن مريم بألف سنة تقريبا .

٩ - موسى وهو ابن عمران بن يصهر بن ماهيث بن لاوى بن يعقوب بن اسحاق ابن إبراهيم ، وكانت ولادته حوالى القرن الرابع عشر ق . م .

١٠ - هارون وهو أخو موسى لأمه وقيل لأبيه وأمه ، وكانت وفاته قبل وفاة موسى .

١١ - زكريا وهو ابن أزن بن بركيا ويتصل نسبه بسليمان - عليه السلام - وكان قريب العهد بعيسى حيث تولى كفالة أمه مريم ؛ كما جاء فى القرآن الكريم «وكفلها زكريا» .

١٢ - يحيى وهو ابن زكريا .

١٣ - عيسى وهو ابن مريم ، وهو آخر نبى قبل رسول الله محمد - ﷺ - .

١٤ - إلياس وهو ابن فنحاص بن العيزار بن هارون أخى موسى ، وهو المعروف فى كتب الإسرائيليين باسم «إيليا» وقد أرسله إلى بنى إسرائيل حين عبدوا الأوثان .

(١) سورة النمل الآية: ١٥ .

١٥ - إسماعيل وهو الابن الأكبر لإبراهيم - عليهما السلام - .

١٦ - اليسع وهو ابن شافاط وكانت وفاته حوالى سنة ٨٤٠ ق . م ودفن بالسامرة بفلسطين .

١٧ - يونس بن متى أرسله الله - تعالى - إلى أهل نينوى بشمال العراق حوالى القرن الثامن ق . م .

١٨ - لوط وهو ابن هاران بن تارح فهو ابن أخى إبراهيم ، وكانت رسالته إلى أهل سدوم من شرق الأردن .

أما الأنبياء السبعة الباقون فهم : آدم ، وإدريس ، وهود ، وشعيب ؛ وصالح ، وذو الكفل ، ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وقد نظمهم الناظم فى قوله :

حَتْم على كل ذى التكليف معرفةٌ   بأنبياء على التفصيل قد عُلموا
فى تلك حجتنا منهم ثمانية   من بعد عشر ويبقى سبعة وهم
إدريس هود شعيب صالح وكذا   ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

١٩ - وآدم هو أبو البشر والصحيح أن نبوته ثابتة وأنها كانت إلى زوجه حواء ، فقد أمره الله - تعالى - بتبليغ الدعوة إليها وإلى أولاده .

٢٠ - إدريس وهو ابن يارد بن مهلائل بن قينان بن أنوش بن شيث ابن آدم .

٢١ - هود : وهو ابن عبد الله بن الخلود بن عاد بن عاص بن إدم بن سام بن نوح ، وقومه هم قبيلة عاد ، نسبة إلى جدهم الذى كان يسمى بهذا الاسم ، وكانت مساكنهم بالأحقاف بالقرب من اليمن .

٢٢ - صالح : وهو ابن عبد بن ماسح بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابد بن سام بن نوح ، وقومه هم قبيلة ثمود نسبة إلى جدهم ثمود ، وكانت مساكنهم بالحجر وهو مكان يقع بين بلاد الحجاز والشام .

٢٣ - شعيب : وهو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم ، وكانت رسالته



إلى أهل مدين الذين كانوا يسكنون فى المنطقة التى تسمى «معان» بين حدود الحجاز والشام .

٢٤ - ذو الكفل : قيل هو ابن أيوب - عليه السلام - ، وقد بعثه الله - تعالى - بعد أبيه ، وكان مقيما فى بلاد الشام ، والأكثرون على أنه نبى لذكره معهم .

٢٥ - محمد - ﷺ - وهو خاتم الأنبياء وأفضلهم ، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى . وينتهى نسبه - ﷺ - إلى إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام .

هؤلاء الأنبياء الكرام الذين قص الله - تعالى - علينا أخبارهم وذكرهم بأسمائهم فى كتابه ، يجب علينا أن نؤمن بهم جميعا دون تفرقة بينهم ومن أنكر واحدا منهم يكون خارجا عن دائرة الإسلام ، وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة فى آيات قرآنية منها :

قوله - تعالى - : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾[1] .

ومنها قوله - سبحانه - : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾[2] .

ومنها قوله - عز وجل - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا

(١) سورة البقرة الآية: ٢٨٥ .
(٢) سورة البقرة الآية: ١٣٦ .

بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١)﴾ [1] .

وقد ورد فى بعض الآثار أن عدد الأنبياء مائة وأربع وعشرون ألفا ، ولكن هذا الأثر قيل بأنه ضعيف .

وعلى أية حال فيجب على كل مسلم أن يؤمن - على سبيل الإجمال - بكل نبى أرسله الله - تعالى - وأن يؤمن على سبيل الإجمال والتفصيل - بهؤلاء الأنبياء الذين جاء ذكرهم فى القرآن الكريم إيمانًا كاملا لا تردد معه ولا توقف .

هذا ، وقد اختلف علماء الكلام فى الفرق بين الرسول والنبى . فقال بعضهم : إنهما متساويان من حيث المعنى ، فالرسول هو إنسان بعثه الله - تعالى - إلى الخلق لتبليغ الأحكام ومثله النبى .

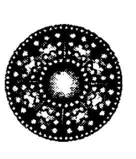
وقال آخرون : الرسول هو إنسان أوحى الله - تعالى - إليه بشريعة ليعمل بها وليبلغها لغيره ، والنبى هو إنسان أوحى إليه بشريعة ليعمل بها فى نفسه .

وهناك أقوال أخرى فى الفرق بين الرسول والنبى لا مجال هنا لتفصيل الكلام عنها .

---

(١) سورة النساء الآية : ١٥٠ ، ١٥١ .

٣ - وحدة رسالتهم



الرسل جميعا جاءوا من عند الله - تعالى - برسالة واحدة فى أصولها وفى جوهرها ، ألا وهى دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، والتحلى بمكارم الأخلاق .

أما دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - فتراها الكلمة الأولى التى وجهها كل نبى إلى قومه ، وهذه بعض الآيات القرآنية التى أكدت هذه الحقيقة .

قال - تعالى - : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)﴾[١] .

وقال - سبحانه - : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥)﴾[٢] .

وقال - تعالى : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١)﴾[٣] .

وقال - سبحانه - : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤)﴾[٤] .

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٥٩ .
(٢) سورة الأعراف الآية: ٦٥ .
(٣) سورة هود الآية: ٦١ .
(٤) سورة هود الآية: ٨٤ .

وقد قرر القرآن الكريم فى كثير من آياته أن جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قد أمروا أقوامهم بعبادة الله وحده ، وحذروهم من سوء عاقبة عبادة غيره - عز وجل - ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾[1] .

فهذه الايات الكريمة واضحة كل الوضوح فى أن كل نبى أرسله الله - تعالى - إلى الناس ، كان أول ما يأمرهم به : إخلاص العبادة والخضوع والطاعة لله رب العالمين .

وأما أمرهم لأقوامهم بالتحلى بمكارم الأخلاق ، فنراه - أيضًا - فى نصائحهم لأقوامهم كما حكاه القرآن الكريم .

فهذا هود - عليه السلام - ينصح قومه بالتواضع وشكر الله - تعالى - على نعمه ، وينهاهم عن الظلم والغرور ، ويبين لهم أن نصحه لهم نابع من خوفه عليهم فيقول لهم : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)﴾[2] .

أى : أن هودا - عليه السلام - نصح قومه فقال لهم على سبيل الإنكار لسلوكهم : ياقوم أتبنون بكل مرتفع من الأرض على سبيل اللهو والعبث بناء يعتبر آية وعلامة على عبثكم ، وتعملون قصورا ضخمة حتى لكاءنكم تريدون من وراء إنشائها الخلود والبقاء ، وإذا أردتم السطو والعدوان على غيركم أخذتموه بعنف وقسوة ، فاتقوا الله - تعالى - وأطيعونى فيما آمركم به وفيها أنها كمعنه فإنى أخاف عليكم سوء عاقبة الطغيان والفسوق والعصيان .

(١) سورة الأنبياء الآية: ٢٥ .

(٢) سورة الشعراء الآيات :١٢٨ - ١٣٥ .

وهذا صالح - عليه السلام - ينصح قومه بتعمير الأرض لا بتخريبها فقول لهم - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[1] .

أى : هو - سبحانه - الذى خلق أباكم من هذه الأرض وأنتم من نسله وهو - سبحانه - الذى مكنكم من تعمير عذه الأرض بشتى أنواع الزروع والثمار ، ومادام الأمر كذلك فاشكروا خالقكم على نعمه ، واستمروا على تعمير الأرض والانتفاع بخيرها .

وهذا شعيب - عليه السلام - يرى قومه ينقصون فى الكيل والميزان ويبخسون الناس أشياءهم ، فينصحهم بالوفاد وينهاهم عن الإفساد فى الأرض فيقول لهم : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) ﴾[2] .

هذه نماذج من نصائح الأنبياء السابقين لأقوامهم ، ومنها ترى أنهم نصحوهم بالتواضع وبتعمير الأرض وبالوفاء فى المكيال والميزان ، وحذروهم من سوء عاقبة الغرور والبطر والإفساد فى الأرض ، وبغير ذلك من مكارم الأخلاق .

ولو راجعنا سيرة خاتم الأنبياء وإمامهم لرأيناه - ﷺ - سار على الطريق التى سار عليها الأنبياء السابقون ، فهو - ﷺ - يأمر قومه بإخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ثم بعد ذلك يأمرهم بالصدق والعفاف والوفاء والعدل والطهارة وطيب الكلام وصالح العمل ، ويكون هو - ﷺ - قدوة طيبة فى مكارم الأخلاق ويقول : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

---

(١) سورة هود الآية : ٦١ .

(٢) سورة الأعراف الآيتان : ٨٥٣ ، ٨٦ .

والخلاصة أن الرسل جميعا جاءوا برسالة واحدة فى جوهرها وأصولها ، وهذه الرسالة تتمثل فى الدعوة إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وفى التحلى بمكارم الأخلاق وفضائل الصفات .

وإذا كان هناك خلاف فى شرائع الأنبياء ، فهذا الخلاف إنما هو فى الفروع وليس فى الأصول ، وقد أشار القرآن إلى ذلك فى آيات منها قوله - تعالى - : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (1) .

أى : وكما أنزلنا التوراة على موسى وأنزلنا الإنجيل على عيسى ، أنزلنا إليك يامحمد القرآن الجامع لكل ما اشتملت عليه الكتب السماوية السابقة من هدايات ، وقد أنزلناه عليك يامحمد إنزالا ملتبسًا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وجعلناه مؤيدا لما فى تلك الكتب التى تقدمته ، من دعوة إلى عبادة الله وحده ، وإلى التمسك بمكارم الأخلاق ، وجعلناه كذلك «مهمينا» عليها ، أى : أمينا وحاكما عليها ، ومادام الأمر كذلك فاحكم بين الناس بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق .

واعلم - أيها الرسول الكريم - أن سنتنا قد اقتضت أن نجعل لكل أمة الشريعة التى تناسبها ، والمنهاج الذى يصلحها .

والاختلاف فى الشرائع إنما يكون - كما سبق أن أشرنا - فيما يتعلق ببعض الأوامر والنواهى ، وببعض وجوه الحلال والحرام ، وبغير ذلك من فروع الشريعة ، فقد يحرم الله شيئا على قوم عقوبة لهم ، ويحله لقوم آخرين تخفيفا عنهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) ﴾(2) .

---

(١) سورة المائدة الآية : ٤٨ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٤٦ .

وكما قال - سبحانه - حكاية عن عيسى - عليه السلام - : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) ﴾[1] .

أما ما يتعلق بأصول الشريعة ، وجوهر الدين ، وأساس العقيدة ، والتحلى بمكارم الأخلاق ، فلا يتعلق به اختلاف فى أى شريعة من الشرائع ، أو فى أى دين من الأديان .

فالصلاة - مثلا - وهى ركن من أركان الإسلام - كانت مفروضة على الأمم السابقة ولكن بكيفية لا يعلمها إلا الله ، ومن الآيات التى تدل على ذلك قوه - تعالى - حكاية عن دعاء إبراهيم - عليه السلام - : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) ﴾[2] .

والزكاة كذلك كانت مفروضة على الأمم السابقة ، ولكن بكيفية لا يعلمها إلا الخالق - عز وجل - كما قال تعالى - حكاية عن عيسى - عليه السلام : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) ﴾[3]

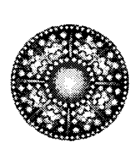
والصيام كان مفروضا على الأمم السابقة ، وبكيفية يعلمها الله - تعالى - كما قال - سبحانه - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾[4] .

ومن كل ما سبق يتبين لنا بوضوح أن الرسل جميعا قد جاءوا بشريعة واحدة فى جوهرها وأصولها ، وأن الخلاف إنما هو فى الفروع والجزئيات ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾[5]

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٥٠ .
(٢) سورة إبراهيم الآية : ٤٠ .
(٣) سورة مريم الآية : ٣١ .
(٤) سورة البقرة الآية : ١٨٣ .
(٥) سورة الشورى الآية : ١٣ .

٤ - صفاتهم



الرسل الكرام هم صفوة الخلق ، وخيرة الله - تعالى - من عباده وأبواب رحمته ، وأسباب نعمته .

هم الأطهار الذين اختارهم خالقهم لتبليغ وحيه ، وهداية الناس إلى الصراط المستقيم ، وإخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن الكفر والفسوق والعصيان ، إلى الطاعة والعفاف والإيمان .

هم الذين كملهم الله - تعالى - بصفاء الفطرة ، ونقاء القلب ، وسمو النفس ، وعلو الهمة ، وسلامة العقل ، ونظافة اليد ، وطهارة المنبت ، وجمال الخَلْق والخُلُق ، والظاهر والباطن .

هم الذين عصمهم الله - تعالى - من كل ما يتنافى مع مكارم الأخلاق ومع المروءة والشرف ، قبل النبوة وبعد النبوة

لقد مدحهم الله - تعالى - مدحا عظيما فى كتابه ، وأثنى عليهم فى عشرات الآيات القرآنية ، فقال عن نوح : ﴿ **ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** ﴾ [1] .

وقال عن إبراهيم : ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١)** ﴾[2] .

وقال عنه - أيضا - : ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢)** ﴾[3] .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٣ .

(٢) سورة مريم الآية : ٤١ .

(٢) سورة النحل الآية : ١٢٠ - ١٢٢ .

وقال عن إسماعيل : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) ﴾[1] .

وقال عن موسى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) ﴾[2] .

وقال عن خاتمهم وإمامهم محمد - ﷺ - : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [3] .

وقال عنهم جميعا بعد أن ذكر ثمانية عشر منهم : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ (٩٠) ﴾[4] .

هذا جانب من الآيات القرآنية التى مدح الله - تعالى - بها أنبياءه الذين اختارهم واصطفاهم على العالمين لتبليغ وحيه .

ومع هذا المدح العظيم ، والثناء الجميل من الله - تعالى - على رسله وأنبيائه فقد وصفهم بأنهم جميعا من البشر ، كما قال - تعالى - فى شأن خاتمهم - ﷺ - : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾[5] .

وأنهم جميعا يأكلون ويشربون ويمشون فى الأسواق ، كما قال - تعالى - فى الرد على من أنكر أن يكون الرسول محمدا - ﷺ - كذلك : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) ﴾[6] .

---

(١) سورة مريم الآية: ٥٤ ، ٥٥ .
(٢) سورة مريم الآية: ٥١ - ٥٣ .
(٣) سورة القلم الآية: ٤ .
(٤) سورة الأنعام الآية: ٩٠ .
(٥) سورة الكهف الآية: ١١٠ .
(٦) سورة الفرقان الآية: ٢٠ .

وأنهم يتزوجون وتأتى منهم الذرية كما تأتى من غيرهم من البشر ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) ﴾[١] .

وأن كل رسول اقتضت حكمة الله - تعالى - أن يرسله باللغة التى عليها قومه ، كما قال - سبحانه - ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) ﴾[٢] .

أى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - رسولا من الرسل إلى قوم من الأقوام ، إلا وكانت لغته كلغتهم ، لكى يتيسر لهم أن يفهموا ما يريد أن يبلغهم إياه من الأوامر والنواهى .

قال الإمام ابن كثير عند تفسير لهذه الآية : «هذا من لطفه - تعالى - بخلقه : أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغتهم ليفهموا عنهم ما يريدون ، بخلقه : أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغتهم ليفهموا عنهم ما يريدون ، وما أرسلوا به إليهم » .

وفى مسند الإمام أحمد عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ﴿لم يبعث الله - عز وجل - نبيا إلا بلغة قومه﴾[٣] .

والرسل جميعًا من صفاتهم أنهم لا يعلمون شيئا من أمور الغيب إلا فى حدود القدر الذى أراده الله - تعالى - لهم ، كما قال - سبحانه - : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨) ﴾[٤] .

---

(١) سورة الرعد الآية: ٣٨ .
(٢) سورة إبراهيم الآية: ٤ .
(٣) تفسير ابن كثير: جـ ٤ ص ١٩٧ .
(٤) سورة الجن الآية: ٢٦ - ٢٨ .

والرسل جميعا - عليهم الصلاة والسلام - يجب أن تتوافر فيهم كل صفات الكمال التى من أهمها : الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة .

فكل نبى لابد أن يكون صادقا ، لأنه من المستحيل أن يكون صادقا مع الله - تعالى - ويكذب على الناس .

وكل نبى لابد أن يكون أمينًا فى كل ما يبلغه إلى الناس ، فلا يغير ولا يبدل ولا يزيد ولا ينقص فى أى شىء كلفه الله - تعالى - به ، وإنما يبلغه بالطريقة التى علمه الله إياها .

وكل نبى لابد أن يبلغ ما أمره الله - تعالى - بتبليغه ، كما قال - سبحانه : **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾**[1] .

وكل نبى لابد أن يكون فطنا ذكيا ، فى أعلى درجات السمو العقلى ، حتى يستطيع أن يجيب على أسئلة السائلين ، وأن يرد على شبهات المتعنتين كما رد إبراهيم - عليه السلام - على المغرور الذى قال له : «أنا أحيى وأميت» فأجابه إبراهيم بقوله : **﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾**[2] .

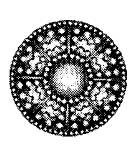
فهذه الصفات الكريمة واجبة فى حق الرسل الكرام ، ويستحيل عليهم أضدادها من الكذب والخيانة والكتمان والبلادة ، لأنهم صفوة الله من خلقه ، ورسله إلى عباده .

---

(١) سورة المائدة الآية: ٦٧ .

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٥٨ .

٥ - معجزاتهم



جميع الرسل الكرام الذين اختارهم الله - تعالى - لحمل رسالته ، وتبليغ وحيه ، أيدهم - سبحانه - بالمعجزات الباهرة التى تشهد بأنهم صادقون فيما يبلغونه عن خالقهم .

وهذه المعجزات التى يؤيد الله - تعالى - بها رسله ، لابد أن تكون فوق مقدور البشر ، وخارج نطلق قدرتهم وعلمهم ، كما يجب أن تكون مخالفة لعاداتهم التى اتفقوا عليها .

ولذلك أطلق العلماء على هذه الخوارق لفظ «معجزات» أى : الأمور التى يعجز سائر البشر - سوى الرسل - عن الإتيان بمثلها .

وأطلقوا عليها هذا الاسم لعجز العقول عن تفسيرها ، ولعجز القدرة الإنسانية عن الإتيان بمثلها .

وقد عرف علماء الكلام المعجزة بأنها : الأمر الخارق للعادة ، الذى قصد به إظهار صدق من ادعى النبوة ، أو هى الأمر الخارق للعادة ، الذى يجريه الله - تعالى - على يد نبى مرسل ، ليقيم به الدليل القاطع على صدق نبوته .

ومن هنا كانت معجزات الرسل ضرورية ، وإظهارها واجبا ، ليتم بها المقصود من تبليغ الرسالة ، وتقام بها حجة الله على الناس .

وقد جرت سنة الله - تعالى - أن يجعل معجزة كل نبى من جنس ما نبغ فيه قومه ، حتى تكون الحجة أوقع ، والإلزام أتم ، والاقتناع أشد بأن هذا الرسول صادق فيما يبلغه عن الخالق - عز وجل .

وإليك ثلاثة أمثلة تدل دلالة واضحة ، على أن معجزة كل نبى كانت من جنس ما برع فيه قومه ، وأنه قد تحداهم بها فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثلها .

(ا) المثال الأول : معجزة موسى - عليه السلام - وكانت تتمثل فى العصا



التى ألقاها فإذا هى حية تسعى ، والتى ابتلعت ماجاء به مهرة السحرة فى عهده الذى كان السحر فيه قد وصل إلى درجة كبيرة من القوة فى لفت الأنظار ، وفى التأثير فى العقول والنفوس ،

وقد حكى القرآن ذلك فى سور متعددة منها قوله - تعالى - : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) ﴾ [(١)] .

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٠٣ - ١٢٦ .

فأنت ترى من هذه المحاورة التى دارت بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون ، أن فرعون تحدى موسى وقال له : إن كنت جئت بآية أى : بمعجزة تشهد بصدقك من عند من أرسلك فأت بها ، إن كنت من الصادقين فى دعواك أنك رسول من رب العالمين .

وقبل موسى - عليه السلام - تحدى فرعون فألقى عصاه التى كانت بيده أمام فرعون فإذا هى ثعبان عظيم .

وهنا أشارت حاشية فرعون عليه أن يستدعى السحرة الكبار فى مملكته ، وأن يعدهم بالأجر الجزيل إن انتصروا على موسى - عليه السلام - .

وجاء اليوم المحدد للمباراة بين كبار السحرة وبين موسى ، وقال لهم موسى ابدءوا بإلقاء سحركم ، فألقوا عصيهم فسحروا أعين الناس وخوفوهم وأفزعوهم ، وجاءوا بشيء عظيم فى باب السحر ، لدرجة أن موسى - عليه السلام - أوجس فى نفسه خيفة مما فعلوه ، إلا أن الله - تعالى - ثبته ، وأوحى إليه لا تخف إنك أنت الأعلى .

وألقى موسى عصاه فإذا هى تبتلع وتلتقم بسرعة جميع ما ألقاه السحرة من عصى ، وذهل السحرة لما رأوه ، وخروا ساجدين ، وهم يقولون آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون ، لأنهم أيقنوا كل الإيقان أن ما جاء به موسى ليس سحرا ، وإنما هى معجزة خارقة للعادة لا قدرة لهم على الإتيان بمثلها .

وعندما هددهم فرعون بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف لم يهتموا بوعيده ، بل قالوا له بكل شجاعة : ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) ﴾[١]

وقالوا له - كما جاء فى موضع آخر : ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) ﴾[٢] .

(١) سورة الزخرف الآيتان : ١٢٥ ، ١٢٦ .   (١) سورة طه الآيات : ٧٢ ، ٧٣ .

وقالوا له - كما جاء فى موضع ثالث - : ﴿ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾[1] .

وهكذا كانت معجزة موسى الخارقة للسحر ولكل ما جرت به العادة والصادرة على سبيل التحدى لمن خالفه ، سببًا لإيمان السحرة ، لأنهم تأكدوا كل التأكيد بأن ما جاء به موسى لا علاقة له بالسحر ، وإنما هو معجزة باهرة أيد الله - تعالى - بها نبيه موسى - عليه السلام - ولذا قالوا آمنا برب هارون موسى .

(ب) المثال الثانى : معجزة عيسى - عليه السلام - وكانت تتمثل فى إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وكانت معجزة عيسى كذلك من جنس ما برع فيه قومه ، لأن الطب فى عهده قد وصل إلى أرقى درجاته ، فجاء عيسى - عليه السلام - بالمعجزة التى فاقت الطب والأطباء ، وأعجزت الحكمة والحكماء ، وكانت فوق قدرة العلم والعلماء .

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى معجزات عيسى - عليه السلام - فيقول : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) ﴾[2] .

أى : أن الله - تعالى - قد أوحى إلى مريم أنه - سبحانه - يبشرها بكلمة منه وهو عيسى ، وأن عيسى من صفاته أن الله - سبحانه - يعلمه الكتاب والحكمة ويعلمه ما فى التوراة والإنجيل من أحكام ، وسيكون رسولا إلى بنى إسرائيل ليقول لهم إنى جئتكم بالمعجزات التى تشهد بصدقى .

ثم ذكر - سبحانه - خمسة أنواع من معجزات عيسى :

(١) سورة الشعراء الآيات : ٥٠ ، ٥١ .

(٢) سورة آل عمران الآيتان : ٤٨ ، ٤٩ .

أما المعجزة الأولى ، فعبر عنها - سبحانه - بقوله : «أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله» .

والمعنى : أن عيسى قد حكى الله عنه أنه قال لبنى إسرائيل : لقد أرسلنى الله إليكم لأبلغكم دعوته ، ولآمركم بإخلاص لعبادة له ، وقد أعطانى - سبحانه - من المعجزات أنى أقدر على أن أصور لكم من الطين شيئًا صورته مثل صورة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا حقيقيا بإرادة الله ومشيئته .

وأما المعجزات الثانية والثالثة والرابعة فقد حكاها القرآن فى قوله «وأبرئ الأكمه» وهو الذى يولد أعمى (والأبرص) أى : وأشفى الأبرص وهو مرض يصيب الجلد فيغير لونه (وأحيى الموتى بإذن الله) ، أى ومن معجزاتى - أيضا - أن أعيد الحياة إلى الموتى بإذن الله وليس ذلك بقدرتى ولا بمشيئتى .

وأما المعجزة الخامسة فقد حكاها القرآن فى قوله - تعالى - : (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم) أى : وأن من معجزاتى - أيضا - أنى أخبركم بالشىء الذى تأكلون وبالشىء الذى تخفونه فى بيوتكم لوقت حاجتكم إليه .

ولا شك أن هذه الأمور الخمسة من المعجزات التى لا يقدر عليها أحد من البشر ، إلا إذا وفقه الله - تعالى - للقدرة على ذلك وأمده بعونه وتأييده ، ولذلك لم ينسب عيسى - عليه السلام - هذه المعجزات إلى نفسه ، وإنما نسبها إلى إرادة الله وإذنه ومشيئته .

(جـ) والمثال الثالث : معجزة الرسول - ﷺ - وهى تتمثل فى القرآن الكريم ، الذى يعد المعجزة الكبرى الخالدة للرسول - ﷺ - إلى جانب معجزاته الكثيرة - ﷺ -

وكانت معجزته الكبرى - ﷺ - القرآن ، لأنه بعث - ﷺ - فى عصر كانت البلاغة والفصاحة هى الميزة العظمى له ، فجاء القرآن الكريم على لسان الرسول - ﷺ - لكى يتحداهم أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة واحدة من مثله .

قال - تعالى - : ﴿ **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ** (٣٤) ﴾[1] .

---

(١) سورة الطور الآية: ٣٤ .

وقال - سبحانه - ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾[1] .

وقال - عز وجل - : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) ﴾[2] .

وقال - تعالى - : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾[3] .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد تحدث المشركين أن يأتوا بمثل القرآن الكريم فعجزوا ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور من القرآن فما استطاعوا .

ثم تحداهم فى النهاية أن يأتوا بسورة واحدة - ولو أصغر سورة - من مثل القرآن الكريم ، فخابوا وانقلبوا خاسرين .

فثبت أن هذا القرآن من عند الله ؛ وأنه المعجزة العظمى للنبى - ﷺ - ، وأنه أكبر شاهد على صدقه - ﷺ - ، لأنه - ﷺ - تحداهم - وهم سادة البلاغة والفصاحة والبيان - أن يأتوا ولو بسورة واحدة من مثل القرآن الكريم فلم يقدروا .

قال صاحب الكشاف : وفى هذه الآية الكريمة معجزة من نوع الإخبار بالغيب ، إذ لم تقع المعارضة من أحد فى أيام النبوة وفيما بعدها .

فإن قلت : من أين لك أنه إخبار بالغيب على ماهو عليه حتى يكون معجزة ؟

قلت : لأنهم لو عارضوه بشىء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه ، إذ خفاء

(١) سورة الإسراء الآية: ٨٨ .
(٢) سورة هود الآية : ١٣ .
(٣) سورة البقرة الآية : ٢٣ ، ٢٤ .

مثله فيما عليه مبنى العادة محال ، لاسيما والطاعنون فيه أكثف عددا من الذابين عنه ، فحين لم ينقل علُم أنه إخبار بالغيب على ما هو به ، فكان معجزة»[1] .

وقال الإمام ابن كثير : «بعث الله كل نبى بمعجزة تناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى السحر ، وتعظيم السحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار ، وحيرت كل سحار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام .

وأما عيسى فبعث فى زمان الأطباء ، وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بمالا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدا من الذى شرع الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمه والابرص

وكذلك محمد - ﷺ - بعث فى زمن الفصحاء والبلغاء ، وتجاويد الشعراء ، فأتاهم بكتاب من الله ، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله ما استطاعوا أبدا ، وما ذاك إلا أن كلام الرب لا يشبه كلام الخلق[2] .

(١) **تفسير الكشاف** : جـ ١ ص ١٠٢ .
(٢) **تفسير ابن كثير** : جـ ١ ص ٣٦٥ .

٦ - عصمتهم

الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كما يقول الإمام الشهرستانى فى كتابه «نهاية الإقدام» هم خيرة الله فى خلقه، وحجته على عباده والوسائل إليه، وأبواب رحمته، وأسباب نعمته، وكما يصطفيهم من الخلق قولا بالرسالة والنبوة، يصطفيهم من الخلق فعلا بكمال الفطرة، ونقاء الجوهر، وصفاء العنصر، وطيب الأخلاق، وكرم الأعراق.

وعندما نقرأ القرآن الكريم نرى بوضوح أن الله - تعالى - قد مدح أنبياءه بأسمى ألوان المدح، وأثنى عليهم بأعظم الصفات، وأسنى المناقب، فبين أنه قد اصطفاهم واختارهم من بين عباده، ونزههم عن السيئات، وعصمهم من المعاصى كبيرها وصغيرها، وكملهم بالأخلاق العظيمة من الصدق والأمانة والتفانى فى الحق، وأعطاهم من العلم مالم يعط سواهم، وهيأهم - سبحانه - على أنهم لا يتركون واجبًا، ولا يفعلون محرما، ولا يقترفون ما يتنافى مع الخلق الكريم.

ومن الآيات القرآنية التى مدحت الرسل الكرام بما هم أهله قوله تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) ﴾[١].

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦١) ﴾[٢].

أى : وما صح وما استقام لنبى من الأنبياء أن يخون فى المغنم أو غيره، لأن الخيانة تتنافى مع مقام النبوة التى هى هبة من الله - تعالى - يهبها لمن يشاء من عباده.

(١) سورة آل عمران الآية: ٣٣، ٣٤.
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٦١.

وقوله - عز وجل - : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) ﴾[1] .

وهم وإن كانوا أفضل الخلق ، إلا أنهم فيما بينهم يتفاوتون فى الفضل ، كما قال - سبحانه : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾[2] .

والمحققون من المفسرين على أن المقصود بمن رفع الله - تعالى - درجته هو خاتم وإمامهم سيدنا رسول الله - ﷺ - .

كما أن الراجح بين العلماء أن أصحاب العزم منهم هم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - صلوات الله عليهم جميعًا - .

وهكذا نجد الآيات المتعددة الواردة فى شأن الرسل الكرام ، تضفى عليهم من النزاهة والطهارة والكمال الخلقى ، والسمو العقلى ، ما يجعلهم المثل الأعلى فى كل ما يتعلق بالكمال للبشرى .

لذا قرر علماء المسلمين أن العصمة واجبة لرسل الله جميعًا ، بمعنى أنه يستحيل أن تصدر عن أحدهم رذيلة من الرذائل ، أو فاحشة من الفواحش لا قبل البعثة ولا بعدها ، أما بعد البعثة فظاهر ، وأما قبلها فلأن صدور كبيرة عنهم كالقتل أو الزنا أو السرقة ، يؤدى إلى تحقيرهم فى أعين قومهم ، وإلى عدم الالتفات إلى دعوتهم ، لذا قال العلماء : إن الأنبياء معصومون عن الذنوب الكبائر قبل البعثة وبعدها .

وقالوا - أيضًا - بأنهم معصومون من أن يصدر عن أحدهم شيئًا - ولو صغيرا - يتنافى مع مكارم الأخلاق ، ومع المروءة والشرف .

وهذا لا يمنع من أن تقع منهم اجتهادات فى أمر من الأمور ، تخالف ماهو الأولى والأفضل ، فيرشدهم - سبحانه - إلى ماهو أولى وأفضل فيرجعون عن اجتهاداتهم إلى ما أرشدهم الله - تعالى - إليه .

(١) سورة مريم الآية : ٥٨ .
(٢) سورة البقرة الآية : ٢٥٣ .

ومن المتفق عليه بين العقلاء أن هذه الاجتهادات ، لا تتصل بأمور اعتقادية أو خلقية ، وإنما تتصل بأمور تتفاوت فيها الأنظار فى العادة ، كشئون الحرب ، وسياسات الأمم ، وغير ذلك من الأمور التى تقبل الاجتهاد .

هذا ، والذى يقرأ ما كتبه بعض المفسرين أو غيرهم عند تعرضهم للحديث عن الآيات القرآنية التى تتعلق ببعض الأنبياء ، يرى كلاما يجانب الصواب ، ويتنافى مع ما أكرم الله - تعالى - به أنبياءه من كمال فى العقيدة ، وفى الخلق العظيم ، وفى العفاف الذى فى أسمى الدرجات ، وأعلى المقامات ، وسنكتفى هنا بإيراد بعض الأمثلة ، بالنسبة لبعض الأنبياء .

(ا) بالنسبة لآدم - عليه السلام - جاء قوله - تعالى - : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾[1] ظن بعضهم أو توهم أن معصية آدم كمعصية إبليس لربه عندما خالف أمره وأبى أن يسجد لآدم .

وهذا الظن أو الوهم غير سليم ، لأن معصية إبليس لخالقه كانت عن تعمد وإصرار ، أما معصية آدم فكانت عن نسيان لعهد الله - تعالى - ولم تكن عن إرادة وقصد ، والله - تعالى - بفضله وإحسانه لا يؤخذ عباده على الخطأ غير المقصود أو على النسيان ، متى تبع ذلك التوبة الصادقة ، والندم الحقيقى .

وقد قبل الله - تعالى - توبة آدم بدليل قوله - تعالى - بعد هذه الآية مباشرة : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾ أى : ثم بعد أن أكل آدم من الشجرة ، وندم هو وزوجه ، اصطفاه ربه واختاره وقبل توبته وهداه إلى الثبات عليها ، وإلى المداومة على طاعته وأرشده إلى كلمات يقولها لتكون من أسباب قبول توبته ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾[2]

وإنما اعتبر القرآن ذلك النسيان من آدم عصيانا ، نظرا لمقام آدم الذى أوجده الله -

(١) سورة طه الآية: ١٢١ .
(٢) سورة الأعراف الآية: ٢٣ .

تعالى - ليكون خليفته فى الآرض ، ونفخ فيه من روحه ، وأعطاه علما واسعا فضله بسبب هذا العلم الواسع على الملائكة المقربين ، وأسكنه جنته ، فعصيان آدم نسيانا منه لعهد ربه من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

بالنسبة لنوح - عليه السلام - جاء قوله - تعالى - : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾[١] .

وقد كان هذا النداء من نوح لربه - عز وجل - بعد أن شاهد نوح ابنه كنعان وقد غرق مع المغرقين :

فأخذ يناجى نوح ربه فى استعطاف لشدة تأسفه على ابنه ويقول يارب إن ابنى قطعة منى ، فأسألك أن ترحمه برحمتك ، وإنك ياربى قد وعدتنى بنجاة أهلى إلا من سبق عليه القول منهم ، لكنى فى هذا الموقف العصيب أطمع فى عفوك عن ابنى وفى رحمتك له .

واكتفى نوح - عليه السلام - بهذه المناجاة دون زن يصرح بمطلوبه وهو نجاة ابنه من العذاب ، تأدبا مع الله - تعالى - وحياء منه ، واعتقادا منه بأنه - سبحانه - عليم بمطلوبه وخبير بما يجول فى نفسه .

وهذا لون من الأدب السامى الذى سلكه الأنبياء - عليهم السلام - مع خالقهم عند مخاطبتهم له - سبحانه - ومن أولى منهم بذلك .

وقد رد - سبحانه - على نوح بقوله : «يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح» .

أى : قال الله - تعالى - مجيبا لنوح - عليه السلام - فيما سأله إياه : يانوح إن ابنك هذا ، ليس من أهلك ، لأن مدار الأهلية مبنى على القرابة الدينية ، وقد انقطعت بالكفر ، فلا علاقة بين مسلم وكافر .

أو المعنى : ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم ، بل هو ممن سبق عليه بسبب كفره .

---

(١) سورة هود الآية: ٤٥ ، ٤٦ .

فالمقصود نفى أن يكون من أهل دينه واعتقاده ، وليس المقصود نفى أن يكون من مائه وصلبه ، ومن قال بغير ذلك فقوله ساقط ولا يلتفت إليه .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : «وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب فى تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه ، وإنما كان ابن زانية .

وقال ابن عباس وغير واحد من السلف : مازنت امرأة نبى قط . ثم قال : وقوله - تعالى - : «إنه ليس من أهلك» أى : الذين وعدتك بنجاتهم .

وقول ابن عباس فى هذا هو الحق الذى لا محيد عنه ، فإنه الله - تعالى أغير من أن يمكن امرأة نبى من الفاحشة»[1] .

وبذلك يتبين بوضوح أن نسبة الزنا إلى امرأة نبى هو قول ساقط ، لا يصدر عن مسلم سليم العقيدة ، كريم الأخلاق .

(جـ) بالنسبة لإبراهيم - عليه السلام - جاء قوله - تعالى - حكاية عن إبراهيم بعد أن حطم أصنامهم فى غيبتهم وسألوه : ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) ﴾[2] .

وإبراهيم - عليه السلام - لم يقصد بقوله هذا الإخبار بأن كبير الأصنام هو الذى حطمها ، أو سؤالهم للأصنام عمن حطمها : وإنما الذى يقصده هو الاستهزاء بهم ، والسخرية بأفكارهم ، فكأنه يقول لهم : إن هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله ، لا تدرى إن كنت أنا الذى حطمتها أم هذا الصنم الكبير ، وأنتم تعرفون أنى قد بقيت قريبًا منها بعد أن وليتم عنها مدبرين ، وإذا كان الأمر كذلك فانظروا من الذى حطمها إن كانت لكم عقول تعقل ؟

قال صاحب الكشاف : هذا - أى : قول إبراهيم لهم : فعله كبيرهم هذا - من معاريض الكلام ، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الخاصة من علماء المعانى ، والقول فيه أن قصد إبراهيم - عليه السلام - لم يكن إلى أن ينسب الفعل

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٤ ص ٢٥٩ .
(٢) سورة الأنبياء الآية: ٦٢ ، ٦٣ .

الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه ، وإثباته لها على أسلوب تعريضى ، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك ، وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط - أ أنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أمى لا يحسن الخط ، ولا يقدر على خربشة فاسدة - أى : كتابة رديئة - فقلت له : بل كتبته أنت ، كان قصدك بهذا الجواب ، تقرير أن هذه لك مع الاستهزاء[1] .

وهذا التفسير للآية الكريمة من أن إبراهيم - عليه السلام - قد قال لقومه ما قال على سبيل الاستهزاء بهم ، هو الذى تطمئن إليه قلوبنا .

أما القول بأنه إبراهيم - عليه السلام - قد ارتكب رذيلة الكذب فهو ساقط ولا يلتفت إليه ، لأن من الصفات الواجبة فى حق الرسل - عليهم السلام - الصدق .

كذلك جاء فى دعاء إبراهيم - عليه السلام - كما حكاه القرآن الكريم : «والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين» ونحن لا نعرف أن لإبراهيم خطيئة ، وإنما الذى نعرفه أن الله - تعالى - قد اخذه خليلا ، ومدحه مدحا عظيما ، فما هى الخطيئة التى سأل الله - تعالى - أن يغفرها له ؟

والجواب : أن إبراهيم ليست له خطيئة بالمعنى الشرعى أو اللغوى للخطيئة كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان ، وإنما دعاؤه هذا من باب التواضع وهضم النفس والشعور بأنه مهما قدم من عبادات وطاعات لخالقه ، فهو مقصر بالنسبة للنعم الجليلة التى أفاء بها عليها - عز وجل - وياله من أدب فى أعلى درجات السمو يسوقه القرآن على لسان أبى الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - وهو يخاطب خالقه - عز وجل - .

(د) بالنسبة ليوسف - عليه السلام - جاء قوله - تعالى - :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾[2] .

(١) تفسير الكشاف : جـ ٣ ص ١٢٤ .

(٢) سورة يوسف الآية : ٢٣ ، ٢٤ .

وهاتان الآيتان جاءتا بعد حديث مفصل عما جرى ليوسف من إخوته وعن بيعه فى الأسواق بثمن بخس دراهم معدودة ، وعن استقراره فى بيت امرأة عزيز مصر الذى قال لزوجته «أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا» .

ولكن امرأة العزيز افتتنت به ، وعرضت نفسها عليه بطريقة فيها ما فيها من الترغيب والترهيب والإغراء والتهديد ، إلا أنه – عليه السلام – استعصم وقال معاذ الله .

وقوله – سبحانه – ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ** .... ﴾ رجوع إلى شرح ما جرى ليوسف فى منزل العزيز بعد أن أمر امرأته بإكرام مثواه ، وما كان من حال تلك المرأة مع يوسف ، وكيف أنها نظرت إليه بعين ، تخالف العين التى نظر بها إليه زوجها .

والتعبير عن حالها معه بالمراودة المقتضية لتكرار المحاولة ، للإشعار بأنها كان منها الطلب المستمر ، المصحوب بالإغراء والترفق والتحايل على ما تشتهيه منه بشتى الوسائل والحيل ، وكان منه – عليه السلام – الإباء والامتناع عما تريده خوفا من الله – تعالى .

وقال – سبحانه – ﴿ **الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا** ﴾ دون ذكر لاسمها ؛ ستراها ، وابتعادا عن التشهير بها ، وهذا من الأدب السامى الذى التزمه القرآن فى تعبيراته وأساليبه ، حتى يتأسى أتباعه بهذا اللون من الأدب فى التعبير .

والمراد ببيتها : بيت سكناها ، والإخبار عن المراودة بأنه كانت فى بيتها . أدعى لإظهار كمال نزاهته – عليه السلام – فإن كونه فى بيتها يغرى بالاستجابة لها ، ومع ذلك فقد أعرض عنها ، ولم يطاوعها فى مرادها .

وقوله ﴿ **وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ** ﴾ أى : أبواب بيت سكناها الذى تبيت فيه بابًا فبابًا .

والمراد أنها أغلقت جميع الأبواب الموصلة إلى المكان الذى راودته فيه إغلاقا شديدا محكما ، كما يشعر بذلك التضعيف فى «غلقت» زيادة فى حمله على الاستجابة لها .

ثم أضافت إلى تلك المغريات أنها قالت له : هيت لك ، أى : هأنذا مهيئة لك فأسرع فى الإقبال على .

وهذه الدعوة السافرة منها له ، تدل على أن تلك المرأة كانت قد بلغت النهاية فى الكشف عن رغبتها ، وأنها قد خرجت من المألوف من بنات جنسها ، فقد جرت العادة أن تكون المرأة مطلوبة لا طالبة .

وقوله - سبحانه - ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ بيان لما ردَّ به يوسف عليها ، بعد أن تجاوزت فى إثارته كل حد .

أى : قال يوسف فى الرد عليها : أعوذ بالله معاذا مما تطلبينه منى ، وأعتصم اعتصاما مما تحاولينه معى ، فإن ما تطلبينه وتلحين فى طلبه يتنافى مع الدين والمروءة والشهامة . ولا يفعله إلا من خبث منبته ، وساء طبعه ، وأظلم قلبه .

وقوله ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ تعليل لنفوره مما دعته إليه ، واستعاذ بالله منه .

والضمير فى «إنه» يصح أن يعود إلى الله - تعالى - فيكون لفظ ربى بمعنى خالقى .

والتقدير : قال يوسف فى الرد عليها : معاذ الله أن أفعل الفحشاء والمنكر ، بعد أن أكرمنى الله - تعالى - بما أكرمنى به من النجاة من الجب ومن تهيئة الأسباب التى جعلتنى أعيش معززا مكرما ، وإذا كان - سبحانه - قد حبانى كل هذه النعم فكيف أرتكب ما يغضبه ؟

وجوز بعضهم عودة الضمير فى «إنه» إلى زوجها ، فيكون لفظ ربى بمعنى سيدى ومالكى ، والتقدير : معاذ الله أن أقابل من اشترانى بماله ، وأحسن منزلى ، وأمرك بإكرامى بالخيانة له فى عرضه .

وفى هذه الجملة الكريمة تذكير لها بألطف أسلوب بحقوق الله - تعالى - وبحقوق زوجها وتنبيه لها إلى وجوب الإقلاع عما تريده منه من مواقعتها ، لأنه يؤدى إلى غضب الله وغضب زوجها عليها .

وجمله «إنه لا يفلح الظالمون» تعليل آخر لصدها عما تريده منه .

والفلاح : الظفر وإدراك المأمول .

أى : إن كل من ارتكب ما نهى الله - تعالى - عنه ، تكون عاقبته الخيبة والخسران وعدم الفلاح فى الدنيا والآخرة فكيف تريدين منى أن أكون كذلك ؟

هذا ، والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يرى أن القرآن الكريم ، قد قابل دواعى الغواية الثلاث التى جاهرت بها امرأة العزيز والمتمثلة فى المراودة ، وتغليق الأبواب ، وقولها ، هيت لك : بدواعى العفاف الثلاث التى رد بها عليها يوسف ، والمتمثلة فى قوله - كما حكى القرآن عنه - «معاذ الله ، إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون» .

وذلك ليثبت أن الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة ، كان سلاح يوسف - عليه السلام - فى تلك المعركة العنيفة بين نداء العقل ونداء الشهوة .

ولكن نداء العقل ونداء الشهوة الجامحة لم ينته عند هذا الحد ، بل نرى القرآن الكريم يحكى لنا بعد ذلك صداما آخر بينهما فيقول : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾

وهذه الآية الكريمة من الآيات التى خلط المفسرون بين الأقوال الصحيحة والأقوال السقيمة .

وسنبين أولا الرأى الذى نختاره فى تفسيرها ، ثم نتبعه بعد ذلك بغيره فنقول : الهم : المقاربة من الفعل من غير دخول فيه ، تقول هممت على فعل هذا الشىء : إذا أقبلت نفسك عليه دون أن تفعله .

وقال : بعض العلماء : الهم نوعان : هَمّ ثابت معه عزم وعقد ورضا ، وهو مذموم مؤاخذ به صاحبه ، وهم بمعنى خاطر وحديث نفس ، من غير تصميم وهو غير مؤاخذ به صاحبه ، لأن خطور المناهى فى الصدور ، وتصورها فى الأذهان ، لا مؤاخذة بها مالم توجد فى الأعيان .

روى الشيخان وأهل السنن عن أبى هريرة ، عن النبى - ﷺ - أنه قال : «إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ، مالم تتكلم به ، أو تعمل به»[1] .

وقد أجمع العلماء على أن هم امرأة العزيز بيوسف كان هما بمعصية ، وكان مقرونا بالعزم والجزم والقصد بدليل المراودة وتغليق الأبواب ، وقولها «هيت لك» .

كما أجمعوا على أن يوسف - عليه السلام - لم يأت بفاحشة ، وأن همه كان مجرد خاطرة قلب بمقتضى الطبيعة البشرية : من غير جزم وعزم .

وهذا اللون من الهم لا يدخل تحت التكليف ، ولا يخل بمقام النبوة ، كالصائم يرى الماء البارد فى اليوم الشديد الحرارة ، فتميل نفسه إليه ، ولكن دينه يمنعه من الشرب منه ، فلا يؤاخذ بهذا الميل .

والمراد ببرهان ربه هو : ما غرسه الله - تعالى - فى قلبه من العلم المصحوب بالعمل ، بأن هذا الفعل الذى دعته إليه امرأة العزيز قبيح ، ولا يليق به .

أو هو - كما يقول ابن جرير - رؤيته من آيات الله ما زجره عما كان هم به .

والمعنى : ولقد هممت به ، أى : ولقد قصدت امرأة العزيز مواقعة يوسف - عليه السلام - قصدًا جازما ، بعد أن أغرته بشتى الوسائل فلم يستجب لها .

«وهم بها لولا أن أرى برهان ربه» أى : ومال إلى مطاوعتها بمقتضى طبيعته البشرية وبمقتضى توفر كل الدواعى لهذا الميل .

ولكن مشاهدته للأدلة على شناعة المعصية ، وخوفه لمقام ربه ، وعون الله - تعالى - له على مقاومة شهوته . . كل ذلك حال بينه وبين تنفيذ هذا الميل ، وصرفه عنه صرفا كليا ، وجعله يفر هاربًا طالبا النجاة مما تريده منه تلك المرأة .

هذا هو الرأى الذى نختاره فى هذه الآية الكريمة ، وقد استخلصناه من أقوال المفسرين القدامى والمحدثين .

فمن المفسرين القدامى الذين ذكروا هذا الرأى صاحب الكشاف ، فقد قال ما ملخصه :

(١) تفسير القاسمى : جـ ٩ ص ٣٥٢٨ .

وقوله - تعالى - «ولقد همت به» معناه : ولقد همت بمخالطته : «وهم بها» أى : وهم بمخالطتها «لولا أن أرى برهان ربه» جوابه محذوف تقديره لولا أن أرى برهان ربه لخالطها ، فحذف لأن قوله وهم بها يدل عليه كقولك هممت بقتله لولا أنى خفت الله . معناه : لولا أنى خفت الله لقتلته .

فإن قلت : كيف جاز على نبى الله أن يكون منه هم بالمعصية ؟

قلت : المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ، ونازعت إليها عن شهوة الشباب ، ميلا يشبه الهم به ، وكما تقتضيه تلك الحال التى تكاد تذهب بالعقول والعزائم ، وهو يكسر ما به ، ويرده بالنظر فى برهان الله المأخوذ على المكلفين بوجوب اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هما لشدته ، لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع ، لأن استعظام الصبر على الإبتلاء ، على حسب عظم الإبتلاء وشدته ، ولو كان همه كهمها عن عزيمة لما مدحه بأنه من عبادة المخلصين »[1] .

ومن المفسرين المحدثين الذين ذكروا هذا الرأى الإمام الألوسى ، فقد قال ما ملخصه :

قوله : «ولقد همت به» أى : بمخالطته .. والمعنى : أنها قصدت المخالطة وعزمت عليها عزمًا جازمًا ، لا يلويها عنها صارف بعدما باشرت مباديها ..

والتأكيد - باللام وقد- لدفع ما يتوهم من احتمال إقلاعها عما كانت عليه .

«وهم بها» أى : مال إلى مخالطتها بمقتضى الطبيعه البشرية .. ومثل ذلك لا يكاد يدخل تحت التكليف ، وليس المراد أنه قصدها قصدا اختياريا ، لأن ذلك أمر مذموم تنادى الآيات بعدم اتصافه به ، وإنما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه فى صحبه همها فى الذكر على سبيل المشاكلة لا لشبهة به .

«لولا أن رأى برهان ربه» أى محبته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا وسوء سبيله .

والمراد برؤيته له : كمال إيقانه به ، ومشاهدته له مشاهدة وصلت إلى مرتبة عين اليقين»[2] .

ومن المفسرين من يرى أن المراد بهمها به : الهم بضربه نتيجة عصيانه لأمرها .

---

(١) **تفسير الكشاف**: جـ ٢ ص ٣١١ .

(٢) **تفسير الألوسى** : جـ ١٢ ص ١٩١ .

وأن المراد بهمه بها : الدفاع عن نفسه برد الاعتداء ، ولكنه آثر الهرب .

وقد قرر هذا الرأى ودافع عنه وأنكر سواه صاحب المنار ، فقد قال ما ملخصه :

«ولقد همت به» أى : وتالله لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه لأمرها ، وهو فى نظرها سيدته وهو عبدها ، وقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها ، بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه .. فخرجت بذلك عن طبع أنوثتها فى التمنع .. مما جعلها تحاول البطش به بعد أن أذل كرامتها ، وهو انتقام معهود من مثلها ، وممن دونها فى كل زمان ومكان .

وكان يرد صيالها ويدفعه بمثله ، وهو قوله - تعالى - «وهم بها لولا أن رأى برهان ربه» ولكنه رأى من برهان ربه فى سريرة نفسه ، ما هو مصداق قوله - تعالى - «والله غالب على أمره» وهو إما النبوة .. وإما معجزتها .. وإما مقدمتها من مقام الصديقية العليا ، وهى مراقبته لله - تعالى - ورؤيته ربه متجليا له ، ناظرا إليه»[1]

ولعل صاحب المنار - رحمه الله - أراد بهذا التفسير أن يبعد يوسف - عليه السلام - عن أن يكون قد هم بها هم ميل بمقتضى الطبيعة البشرية ، ونحن لانرى مقتضيا لهذا الإبعاد ، لأن خطورة المناهى فى الأذهان ، لا مؤاخذة عليها ، مادامت لم يصاحبها عزم أو قصد - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك من قبل

هذا وهناك أقوال أخرى لبعض المفسرين فى معنى الآية الكريمة ، رأينا أن نضرب عنها صفحا ، لأنه لا دليل عليها من العقل ولا من النقل ولا من اللغة .. وإنما هى من الأوهام الإسرائيلية التى تتنافى كل التنافى مع أخلاق عباد الله المخلصين ، الذين على رأسهم يوسف عليه السلام .

وقوله - سبحانه - «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين» بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - به ، ورعايته له .

أى : ثبتناه تثبيتا مثل التثبيت لنعصمة ونحفظه ونصونه عن الوقوع فى السوء - أى فى المنكر والفجور والمكروه وفى - الفحشاء - أى وفى كل ما فحش وقبح من الأفعال كالزنا ونحوه .

---

(١) تفسير المنار : جـ ١٢ ص ٣٧٨ .



«إنه من عبادنا المخلصين» - بفتح اللام - أى : إنه من عبادنا الذين أخلصناهم لطاعتنا وعصمناهم من كل ما يغضبنا .

هذا ، ومن كل ما سيق يتبين لنا أن يوسف - عليه السلام - قد عصمه الله - تعالى - عن كل سوء وفحشاء بدليل شهاده الله - تعالى - له بأنه من عباده الذين أخلصهم لطاعته ، وبدليل اعتراف امرأة العزيز بأنها هى التى راودته عن نفسه ولكنه استعصم وقال معاذ الله ، وعندما سئلت قالت كما حكى القرآن عنها - : «الآن حصحص الحق» - أى : ظهر الحق ﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وبدليل أن النسوة اللاتى أرسلت إليهن وشاهدن يوسف وسئلن عنه قلن ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ وبدليل أن زوج تلك المرأة هو الذى قال لها ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾[1] .

وبالنسبة لدواد عليه السلام - جاء قوله - تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾[2] .

---

(١) **راجع التفسير الوسيط** : للقرآن الكريم جـ ٧ ص ٣٣٧ طبعة دار المعارف .
(٢) **سورة «ص» الآيات** : ٢١ - ٢٥ .

وهذه الآيات الكريمة ذكر بعض المفسرين فى تفسيرها أقوالا لا دليل عليها لا من النقل ولا من العقل ، وسنذكر - بعون الله - التفسير الذى نراه صحيحا فنقول :

الاستفهام فى قوله - تعالى - : «وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب» للتعجب والتشويق .

أى : وهل وصل إلى علمك - أيها الرسول الكريم - ذلك النبأ العجيب ، ألا وهو خبر أولئك الخصوم الذين تسلقوا على داود غرفته ، وقت أن كان معتكفا فيها لعبادة ربه ، دون إذن منه ، ودون علم بقدومهم ، إن كان هذا الخبر لم يصل إلى علمك فها نحن نقصه عليك .

لقد دخل هؤلاء الخصوم على داود فخاف منهم ، لأنهم أتوه من غير الطريق المعتاد للإتيان وهو الباب ، وأتوه فى غير الوقت الذى حدده للقاء الناس وللحكم بينهم ، وإنما أتوه فى وقت عبادته فلما شاهد الخصوم على ذاود علامات الفزع قالوا له لا تخف : نحن خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحكم العادل ، وأرشدنا إلى الطريق الحق .

ثم أخذا فى شرح قضيتهما فقال أحدهما : إن هذا الذى يجلس معى للتحاكم أمامك أخى ، وهذا الأخ له تسع وتسعون نعجة ، أما أنا فليس لى سوى نعجة واحدة ، فطمع هذا الأخ فى نعجتى وقال لى اعطنى إياها ، وغلبنى فى مخاطبته لى ، لأنه أقوى منى .

وأمام هذه القضية الواضحة المعالم ، وأمام سكوت الأخ المدعى عليه أمام أخيه المدعى ، وأمام عدم اعتراضه على قول صاحب النعجة الواحدة . أمام كل ذلك ما كان من داود - عليه السلام - إلا أن قال لهذا الأخ المظلوم صاحب النعجة الواحدة : إن أخاك صاحب النعاج الكثيرة قد ظلمك بسبب طلبه منك أن تتنازل له عن نعجتك لكى يضمها إلى نعاجه الكثيرة .

ثم أراد داود - عليه السلام - أن يخفف من وقع ما قاله هذا الأخ المظلوم ظلما واضحا فقال : «وإن كثيرا من الخلطاء» أى الشركاء ليعتدى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم قلة فإنهم لا يعتدى بعضهم على بعض .

ثم بين - سبحانه - ما حاك فى نفس داود بعد أن دخل عليه الخصمان ، وحكم بينهما بالحكم السابق فقال : «وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب . . »

أى : وظن داود أن دخول الخصمين عليه بهذه الطريقة ، إنما لأجل الاعتداء عليه ، وأن ذلك لون من ابتلاء الله - تعالى - له ؛ وامتحانه لقوة إيمانه ، ولكن لما لم يتحقق هذا الظن ، وإنما الذى تحقق هو القضاء بينهما بالعدل ، استغفر ربه من ذلك الظن ، وسجد لخالقه وأناب إليه ، فغفر الله - تعالى - له ذلك الظن الذى لم يكن فى محله ، ووعده بالثواب الجزيل ، وبالمكانة السامية ، وبالدرجة العالية .

ومما تقدم يتبين لنا بوضوح أن كل ما كان من داود - عليه السلام - أنه ظن أن الخصمين قد تسلقا عليه داره لكى يعتديا عليه ، فلما تبين له خطأ هذا الظن وأنهما جاءا ليقضى بينهما ، استغفر ربه من هذا الظن فغفر الله - تعالى - له .

ويمكن أن يقال : إن ظن داود بأن الله - تعالى - قد ابتلاه وامتحنه عن طريق هذين الخصمين ، إنما كان بسبب أنه قد قضى بينهما بعد أن سمع حجة أحدهما ، وقبل أن يسمع حجة الآخر ، فاستغفر ربه من هذا العمل ، فغفر الله - تعالى - له .

أما ما ذكره بعض المفسرين من أن المقصود بالنعجة هنا المرأة ، وأن داود قد اغتصب زوجة أحد قواده بحيلة احتالها عليه ، فهو من الإسرائيليات المكذوبة ، ومن الخرافات التى تتنافى مع ما أعطاه الله - تعالى - لنبيه داود - عليه السلام - من صدق فى الإيمان ، ومن سمو فى الأخلاق ، ومن كثرة فى العبادة والطاعة ، ومن عصمة تجعله بعيدا كل البعد عن جميع ما يتنافى مع المروءة والشرف .

(و) وبالنسبة لسليمان - عليه السلام - جاء قوله - تعالى - : ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥)** ﴾[1] .

قال الآلوسى : «وأظهر ما قيل فى فتنة سليمان - عليه السلام - أنه قال :

(١) سورة ص الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .

لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة وجاءت بشق رجل .

وقد روى ذلك الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة مرفوعا وفيه فو الذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرسانا .

والمراد بالجسد ذلك الشق الذى ولدته إحدى نسائه ، ومعنى إلقائه على كرسيه : وضع القابلة عليه ليراه[1] .

وقد استنبط العلماء من هذا الحديث الصحيح أن فتنة سليمان ، هى تركه تعليق ما طلبه على مشيئة الله ، وأن عقابه على ذلك كان عدم تحقق ما طلبه ، فلما تاب وأناب ودعا الله بلسان صادقا أجاب الله دعاءه وأعطاه ملكا عظيما .

أما ما قيل من أن فتنته كانت بوجود شيطان على كرسية تمثل له فى صورة إنسان ، ثم أخذ سليمان خاتمه الذى كان يصرف به ملكه . . فهذا القول وما يشبهه من الأقوال الباطلة التى يأباها كل ذى عقل سليم لأنها تتنافى مع عصمة الأنبياء .

(ز) بالنسبة لإمامهم وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ جاء قوله - تعالى - : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)** ﴾[2] .

وقد فهم بعض الناس من قوله - تعالى - : «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» أن الرسول ﷺ كانت له ذنوب قبل البعثة وبعدها وقد غفرها الله - تعالى - له ، وهذا الفهم غير صحيح ، والفهم الصحيح هو أن الله - تعالى - قد عصم نبيه ﷺ قبل البعثة وبعدها من كل ما يخدش المروءة والشرف والعفاف والطهارة ، بدليل أنه كان يلقب فى قومه قبل بعثته بالصادق الأمين .

ولذا قال المحققون من العلماء أن المراد بالذنب فى هذه الآيات : ما كان خلاف الأولى من الأقوال والأفعال ، فهو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وأن

---

(١) **تفسير الألوسى** : جـ ٢٣ ص ١٩٨ .
(٢) **سورة الفتح الآية** : ١ - ٣ .

المراد بالغفران : الحيلولة بينه ﷺ وبين الذنوب كلها بمعنى أنه لايصدر منه ﷺ ذنب ، لأن غفران الذنوب معناه : سترها وتغطيتها وإزالتها .

ولقد كان ﷺ مع هذه المغفرة لذنبه ، أعبد الناس لربه ، فقد قام الليل حتى تورمت قدماه ، وعندما سئل لم كل هذا التعب يارسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ كان جوابه : إذا كان ذلك كذلك أفلا أكون عبدا شكورا .

وسيرته ﷺ منذ مولده وصباه وشبابه وكهولته خالية من كل مافيه عبث أو لهو من الأقوال أو الأفعال ، يدل على ذلك قوله ﷺ : ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يفعلونه سوى مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمنى الله برسالته ، قلت ليلة للغلام الذى كان يرعى معى بأعلى مكة ؛ لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة ، فأسمر بها كما يسمر الشباب ؟ فقال : فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس فلان بفلانة ، فجلست أسمع ، فضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا حر الشمس ، فعدت إلى صاحبى ، فسألنى فأخبرته . ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة . ثم ما هممت بسوء بعدها .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩)**﴾[1] .

فقوله - سبحانه - : «واستغفر لذنبك» فهم منه بعضهم أن للرسول ذنبا ، وأنه يجب عليه أن يستغفر الله - تعالى - منه .

والمعنى الذى نراه مقبولا للآية الكريمة هو : فاعلم - أيها الرسول الكريم - أنه لا إله يستحق العبادة سوى الله - تعالى - ، واثبت أنت وأصحابك على هذا العلم ، واعمل بمقتضاه ، واستمر على هذا العمل ، واستغفر الله من أن يقع منك ذنب ، واعتصم بحبله لكى يعصمك من كل ما لا يرضيه ، واستغفر - أيضا - للمؤمنين والمؤمنات ، بأن تدعو لهم بالرحمة والمغفرة ، والله - تعالى - وحده هو الذى يعلم كل حركة منكم سواء أكانت فى بر أم فى بحر أم فى غيرهما .

(١) سورة محمد الآية : ١٩ .

ولقد كان ﷺ كما جاء فى الحديث الصحيح يكثر من الدعاء بقوله : «اللهم اغفر لى خطئى وجهلى وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفر لى هزلى وجدى وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى ، اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت . .»

وكان ﷺ يقول - أيضا - كما جاء فى الحديث الصحيح : «أيها الناس ، توبوا إلى ربكم فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة »

ولا شك أن هذه الدعوات الخاشعات منه ﷺ تمثل أسمى ألوان الطاعة والعبادة لخالقه - عز وجل - ، كما أنها تعلم أمته وجوب القدوة به فى تقواه وخشوعه وتواضعه ومداومته على ذكر الله - تعالى - .

والخلاصة أنه ليس المقصود بالذنب هنا بالنسبة للرسول - ﷺ - ما تعارف عليه الناس من الأقوال السيئة أو الأعمال التى حرمها الله - تعالى وإنما المقصود به بالنسبة له ﷺ فعل ماهو خلاف الأولى فى أمور اجتهادية ، فقد كان ﷺ أحيانا يؤديه اجتهاده إلى ماهو حسن ، فيرشده الله - تعالى - إلى ماهو أحسن منه ، كما حدث فى غزوة بدر ، فقد أداه اجتهاده فى هذه المسألة التى لم ينزل عليه فيها وحى من الله - تعالى - إلى قبول الفداء من الأسرى المشركين الذين تم أسرهم فى هذه الغزوة ، فأرشده الله - تعالى - إلى ماهو أحسن من ذلك فى قوله - سبحانه - :
﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨)﴾[1] .

أى : لولا أن كتاب الله وحكمه سبق بعدم مؤاخذة المجتهد على اجتهاده لعاقبكم بالعذاب العظم ، لقبولكم الفدية من المشركين الذين أسرتموهم فى غزوة بدر ، ولعدم أخذهم بالشدة التى قد تصل إلى قتل بعضهم حتى يكونوا عبرة لغيرهم .

(١) سورة الأنفال الآية : ٦٧ ، ٦٨

وكما حدث - أيضا - عندما كان الرسول ﷺ جالسا مع بعض زعماء قريش يشرح لهم تعاليم الإسلام، ويدعوهم إلى الدخول فيه، وهم ينصتون إليه، ويقبلون عليه، وخلال ذلك حضر عبد الله بن أم مكتوم وأخذ يقاطع الرسول ﷺ ويقول له: علمنى يارسول الله ما علمك الله، ويكرر ذلك، إلا أن الرسول ﷺ انشغل عنه بهؤلاء الزعماء الذين طمع فى إسلامهم، فعاتب الله - تعالى - نبيه محمدا ﷺ عتابا رقيقا، ونزل قوله - تعالى -: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) ﴾[١]:

وبعد نزول هذه الآيات كان الرسول ﷺ عندما يلتقى بعبد الله ابن أم مكتوم، يقول له: «أهلا بمن عاتبنى فيه ربى».

ويدخل فى هذا الباب وهو العتاب الرقيق من الله - تعالى - لنبيه ﷺ - قوله - تعالى -: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) ﴾[٢]:

قال الإمام ابن كثير: قال مجاهد: نزلت هذه الآية فى أناس - من المنافقين - قالوا - عندما دعا الرسول إلى الخروج لغزوة تبوك -: استأذنوا رسول الله ﷺ أى فى عدم الخروج - فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم - أيضا فاقعدوا.

والعفو يطلق على التجاوز عن الذنب أو التقصير، كما يطلق - أيضاً - على ترك المؤاخذة على عدم فعل الأولى والأفضل، وهو المراد هنا.

والمعنى: عفا الله عنك يامحمد، وتجاوز فيما فعلته مع هؤلاء المنافقين من سماحك لهم بالتخلف عن الجهاد معك فى غزوة تبوك، حين اعتذروا إليك بالأعذار الكاذبة، وكان الأولى بك أن تتريث وتتأنى فى السماح لهم بالتخلف، حتى يتبين

---

(١) سورة عبس الآيات: ١ - ١٠. (٢) سورة التوبة الآية: ٤٣.

لك الذين صدقوا فى اعتذارهم من الذين كذبوا فيه ، فقد كانوا إلا قليلا منهم كاذبين فى معاذيرهم ، وكانوا مصرين على القعود عن الجهاد حتى ولو لم تأذن لهم .

قال بعض العلماء : هل سمعتم بعتاب أحسن من هذا ؟ لقد خاطبه - سبحانه بالعفو قبل أن يذكر المعفو عنه .

ولا شك أن ما فعله ﷺ مع هؤلاء المنافقين من الإذن لهم فى القعود وعدم الخروج معه إلى تبوك ، كان من باب الاجتهاد الذى قصد الرسول ﷺ من ورائه حماية المسلمين من شرورهم ، إلا أن الله تعالى أرشده إلى ماهو أولى وهو عدم الإذن لهم حتى يتبين له من هو صادق منهم فى عذره ومن هو كاذب .

كذلك كان من باب العتاب الرقيق من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - ، ما حدث منه ﷺ بالنسبة لزواجه من السيدة زينب بنت جحش ، بعد أن طلقها زوجها زيد ابن حارثة .

وملخص هذه القصة أن زيد بن حارثة قام بتربيته النبى ﷺ ، وكان يقال له زيد ابن محمد ، إلى أن نزل قوله - تعالى - : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ .

ثم بعد أن بلغ مبلغ الرجال تزوج بالسيدة زينب بنت جحش ، إلا أنه بعد الزواج منها حدث بينهما ما حدث من خلاف كان من أسبابه شعور زينب - وهى من أشراف قريش - أنها قد تزوجت بمن لا يضارعها فى المنزلة الاجتماعية ، وعندما شعر زيد بن حارثة بذلك صمم على طلاقها ، وكان النبى ﷺ كلما اشتكى زيد من زوجته زينب ، قال له : «أمسك عليك زوجك» واصبر عليها ، إلا أن زيدا كان مصمما على طلاقها .

فلما طلقها زيد وانقضت عدتها تزوجها النبى ﷺ ليبطل عادة كانت منتشرة فى الجاهلية وهى أن الرجل لايجوز له أن يتزوج بزوجة ابنه بالتبنى وقد أخبر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن زيدا سيطلق زينب ، وأنه ﷺ سيقوم بالزواج بها بعد ذلك ، لكى يكون إبطال هذه العادة القبيحة تشريعا من الله - تعالى - والذى يتولى تنفيذ ذلك هو النبى ﷺ بنفسه .

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى هذه القصة بأسلوبه الواضح البليغ فيقول :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) ﴾[1] .

والمعنى بإيجاز ووضوح : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن قلت للذى أنعم الله عليه بنعمة الإسلام ، وأنعمت عليه بنعمة العتق والإكرام وهو زيد بن حارثة - رضى الله عنه - ، وقت أن قلت له أكثر من مرة : «أمسك عليك زوجك واتق الله» أى : أمسك عليك زوجك زينب بنت جحش فلا تطلقها ، واتق الله فى أمرها ، واصبر على ما بدر منها فى حقك .

وقوله - تعالى - : «وتخفى فى نفسك ما الله مبديه» أى : تقول لزيد أمسك عليك زوجك ، وتخفى فى نفسك الشىء الذى أظهره الله - تعالى - لك ، وهو إلهامك أن زيدا سيطلق زينب وأنت الذى ستتزوجها بأمر الله - تعالى - لكى تبطل تلك العادة المتأصلة فى نفوس الناس وهى أن الرجل لا يجوز له أن يتزوج بامرأة ابنه بالتبنى .

أو المعنى : تقول زيد أمسك عليك زوجك ، وتخفى فى نفسك أن زيدا لن يستطيع الصبر على معاشرة زوجته زينب لوجود التنافر الشديد بينهما ؛ مع أن الله - تعالى - قد أظهر لك ذلك عن طريق كثرة شكوى زيد منها ، وإعلانه أنه حريص على طلاقها ، ومعرفة كثير من الناس بهذه الحقيقة .

وقوله - سبحانه - : «وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه» معطوف على ما قبله ومؤكد لمضمونه .

أى : تقول لزيد ماقلت ، وتخفى فى نفسك ما أظهره الله ، وتخشى أن تواجه الناس بما ألهمك الله به من أمر زيد وزينب ، مع أن الله - تعالى - أحق بالخشية من كل من سواه .

(١) سورة الأحزاب الآية: ٣٧ ، ٣٨ .

فالجملة الكريمة عتاب رقيق من الله - تعالى - لنبيه ﷺ وإرشاد له إلى أفضل الطرق ، وأحكم السبل ، لمجابهة أمثال هذه الأمور ، دون التفات إلى التقاليد السائدة التى أراد - سبحانه - أن يبطلها عن طريقه ﷺ .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من زواجه ﷺ بزينب فقال : «فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا» .

أى : فلما قضى زيد منها حاجته من زينب وطلقها ، وانقضت عدتها ، زوجناك إياها ، لكى لا يكون على المؤمنين أى حرج أو مشقة فى الزواج من أزواج أولادهم بالتبنى إذا ما طلق هؤلاء الأولاد زوجاتهم وانقضت عدتهن ، وما يريده الله فلابد من أن يتم .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى بقوله بعد ذلك «ما كان على النبى من حرج» أو لوم أو مؤاخذة فى فعل ما أحله الله - تعالى - له ، وقدره عليه ، فتلك سنة الله فى الأمم الماضية ، وكان أمر الله - تعالى - واقعا لا محالة

وبهذا يتبين لكل عاقل بوضوح التفسير الصحيح للآية الكريمة ، وأن ما قاله بعضهم من أن زينب قد وقع حبها فى قلبه ﷺ وأنه عندما رآها قال : سبحان مقلب القلوب ، إلى آخر ما قيل ، كل ذلك من الأقوال الساقطة التى هى محض اختلاق .

هذا ومن الشبهات التى تتنافى مع النقل والعقل ؛ تلك الفرية التى أشاعها من فى قلوبهم مرض ، وهى أن الرسول ﷺ قرأ قوله - تعالى - : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠)﴾[1]

ثم جاء على لسانه قوله : تلك الغرانيق - أى : الأصنام - العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى .

وأن هناك صلة بين هذا الكلام وبين قوله - تعالى - : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن

(١) سورة النجم الآية: ١٩ ، ٢٠ .

رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) ﴾[١] .

والحق الذى لا يحوم حوله باطل ، أن الرسول ﷺ لم يقل شيئًا من ذلك الكلام الساقط الذى نسب إليه ، وأن الآية الكريمة التى بسورة الحج لا صلة لها إطلاقا بهذا الكلام الذى هو من باب الكذب الصريح ، وأن المعنى الصحيح للآية الكريمة هو كما يلى :

وما أرسلنا من قبلك يامحمد من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى هداية قومه إلى الدين ، ألقى الشيطان الوساوس والشبهات فى طريق أمنيته ، بأن يوهم الشيطان بأن ما جاءهم به هذا النبى ليس صحيحا وأن عليهم الابتعاد عنه . . إلا أن الله - تعالى - يزيل ما ألقاه الشيطان فى القلوب التى شاء الله - تعالى لها الإيمان والهداية ، ثم يحكم - سبحانه - آياته ومعجزاته التى أيد بها أنبياءه ، والله عليم بكل شىء ، حكيم فى أقواله وأفعاله[٢] .

هذا هو المعنى الواضح الصحيح للآية الكريمة ، وما قاله أعداء الرسلام افتراء واختلاق ، فإن الرسول ﷺ أجل وأعظم من أن يضيف إلى القرآن الكريم ماليس منه ، ويكفى قوله - تعالى - : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾[٣] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾[٤] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾[٥] :

---

(١) سورة الحج الآية : ٥٢ .

(٢) راجع تفسير هذه الآية الكريمة فى : التفسير الوسيط للقرآن الكريم جـ ٩ ص ٣٢٨ - طبعة دار المعارف . .

(٣) سورة الحاقة الآية : ٤٤ - ٤٧ .

(٤) سورة الحجر الآية : ٩ .

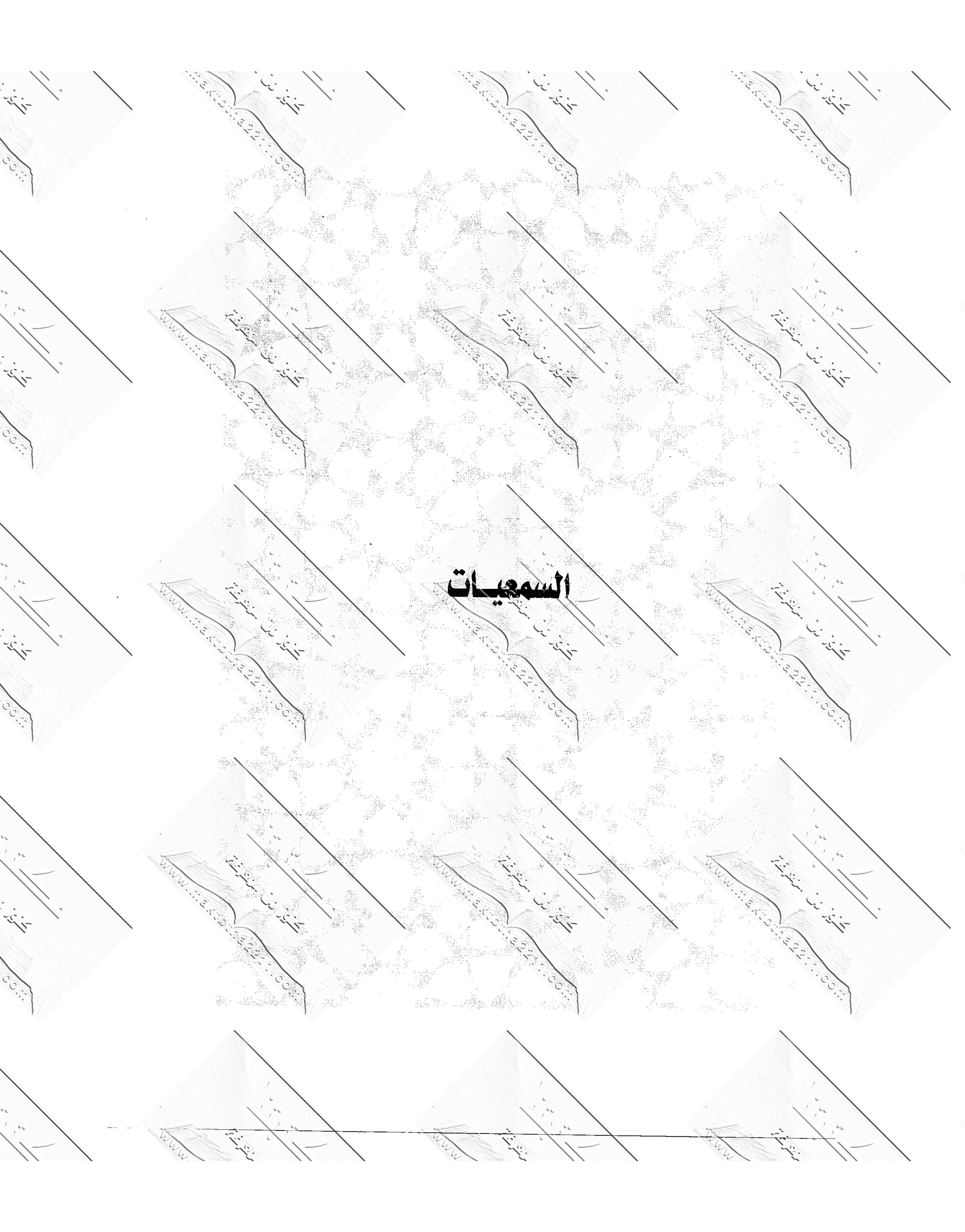
(٥) سورة فصلت الآية : ٤٢ .

ومن كل ما تقدم يتبين لنا أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام معصومون قبل النبوة وبعدها من أن يرتكبوا كبيرة ، أو أن يقعوا فى صغيرة تتنافى مع المروءة أو الشرف أو العفاف ، وقد يجتهدون فى أمور أباح الله - تعالى - الاجتهاد فيها ، فيصلون فى اجتهادهم إلى ماهو خلاف الأولى ، فيرشدهم الله - تعالى - إلى ماهو أولى ، أو يصلون فى اجتهادهم إلى ماهو حسن فيرشدهم الله - سبحانه - إلى ماهو أحسن وأفضل .

وفى جميع الأحوال هم صفوة خلقه ، وأمناء وحيه ، ومبلغو رسالاته ، هم جميعًا وظيفتهم إخراج الناس من ظلمات الشرك ووالكفر والفسوق والعصيان ، إلى نور الوحدانية والطهارة والاستقامة والإيمان .

هم جميعًا كانوا دائمًا دعاة الخير ، وأئمة الإصلاح ، وحملة المشاعل فى دنيا الناس .

هم الذين أتى كل واحد منهم ليتمم ما بناه من سبقه ، فيزيد فى الإصلاح لبنة ، حتى اكتمل البناء فى أجمل وأفضل وأحسن وأتم صورة بخاتمهم وإمامهم وأفضلهم محمد ﷺ ، فكان دينه خلاصة الأديان السابقة ، وصدق ﷺ عندما قال : «إنما مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة منها ، فكان من دخلها ونظر إليها قال : ما أحسنها هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم النبيين» .



السمعيات

ماذا نقصد بالسمعيات ؟

نقصد بالسمعيات الأمور التى ثبتت عن طريق القرآن الكريم ، أو عن طريق السنة النبوية الصحيحة ، والتى لا يستطيع العقل البشرى أن يستقل بإدراكها ، ككيفية الصراط ، والميزان ، والعرش ، والحساب يوم القيامة .

فالسمعيات أمور تتعلق بعوالم غيبية ، لا قدرة لحواسنا البشرية على معرفة كيفيتها ، ومعظمها يتعلق بأحداث اليوم الآخر ، وما فيه من مواقف ومشاهد .

ومما لاشك فيه أن ما غاب عن حواسنا من علوم فى هذه الدنيا ، أكثر مما علمناه منها ، بدليل قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[1] .

إن المعارف التى يدركها العقل - فى الأعم الأغلب - بعضها يعود إلى معارف أولية فطرية كالعلوم الرياضية وما يشبهها ، وبعضها يعود إلى معارف تجريبية تتعلق بالواقع المحسوس كالعلوم الطبية والهندسية والمعملية وما يشبهها .

أما المعارف السمعية فاعتمادها الأساسى على الأخبار الصحيحة المستمدة من كتاب الله - تعالى - ومن سنة رسوله ﷺ ، والعقل السليم يجب عليه أن يصدق ذلك ، لأن هذه الأخبار الصحيحة الصادقة ليس فيها ما يتعارض مع الفكر القويم ، والوجدان المستقيم ، والاعتقاد السليم .

فنحن نؤمن بوجود الله - تعالى - وبوحدانيته وبقدرته وبعلمه المحيط بكل شىء ، وبكل صفة من صفاته الجليلة ، نؤمن بكل ذلك إيمانًا أشد وأعظم من إيماننا بوجود أنفسنا ، كما نؤمن بأنه فوق كل جمال وجلال ، إلا أننا بعقولنا لا نستطيع أن نكيف

(١) سورة الإسراء الآية: ٨٥ .

وجوده وذاته ، لأنه - عز وجل - ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1] .

ونؤمن إيمانًا تتزلزل الجبال ولا يتزلزل ، بأنه - عز وجل - سيحاسب عباده على أعمالهم يوم القيامة حسابًا عادلا دقيقا ، إلا أننا لا نعرف كيفية هذا الحساب وكنهه .

والإيمان بالغيب وبتلك السمعيات دليل على قوة الايمان ، وسلامة الفطرة ، وقد مدح - سبحانه - الذين يؤمنون بالغيب مدحا عظيما ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) ﴾[2] .

ومعنى يؤمنون بالغيب : يصدقون بما غاب عن حواسهم ، كالخالق - عز وجل - وصفاته ، وكاليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وثواب وعقاب .

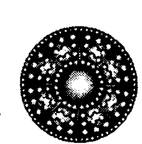
وهاك نماذج من السمعيات التى ثبتت عن طريق الكتاب والسنة النبوية الصحيحة .

(١) سورة الشورى الآية : ١١ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢ ، ٣ .

الملائكة

صفاتهم:



تكرر لفظ «الملائكة» فى القرآن الكريم فى أكثر من سبعين مرة ، كما تكرر لفظ «ملك» ثلاثة عشرة مرة[1] .

قال - تعالى - : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[2] .

وقال - سبحانه - : ﴿ **وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ** (٨) ﴾[3] .

وعالم الملائكة عالم غيبى غير محسوس ، بمعنى أن الملائكة ليس لهم وجود بدنى يدرك بالحواس ، إنما هم من عالم آخر غير منظور لنا ، ولا يعلم حقيقتهم وهيئتهم إلا الله - تعالى - .

ومن صفاتهم أنهم منزهون عن الشهوات وعن الآثام ، ويخالفون البشر فى أنهم لا يأكلون ولا يشربون ، ولا يتصفون بالذكورة ولا بالأنوثة ، وإنما هم عالم آخر ، قائم بذاته ، ومستقل بنفسه .

ومن صفاتهم كذلك أن الله - تعالى - أعطاهم القدرة على التشكل بالأشكال الحسنة ، يدل على ذلك أن جبريل - عليه السلام - قد جاء إلى السيدة مريم فى صورة بشر سوى .

---

(١) **راجع المعجم المفهرس:** لألفاظ القرآن الكريم ص ٦٧٤ للأستاذ المرحوم محمد فؤاد عبد الباقى .

(٢) **سورة فاطر الآية:** ١ .

(٣) **سورة الأنعام الآية:** ٨ .

قال - تعالى - : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) ﴾[1] .

أى : فتشبه لها فى صورة إنسان كامل الخلقة ، معتدل الهيئة ، ولو جاءها على الصورة التى خلقه الله عليها ، لنفرت منه ، ولم تستطع محادثته .

وحكى لنا القرآن فى موضع آخر ، أن الملائكة جاءوا لسيدنا إبراهيم فى صورة بشر لكى يبشروه بابنه اسحاق .

قال - تعالى - : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾[2] .

وقد ورد فى الحدث الصحيح أن جبريل - عليه السلام - كان أحيانًا ينزل على النبى ﷺ فى صورة إنسان ، كما فى الحديث الذى أخرجه البخارى وغيره عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذا طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، وقال يامحمد : أخبرنى عن الإسلام ...... الخ .

٢ - أين يسكنون ؟ ومن أية مادة خلقهم الله - تعالى - ؟

الواضح من تدبرنا للقرآن الكريم أن الملائكة مسكنهم السماء ، يشهد لذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) ﴾[3] .

---

(١) سورة مريم الآية : ١٦ ، ١٧ .

(٢) سورة الذاريات الآية : ٢٤ - ٢٨ .

(٣) سورة مريم الآية : ٦٤ .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية ، أن جبريل - عليه السلام - تأخر فى النزول على النبى ﷺ لفترة من الزمان ، فلما جاءه بالوحى قال له ﷺ : «ياجبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا» ؟ فقال له جبريل : إنى كنت أشوق إليك ، ولكنى عبد مأمور إذا بعثتُ جئت ، وإذا حبستُ احتبستُ» ونزلت هذه الآية .

أما المادة التى خلق الله - تعالى - منها الملائكة ، فقد بينها النبى ﷺ فى الحديث الذى أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال : خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم» أى من سلالة من طين .

ويبدو أن خلق الملائكة كان سابقا على خلق آدم أبى البشر ، لأن الله - تعالى - قد أخبر الملائكة بخلقه وأنه سيجعله خليفته فى الأرض .

قال - تعالى - : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠)** ﴾[١] .

والظاهر أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وأن الصالحين الأخيار من بنى آدم ، أفضل من الملائكة ، لأن الملائكة طاعتهم لله - تعالى - طبيعة فيهم ، وانصرافهم عن المعاصى فطرة فطرهم الله عليها ، أما بنو آدم فطاعتهم تحتاج إلى سلوك معين ، تحتاج إلى محاسبة النفس ومقاومة الشهوات ، واجتنابهم للمعاصى يحتاج كذلك إلى مقاومة شديدة لمغريات ولمجاهدة النفس الأمارة بالسوء .

ومن هنا قال المحققون من العلماء : إن الأنبياء والأخيار من البشر أفضل من الملائكة .

والملائكة كما تشير آيات القرآن الكريم متفاوتون فى هيئتهم وخلقتهم ومتفاوتون فى مراتبهم تفاوتا لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٣٠ .

أما تفاوتهم فى هيئتهم وخلقتهم ، فيشير إليه قوله - تعالى - : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾[1] .

أى : الثناء الحسن الجميل على الله - تعالى - خالق السموات والأرض بقدرته وجاعل من الملائكة رسلا إلى من يشاء من عباده ، وهؤلاء الملائكة منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ومنهم له أربعة ؛ ومنهم من له أكثر من ذلك ، لأن المراد بهذا الوصف بيان كثرة الأجنحة لا حصرها .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أن الرسول ﷺ رأى جبريل وله ستمائة جناح .

وأما تفاوتهم فى المرتبة والدرجة فيشير إليه قوله - سبحانه - : ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ⑯④ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ⑯⑤ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ⑯⑥﴾[2] .

أى : وما منا نحن الملائكة أحد إلا له مقام معلوم فى عبادة الله - تعالى - وطاعته ، وإنا لنحن الصافون أنفسنا فى مواقف العبودية والطاعة له ، وأنا لنحن المسبحون والمنزهون له - تعالى - عن كل مالا يليق به .

٣ - وظائف الملائكة :

قلنا إن لفظ «الملائكة» تكرر فى القرآن الكريم أكثر من سبعين مرة ، ولو تدبرنا الآيات التى تحدثت عن الملائكة لرأينا أن من أهم وظائفهم ما يأتى :

(ا) التسبيح والتقديس والطاعة التامة لخالقهم - عز وجل - .

قال - تعالى - : ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[3] .

وقال - سبحانه - : ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[4] .

(١) سورة فاطر الآية : ١ .
(٢) سورة الصافات الآيات : ١٦٤ - ١٦٦ .
(٣) سورة البقرة الآية : ٣٠ .
(٤) سورة التحريم الآية : ٦ .

(ب) تحية المؤمنين ، وتعذيب الكافرين .

قال - تعالى - : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾[١] .

وقال - سبحانه - : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) ﴾[٢] .

وسقر : اسم لطبقة من طبقات جهنم ، أى : سأحرق هذا الكافر الفاجر بالنار المشتعلة ، التى لا تبقى شيئا فيها إلا أهلكته ، والتى تغير ألوان الجلود ، والتى عليها تسعة عشر ملكا ينزلون العذاب بمن يستحقه .

(جـ) تبليغ ما يأمرهم الله بتبليغه إلى من يشاء من عباده وعلى رأس هؤلاء المبلغين جبريل - عليه السلام - .

قال - تعالى - : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[٣] .

أى : وان هذا القرآن لتنزيل رب العالمين ، نزل به عليك يامحمد أمين وحينا جبريل لكى تبلغه للناس ، بلسان عربى واضح مبين .

(د) دعاؤهم للمؤمنين بالمغفرة والرحمة :

قال - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي

(١) سورة الرعد الآية: ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) سورة المدثر الآيات : ٢٦ : ٣٠ .
(٣) سورة الشعراء الآيات : ١٩٢ - ١٩٥ .

وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾(١) .

أى : أن الملائكة الذين يحملون عرش الخالق - عز وجل - والملائكة الذين يطوفون بالعرش مهللين مسبحين مكبرين ، من وظائفهم أنهم يستغفرون للمؤمنين ، ويتضرعون إلى الله - تعالى - أن يرزقهم جنته هم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، وأن يزيد فى حسناتهم ، وأن يزيل سيئاتهم .

(هـ) كتابتهم لأعمال الإنسان :

ومن الآيات التى قررت ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾(٢) .

أى : وإن عليكم - أيها الناس - لملائكة يحفظون أعمالكم عليكم ، ويسجلونها دون أن يضيعوا منها شيئًا ، وهؤلاء من صفاتهم أنهم لهم الكرامة والمنزلة الحسنة عند الله - تعالى - ، وأنهم يعلمون أفعالكم التى تفعلونها سواء أكانت قليلة أم كثيرة ، صغيرة أم كبيرة ، وعلمهم هذا بتعليم الله - تعالى - لهم .

(و) قبض الأرواح عند نهاية الآجال :

ومن الآيات أكدت هذه الحقيقة قوله - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾(٣) .

أى : الجزاء الحسن والثواب الجزيل لهؤلاء المتقين ، الذين تقبض أرواحهم الملائكة ، وتقول لهم عند قبض أرواحهم : سلام عليكم وأمان لكم ، ادخلوا الجنة بسبب ما قدمتموه من أعمال صالحة .

(ز) تثبيت قلوب المؤمنين وهم يقاتلون أعداء الله وأعداءهم :

---

(١) سورة غافر الآيات : ٧ - ٩ .
(٢) سورة الانفطار الآية: ١٠ : ١٢ .
(٣) سورة النحل الآية: ٣٢ .

قال - تعالى - : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[1] :

(ح) الصلاة على النبى ﷺ وعلى المؤمنين :

أما صلاة الملائكة على النبى ﷺ فيشهد لها قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾[2] .

أى : إن الله - تعالى - يثنى على نبيه محمد ﷺ ويرضى عنه ، وأن الملائكة كذلك تعظم الرسول ﷺ وتدعو له بالظفر بأعلى الدرجات فعليكم أيها المؤمنون أن توقروا نبيكم ﷺ وأن تدعوا له بأن يكون فى أسمى الدرجات .

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) ﴾[3] .

أى : الله - : تعالى - هو الذى يرحمكم برحمته الواسعة - أيها المؤمنون - كما أن ملائكته يصلون عليكم بمعنى الدعاء لكم بالمغفرة والرحمة .

هذه بعض وظائف الملائكة ، وهى وظائف فيها ما فها من الخير للمؤمنين .

وقد وردت أحاديث شريفة عن النبى ﷺ يؤخذ منها أن للملائكة وظائف أخرى منها :

(ط) تأمينهم مع المصلين :

ففى الحديث الشريف : إذا قال الإمام «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» فقولوا : آمين . فإن الملائكة يقولون آمين ، وإن الإمام يقول : آمين ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه .

---

(١) سورة الأنفال الآية: ١٢ .

(٢) سورة الأحزاب الآية:٥٦ .

(٢) سورة الأحزاب الآية:٤٣ .

(ك) ومنها : حضورهم صلاة الفجر ، وصلاة العصر من كل يوم مع المصلين :

ففى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم- وهو أعلم بهم- : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون» .

(ل) ومنها : تحيتهم لأهل العلم وفرحهم بهم :

فقد أخرج أبو داود والترمذى عن أبى الدرداء أن رسول الله ﷺ قال : «إن الملائكة لتصنع أجنحتها لصاحب العلم رضا بما يصنع» .

هذا ؛ والإيمان بوجود الملائكة واجب ، وهذا الإيمان بوجودهم دليل على صدق اليقين ، وتقوى القلوب .

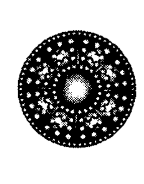
قال - تعالى - : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾[1] .

وقال - سبحانه - : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾[2] .

(١) سورة البقرة الآية : ١٧٧ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٨٥ .

الجـــن



١ - فى القـرآن الكريم سـورة تسـمى بسـورة «الجن» افـتـتـحت بقـوله - تعالى - : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) ﴾[1]

وقد تكرر هذا اللفظ فى القرآن الكريم تسعـا وعشرين مـرة تارة بلفظ الجن وتارة بلفظ الجان .

٢ - والجن أو الجان عالم آخر من مخلوقات الله - تعالى - ، هذا العالم مغيب عن حواسنا ومداركنا ، لا يرى على طبيعته ، ولا بصورته الحقيقية ، وله قدرة على التشكل بأشكال مختلفة .

وقد أخبرنا الله - تعالى - عن المادة التى خلقوا منها فى آيات منها قوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾[2] .

والمراد بالأنسان هنا : آدم - عليه السلام - ، لأنه أصل النوع الإنسانى ، وأول فرد من أفراده .

والصلصال : الطين اليابس الذى يصلصل . أى : يحدث صوتا إذا حرك أو نقر عليه .

والحمأ : الطين إذا اشتد سواده وتغيرت رائحته . والمسنون : أى : المصور مأخوذ من سن الشىء إذا صوره .

والمعنى : والله لقد خلقنا آدم أبا البشر من طين يابس شديد السواد ، صورناه بقدرتنا فى أحسن صورة وأكملها ، أما الجان فقد خلقناه من قبل آدم من الريح الحارة التى تقتل ، ومن هاتين الآيتين نرى أن خلق الجان سابق على خلق الآدميين .

(١) سورة الجن الآية : ١ .   (٢) سورة الحجر الآية : ٢٦ ، ٢٧ .

٣ - والقرآن الكريم قرر فى آيات متعددة أن الجن طوائف ، منهم المؤمنون ومنهم الكافرون ، منهم الصالحون ومنهم الفاسقون ، ومن الآيات القرآنية التى أكدت ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾[1] .

أى : أن الجن قالوا فى وصف حالهم : منا الموصوفون بالصلاح والتقوى ، ومنا قوم دون ذلك فى الصلاح والتقوى ، فنحن فى هذه الحياة الدنيا طوائف شتى ، وفرق متعددة ، كما هو الحال عند البشر وشبيه بهذه الآية قوله - سبحانه - : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) ﴾[2] .

٤ - كذلك قرر القرآن الكريم أن الجن كالإنس فى التكاليف الشرعية وفى وجوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

قال - تعالى - : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ﴾[3] .

ولقد استمعت طائفة من الجن أكثر من مرة إلى النبى ﷺ وهو يقرأ القرآن الكريم ، فآمنوا به وصدقوا ، ودعوا غيرهم إلى الإيمان به ﷺ وحذروهم من عدم الاستجابة له ﷺ قال - تعالى - : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ

---

(١) سورة الجن الآية : ١١ .

(٢) سورة الجن الآية : ١٤ ، ١٥ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٣٠ .

عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٢) ﴾[1] .

قال القرطبى - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآيات : قوله - تعالى - «وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن . .» هذا توبيخ لمشركى قريش . أى : أن الجن سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عند الله ، وأنتم معرضون مصرون على الكفر .

ولما مات أبو طالب ، خرج النبى ﷺ إلى الطائف ، يلتمس من أهلها النصرة ، ويدعوهم إلى الإيمان . . فاستقبلوه استقبالا سيئا ، حيث أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويضحكون منه ، فانصرف ﷺ عنهم ، حتى إذ كان ببطن نخلة - وهو موضع بين مكة والطائف - قام يصلى من الليل ، فمر به نفر من جن نصيبين - وهو موضع قرب حدود الشام - فاستمعوا إليه ، وقال بعضهم لبعض : أنصتوا . . »[2]

وقد أخذ العلماء من هذه الآيات : أن رسالة النبى ﷺ كانت إلى الإنس والجن ، لأن هذه الآيات تحكى إيمان بعض الجن به ﷺ ، كما تحكى دعوتهم لغيرهم إلى الإيمان به .

وأن هذه الآيات تدل على أن حكم الجن كحكم الإنس فى الثواب والعقاب ، وفى وجوب العمل بما أمرهم الله - تعالى - به ، وفى وجوب الانتهاء عما نهاهم عنه .

٥ - والجن يتناسلون كالإنس ويرون البشر دون أن يراهم البشر قال - تعالى - ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) ﴾[3] .

وقال - تعالى - : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴾ [4] .

---

(١) سورة الأحقاف الآية: ٢٩ - ٣٢ .
(٢) تفسير القرطبى :جـ ١٦ ص ٢١٠ .
(٣) سورة الكهف الآية: ٥٠ . (٤) سورة الأعراف الآية: ٢٧ .

وكثير من المفسرين أن أبليس كان من الجن ولم يكن من الملائكة ، بدليل قوله - تعالى - : «إلا إبليس كان من الجن» ، ولأن الملائكة معصومون بطبيعتهم عن المعصية بدليل قوله - تعالى - : «لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» .

والذى يبدو لنا أن الجن ينقسمون إلى قسمين : قسم آمن وأصلح واستقام على أمر الله ، وهو الذى استمع إلى النبى ﷺ وآمن به وقال :﴿ **إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)** ﴾[1]

وقسم كفر بالحق ، وانقاد للباطل ، وأصر على ضلاله وطغيانه ، وهذا القسم ينتسب إلى إبليس الذى تكرر اسمه فى القرآن إحدى عشرة مرة الذى هو أبو الشياطين وأصلهم الأول . والشياطين جمع شيطان ، وهو يطلق على كل متمرد كافر من الجن .

ولفظ شيطان : مأخوذ من الفعل شطن بمعنى بعد ، لأنه بعيد بطبعه عن كل خير ، وقد تكرر لفظ الشيطان فى القرآن الكريم سبعين مرة ، وتكرر لفظ الشياطين سبع عشرة مرة ، وكل هذه الآيات التى ورد فيها لفظ الشيطان أو الشياطين تحذر المؤمنين من شرورهم . .

ومن هذه الآيات قوله ـ تعالى - : ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)** ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦)** ﴾[3] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ **وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨)** ﴾[4] .

---

(١) سورة الجن الآيات : ١ ، ٢ .
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٦٨ .
(٣) سورة فاطر الآية: ٦ .
(٤) سورة النساء الآية: ٣٨ .

وقوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ... ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[2] .

ومن الأحاديث النبوية الشريفة التى حذرت المؤمنين من وساوس الشيطان ، وبشرتهم بأنهم متى خالفوه انوا ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه ، جاء فى الحديث الشريف عن سيرة بن فاكه أن رسول الله ﷺ قال : «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرق : فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتترك دينك ودين آبائك ؟ فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر ؟ أتدع أرضك وسماءك ؟ فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : أتجاهد وهو تلف النفس والمال فتقاتل وتقتل ويقسم مالك ؟ فعصاه وجاهد ، ثم قال ﷺ : «فمن فعل ذلك فمات ، كان حقه على الله أن يدخله الجنة» .

٦ - وكل إنسان معه شيطان يزين له الشر والشهوات المحرمة ، ويكرهه فى الخير وفى الفضائل ، كما أن له ملكا يهديه إلى الطاعة ويصرفه عن المعصية .

قال - تعالى - ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[3] .

وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : «خرج النبى ﷺ من عندى ليلا ، فغرت عليه ، فجاء فرأى ما أصنع ، فقال : مالك ياعائشة أغرت ؟ قلت : ومالى لا يغار مثلى على مثلك ؟ قال أجاءك شيطانك ؟ قلت : يارسول الله ، أو معى شيطان ؟ قال : نعم . قلت ومع كل إنسان شيطان ؟ قال نعم . قلت : ومعك يارسول الله ؟ قال نعم ، ولكن ربى أعاننى عليه حتى أسلم .

وروى الإمام مسلم فى صحيحة - أيضًا - عن عبد الله بن مسعود - رضى الله

(١) سورة النور الآية: ٢١ .

(٢) سورة الأعراف الآية: ٢٧ .

(٣) سورة الأنعام الآية: ١١٢ .

عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرين من الجن . قالوا : وإياك يارسول الله ؟ قال : وإياى إلا أن الله قد أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير»

٧ - والجن كالإنس فى أن الجميع لا علم لهم بالغيب ، لأن علم الغيب قد استأثر الله - تعالى به ، فلا يطلع عليه أحد إلا من ارتضاه لإطلاعه على شىء من هذه الغيوب .

قال - سبحانه - ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧)** ﴾[1] .

أى هو : - سبحانه - عالم الغيب ، فلا يطلع على غيبه أحد من خلقه ، إلا الرسول الذى ارتضاه واختاره من خلقه ، فإنه - سبحانه - قد يطلعه على بعض غيوبه ، ليكون ذلك معجزة له ، دالة على صدقه .

فإذا ما أراد - سبحانه - إطلاع رسول من رسله على بعض غيوبه ، سخر له من جميع جوانبه حرسًا من الملائكة يحرسون من وسوسة الشيطان ونوازعه ، ومن كل ما يتعارض مع توصيل وحيه إلى رسله بكل أمانة وصدق .

وقال - سبحانه - :﴿ **فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)** ﴾[2] .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره ما ملخصه : يذكر الله - تعالى - فى هذه الآية كيفية موت سليمان - عليه السلام - وكيف عمى الله موته على الجان المسخرين له فى الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئا على عصاه - وهى منسأته - مدة طويلة ، فلما أكلتها دابة الأرض - وهى الأرضة - ضعف وسقط على الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ، هنا تبينت الجن والإنس - أيضا - أن الجن لا يعلمون

(١) سورة الجن الآية: ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة سبأ الآية: ١٤ .

الغيب كما كانوا يتوهمون ويواهمون الناس ذلك - لأنهم لو كانوا يعلمون الغيب لما لبثوا فى العذاب المهين الذى كلفهم به سليمان تلك المدة الطويلة بعد موته»[1] .

وفى القرآن الكريم آيات متعددة صرحت بأن سليمان - عليه السلام- قد سخر الله - تعالى - الجن لخدمته ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ **وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣)** ﴾[2] .

أى : وسخرنا لسليمان - عليه السلام - من الجن من يكونون فى خدمته ، ومن يعملون بين يديه ما يريده منهم ، وهذا كله بأمر الله - تعالى - ومشيئته وقدرته ، ومن ينحرف من هؤلاء الجن عما أردناه به من طاعة سليمان ، ننزل به عذابنا الأليم الذى يخزيه ويذله فى الدنيا والآخرة .

وهؤلاء الجن كانوا يصنعون لسليمان أماكن العبادة ، والتماثيل التى يريدها ، كما كانوا يصنعون له الأوانى الكبيرة التى يجمع فيها الماء أو الطعام الكثير .

وقد أعطينا سليمان كل هذه النعم ، وقلنا له ولأهله : اعملوا ياآل داود عملا صالحا ، شكرًا لله - تعالى - على فضله وعطائه ، وقليل من عبادى هم الذين يشكرون الله - تعالى - على نعمه التى لا تحصى .

٨ - هذا ، ومن فضل الله - تعالى - ورحمته بعباده المؤمنين ، أنه بشرهم أنهم متى أخلصوا له العبادة والطاعة ، وأدوا ما كلفهم به بإحسان وخشوع ، فإن الشيطان لا يستطيع أن يؤثر فيهم ، أو أن يمسهم بسوء .

وقد اعترف إبليس بذلك فى آيات منها قوله - تعالى - : ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٦ ص ٤٨٩ .
(٢) سورة سبأ الآية : ١٢ ، ١٣ .

(٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) ﴾[1] .

أى : قال إبليس مخاطبا خالقه - عز وجل - : رب بسبب كونى غاويا لأزينن للبشر المعاصى فى الأرض ولأعملن على إضلالهم جميعا ، إلا عبادك الذين استخلصتهم لطاعتك ، وصنتهم عن اقتراف ما نهيتهم عنه .

فرد الله - تعالى - على ربليس بقوله : «هذا صراط على مستقيم» أى : هذا منهج قويم من مناهجى التى اقتضتها حكمتى وعدالتى ورحمتى ، وسنة من سننى التى آليت على ذاتى أن التزم بها مع خلقى وهى أن عبادى لا قوة ولا قدرة لك عى إغوائهم أو إضلالهم ، ولكن سلطانك وقدرتك إنما هى على من اتبعك من الغاوين ، الذين جهنم مصيرهم ومأواهم .

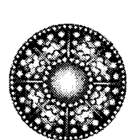
والله - تعالى - نسأل أن يجعلنا من عباده الذين ليس لإبليس وذريته سلطان لهم علينا ، إنه أكرم مأمول ، وأعظم مسئول .

---

(١) سورة الحجر الآية: ٣٩ - ٤٣ .

الـروح

١ - الإنسان منا يتكون من جسد وروح .



أما الجسد فشيء مادى ، نراه بأعيننا ، ونحسه بحواسنا ، إذ هو عبارة عن رأس ووجه وأعضاء متعددة ، منها الأيدى والأرجل وغير ذلك .

وأما الروح فشيء معنوى لا نراه بأعيننا ، ولا نحسه بحواسنا ، ولا نعرف حقيقته أو لونه أو هيئته ، لأن غيب من الغيوب التى استأثر الله - تعالى - بها .

قال - تعالى - ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** (٨٥) ﴾[١] .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما أخرجه البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : بينما أنا أمشى مع النبى ﷺ فى حرث - أى : فى زرع - وهو متوكئ على عسيب - أى : على عصا - ، إذ مر جماعة من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح : فقالوا : يامحمد ما الروح ؟ فأمسك النبى ﷺ فلم يرد عليهم شيئا ، فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامى ، أى : فوقفت فى مكانى - ، فلما نزل الوحى قال : «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى . . »

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قالت قريش لليهود ، أعطونا شيئا نسأل عنه هذا الرجل - أى الرسول : ﷺ فقالوا لهم : سلوه عن الروح ، فسألوه فنزلت هذه الآية .

فالمقصود من سؤالهم : السؤال عن حقيقة الروح وعن كنهها .

والمعنى ويسألك بعض الناس - أيها الرسول الكريم - عن حقيقة الروح قل لهم

(١) سورة الإسراء الآية: ٨٥ .

على سبيل الإرشاد والزجر : الروح شيء من جنس الأشياء التى استأثر الله - تعالى - وحده بعلم حقيقتها وجوهرها ، وما أوتيتم - أيها السائلون عن الروح - من العلم إلا علما قليلا ، بالنسبة إلى علمه - تعالى الذى وسع كل شيء ، ولا يخفى عليه شيء .

٣ - وجمهور العلماء على أن المراد بالروح فى قوله - سبحانه - : «ويسألونك عن الروح» ما يحيا به بدن الإنسان ، وبه تكون حياته ، وبمفارقته للجسد يموت الإنسان ، وأن السؤال إنما هو عن حقيقة الروح ، إذ معرفة حقيقة الشيء ، تسبق معرفة أحواله .

وإضافة كلمة «أمر» إلى لفظ الرب - عز وجل - من باب الاختصاص العلمى إذ الرب وحده هو العليم بشأنها ، وليس من باب الاختصاص الوجودى ، لأن الروح وغيرها من مخلوقات الله - تعالى - .

وفى هذه الإضافة ما فيها من تشريف المضاف ، حيث أضيف هذا الأمر إلى الله - تعالى - وحده .

قال القرطبى : قوله - تعالى - «الروح من أمر ربى» : دليل على خلق الروح . أى : هو أمر عظيم ، وشأن كبير من أمر الله - تعالى - ، مبهما له وتاركا تفصيله ، ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها . وإذا كان الإنسان فى معرفة نفسه هكذا ، كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى . وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ، للدلالة على أنه إدراك حقيقة خالقه أولى[1] .

وقال بعض العلماء : «وفى هذه الآية ما يزجر الخائضين فى شأن الروح المتكلفين لبيان ماهيته ، وإيضاح حقيقة ، أبلغ زجر ، ويردعهم أعظم ردع ، وقد أطالوا المقال فى هذا البحث ، بما لا يتسع له المقال ، وغالبه ، بل كله من الفضول الذى لا يأتى بنفع فى دين أو دنيا .

(١) **تفسير القرطبى**: جـ ١٠ ص ٣٢٤ .

فقد استأثر الله - تعالى - بعلم الروح ، ولم يطلع عليه أنبياءه ، ولم يأذن لهم ، بالسؤال عنه ، ولا البحث عن حقيقته ، فضلا عن أممهم المقتدين بهم[1]» .

والخلاصة أن الروح غيب من غيب الله - تعالى - لا يدركه سواه ولقد أبدع الإنسان فى هذه الأرض ، ولكنه وقف عاجزا أمام ذلك السر اللطيف - الروح - ، لا يدرى ماهو ؟ ولا كيف جاء ؟ ولا كيف يذهب ؟ ولا أين كان ؟ ولا أين يكون؟ إلا ما يخبر به الصادق المصدوق ﷺ عن ربه - عز وجل - .

٤ - ولفظ «الروح» تكرر فى القرآن الكريم إحدى وعشرين مرة ، ولكن بمعان متنوعة ، فتارة يأتى هذا اللفظ بمعنى الوحى ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾[2] .

أى : هو - سبحانه - صاحب الرفعة والمقام العالى ، وهو وحده صاحب العرش العظيم الذى لا يعلم مقدار عظمته إلا هو ، وهو وحده الذى يلقى الوحى على من يختاره من عباده وأنبيائه ، لينذروا الناس ويحذروهم من أهوال يوم القيامة .

وتارة يأتى هذا اللفظ بمعنى القوة والثبات ، كما فى قوله - سبحانه - : ﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾[3] .

أى : وأيدهم بقوة ونصر منه - تعالى - .

وتارة يأتى هذا اللفظ والمقصود منه جبريل ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) ﴾[4] .

أى : نزل بهذا القرآن جبريل - عليه السلام - على قلبك - أيها الرسول الكريم

(١) **تفسير فتح البيان** : جـ ٥ ص ٤٠١ للشيخ صديق حسن خالد .

(٢) **سورة غافر الآية** : ١٥ .

(٣) **سورة المجادلة الآية** : ٢٢ .

(٤) **سورة الشعراء الآية** : ١٩٣ - ١٩٤ .

- لتكون من المنذرين لغيرهم بأن كل من يعبد غير الله - تعالى - فمصيره إلى النار .

وتارة يأتى هذا اللفظ بمعنى القرآن ، كما فى قوله - سبحانه - : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾[1] .

أى : أوحينا إليك قرآنا كريما صادرًا عن ذاتنا وليس عن غيرنا وتارة يأتى بمعان أخرى لا مجال لذكرها هنا .

٤ - ويبدو أن لفظ الروح ولفظ النفس لا فرق بينهما من حيث المعنى ، وقد تكرر لفظ النفس فى القرآن الكريم ما يقرب من ثلاثمائة مرة ، تارة بالإفراد وتارة بالجمع . .

ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) ﴾[2] .

أى : الله - تعالى - بقدرته وحدها يقبض أرواح مخلوقاته حين انتهاءآجالها ، بأن يقطع تعلقها بالأجسام قطعا كليا ، ويسلب هذه الأجسام والأبدان مابه قوام حياتها ، بأن تصير أجساما هامدة لا إدراك لها ولا حركة فيها .

وقوله - تعالى - «والتى لم تمت فى منامها» معطوف على الأنفس . أى : يسلب الحياة عن الأنفس التى انتهى أجلها سلبا ظاهرا وباطنا ، ويسلب الحياة عنها سلبا ظاهرا فقط فى حال نومها ، إذ أنها فى حالة النوم تشبه الموتى من حيث عدم التصرف والتمييز .

فالآية الكريمة تشير إلى أن المتوفى للأنفس أعم من الموت ، إذ أن هناك وفاتين : وفاة كبرى وتكون عن طريق الموت ، ووفاة صغرى وتكون عن طريق النوم ، كما قال -

(١) سورة الشورى الآية: ٥٢ .
(٢) سورة الزمر الآية: ٤٢ .

سبحانه - : «وهو الذى يتوفاكم بالليل» أى : يجعلكم تنامون فيه نوما يشبه الموت فى انقطاع الإدراك والإحساس .

وقوله - تعالى - : «فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى» بيان لحالة الأنفس التى انتهى أجلها ، والتى لم ينته أجلها بعد .

أى : الله وحده هو الذى يتوفى الأنفس حين الموت وحين النوم ، أما الأنفس التى انتهى أجلها ، فيمسك - سبحانه - أرواحها إمساكا تاما ، بحيث لا تعود إلى أبدانها مرة أخرى ، وأما التى لم يحن وقت موتها ، فإن الله - تعالى - يعيدها إلى أبدانها عند اليقظة من نومها ، وتستمر على هذه الحالة إلى أجل مسمى فى علمه - سبحانه - فإذا ما انتهى أجلها الذى حدده الله - تعالى - لها ، خرجت تلك الأرواح من أبدانها خروجا تامًا ، كما هو الشأن فى الحالة الأولى .

٦ - هذا والنفس الإنسانية لها صفات ، فهناك النفس الأمارة بالسوء ، وهى التى تدعو صاحبها إلى ارتكاب السيئات ، وانتهاك الحرمات . .

قال - تعالى - : ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣)** ﴾[١] .

وهناك النفس اللوامة ، وهى التى تلوم صاحبها على عدم الإكثار من فعل الخير ، والإقلاع عن الشر .

قال - تعالى - : ﴿ **لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢)** ﴾[٢] .

وهناك النفس المطمئنة ، وهى التى وصلت إلى أسمى درجات العبادة والطاعة لله رب العالمين .

قال - تعالى - : ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)** ﴾[٣] .

---

(١) سورة يوسف الآية: ٥٣ .

(٢) سورة القيامة الآية: ١ ، ٢ .

(٣) سورة الفجر الآية: ٢٧ - ٣٠ .

أحوال القبر

١ - من الأمور الغيبية التى لا مجال للعقل بإدراكها إلا عن طريق ما أخبر به القرآن الكريم ، وما ثبت عن النبى ﷺ أحوال القبر وما يحدث فيه من سؤال للميت ، ومن نعيم أو عذاب ، أو خير أو شر ، وذلك لأن أحدا من الأموات لم يثبت أنه بعد موته عاد إلى الحياة مرة أخرى ، وقص على الناس ما حدث له بعد أن دفن فى قبره أو بعد أن فارق الحياة ، وإنما الذى أخبرنا بأحوال القبر هو الله - عز وجل - عن طريق رسوله الصادق المصدوق محمد ﷺ .

وقد ثبت سؤال القبر ، ونعيمه وعذابه فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة الصحيحة .

٢ - أما القرآن الكريم ، فمن الآيات التى أشارت إلى ذلك قوله - تعالى - : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾[(١)] .

والمراد بالحياة الدنيا مدة حياتهم فى هذه الدنيا ، والمراد بالآخرة : ما يشمل سؤالهم فى القبر ، وسؤالهم فى مواقف القيامة .

والمعنى : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الصادق الذى لاشك فيه فى الحياة الدنيا ، بأن يجعلهم متمسكين بالحق ثابتين عليه طول حياتهم ؛ ويثبتهم أيضًا بعد مماتهم ، بأن يوفقهم إلى الجواب السديد عند سؤالهم فى القبر ، وعند سؤالهم فى مواقف يوم القيامة .

وقد ساق الإمام ابن كثير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث التى وردت فى سؤال القبر وفى نعيه أو عذابه ، ومنها قوله : قال البخارى : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة ، أخبرنى علقمة بن رشد قال : سمعت

(١) سورة إبراهيم الآية : ٢٧ .

سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال : «المسلم إذا سئل فى القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فذلك قوله : «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة»[1] .

كذلك من الآيات القرآنية التى أشارت إلى عذاب القبر قوله - تعالى - فى فرعون وشيعته : ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)** ﴾[2] .

أى : أن فرعون وأتباعه يعرضون على النار فى الدنيا أول النهار وآخره وهم فى قبورهم ، وكذلك يكون حالهم فى الآخرة ، إذ يقول الله - تعالى - لملائكة العذاب : أدخلوا فرعون وأتباعه إلى جهنم وبئس المصير .

قال القرطبى : «والجمهور على أن هذا العرض فى البرزخ ، واحتج بعض أهل العلم فى ثبوت عذاب القبر بهذه الآية ، فقد قال مجاهد وغيره : هذه الآية تدل على عذاب القبر فى الدنيا ، ألا تراه يقول - سبحانه - عن عذاب الآخرة : ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾[3] .

٣ - وأما الأحاديث النبوية الشريفة التى وردت فى سؤال القبر وفى نعيمه أو عذابه فهى كثيرة ومنها : ما جاء فى الصحيحين وغيرهما عن أنس - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال : إن العبد إذا وضُع فى قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم - أى : ليسمع حركة انصرافهم - أتاه ملكان فيقصدانه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل - أى : فى محمد ﷺ ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله . فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار . أى : إلى مقعدك الذى كنت ستعذب فيه لو لم تكن مسلما - قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة فيراهما جميعًا »

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٤ ص ٤١٣ .

(٢) سورة غافر الآية:٤٦ .

(٣) تفسير القرطبى : جـ ١٥ ص ٣١٨ .

وفى الصحيحين - أيضا - عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : مر النبى ﷺ على قبرين فقال : إنهما ليعذبان وما يعذبان من كبير - أى : ما يعذبان من أجل شيء كبير فى نظركم - ثم قال ﷺ : بلى أى : إنه لكبير عند الله - ، أما أحدهما : فكان يسعى بين الناس بالنميمة . وأما الآخر فكان لا يستبرئ من بوله ، وفى رواية : وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله . .»

وروى البخارى ومسلم والنسائى أن رسول الله ﷺ كان يدعوا الله - تعالى - بقوله : «اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، ومن عذاب النار ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال» .

وأخرج الترمذى فى سننه عن هانئ مولى عثمان بن عفان - رضى الله عنه - قال : «كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته . فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكى ، وتبكى عند وقوفك على القبر ؟ فقالل : إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه المسلم فما بعده أيسر منه . وإن لم ينج منه كان ما بعده أشد منه» .

هذه بعض الأحاديث الصحيحة التى وردت فى أحوال القبر من حيث السؤال والنعيم والعذاب ، والتى يجب علينا أن نؤمن بما جاء فيها إيمانًا تامًا كاملا عميقًا ، حتى نكون مما قال الله - تعالى - فيهم : ﴿ **أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** (٤) ﴾[1] .

٤ - إننا نؤمن إيمانًا عميقا بنعيم القبر أو عذابه ، لأن الله - تعالى - قد أخبرنا بذلك عن طريق رسوله ﷺ إلا أننا نترك الخوض فى كيفية هذا النعيم أو العذاب ، لأن هذه الكيفية استأثر الله - تعالى - بعلم تفاصيلها .

(١) سورة الأنفال الآية: ٤ .

وقد بين لنا القرآن الكريم أن الأشقياء سيشعرون بسوء عاقبتهم وهم فى سكرات الموت ، وأن السعداء سيحسون بحسن عاقبتهم وهم فى اللحظات الأخيرة من حياتهم .

قال - تعالى - : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93) ﴾[1]

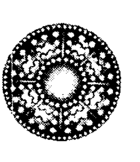
وقال - سبحانه - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (30) ﴾[2] . ونسأل الله أن يجعلنا جميعا منهم .

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٩٣ .

(٢) سورة فصلت الآية : ٣٠ .

علامات قرب وقوع الساعة



١ - من الأمور المسلمة عند كل عاقل أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله - تعالى - وحده ، فهو من الغيوب التى استأثر الله - تعالى - بعلمها ، دون أن يطلع عليها ملك مقرب أو نبى مرسل .

وقد تعددت الآيات القرآنية التى أكدت هذه الحقيقة .

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧)** ﴾[١] .

أى : يسألك بعض الناس - أيها الرسول الكريم - عن وقت مجىء يوم القيامة ، قل لهم : إنما علمها عند الله - تعالى - وحده ، وقل لهم - أيضًا - : لن يكشف الحجاب عن خفائها ، ولا يظهرها للناس فى الوقت الذى يختاره إلا الله - تعالى - وحده .

قالوا : والسبب فى إخفاء وقت قيام الساعة عن الناس : لكى يكونوا دائما على حذر ، فيكون ذلك أدعى للطاعة وأزجر عن المعصية ، فإنه متى علمها المكلف ربما تقاصر عن التوبة وأخرها .

ثم عظم - سبحانه - أمر الساعة فقال : «ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة» .

أى : أن يوم القيامة هو له كبير ، وشدائده عظيمة ، وهو لا يأتيكم إلا فجأة ، وعلى حين غفلة من غير توقع ولا انتظار .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٨٧ .

ثم قال - تعالى - : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾[١]

أى : يسألونك - يامحمد - هذا السؤال كأنك عالم بها ، قل لهم مرة أخرى على سبيل الإرشاد والزجر : إن علمها عند الله - تعالى - وحده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾[٢] :

٢ - ومع أن كل عاقل يعلم علم اليقين أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله - تعالى - إلا أنه- سبحانه - جعل لقرب وقت قيام الساعة علامات معينة تدل على هذا القرب ، وقد أشار - سبحانه - إلى ذلك فى قوله :

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) ﴾ [٣] .

أى : ما ينتظر هؤلاء الجاهلون الا الساعة ، التى سيفاجئهم مجيئها مفاجأة تامة دون مقدمات ، والحق أن علاماتها وأشراطها قد ظهرت دون أن يرفعوا لها رأسا ، ودون أن يعتبروا بها أو يتعظوا ، لا ستيلاء الأهواء عليهم . .

ولكنهم عندما تداهمهم الساعة بأهوالها ، ويقفون للحساب ، يتذكرون ويؤمنون بالله ورسله ، ولكن إيمانهن فى ذلك الوقت لن ينفعهم ، لأنه جاء فى غير محله الذى يقبل فيه .

٣ - وقد ذكر العلماء أن لوقت قرب قيام الساعة علامات صغرى ، وأخرى كبرى .

---

(١) سورة الأعرف الآية: ١٨٧ .
(٢) سورة الأحزاب الآية: ٦٣ .
(٣) سورة محمد الآية: ١٨ .

فأما العلامات الصغرى فمن أهمها:

(ا) بعثة الرسول ﷺ التى هى ختام الرسالات السماوية ، ولعل مما يشير إلى ذلك قوله - تعالى - : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾[1] .

أى : يسألك يامحمد هؤلاء القوم عن وقت قيام الساعة قائلين لك : متى يكون وقوعها ؟

وقوله - سبحانه - : «فيم أنت من ذكراها . إلى ربك منتهاها» واقع موقع الجواب عن سؤالهم عن الساعة ، وعن وقت وقوعها .

والمقصود بهذا الجواب : توبيخهم على إلحاحهم فى السؤال عنها ، مع أن الأولى بهم كان الاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح .

وقوله - تعالى - : «فيم أنت من ذكراها» يرى بعضهم أن لفظ «فيم» استفهام استنكارى ، وما بعده استئناف تعليلى للإنكار ، وبيان لبطلان السؤال فكأنه قيل : فيم هذا السؤال ؟ ثم ابتدئ فقيل : أنت من ذكراها أى : إرسالك وأنت خاتم النبيين ، وعلامة من علاماتها .

وفى الحديث الصحيح الذى أخرجه البخارى ومسلم والترمذى عن أنس - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال : «بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى» .

والمقصود بهذا التشبيه أنه ﷺ ليس بينه وبين قيام الساعة نبى آخر ، فهى تليه وتأتى بعده ، وهذا علم بقربها ، ولا يستلزم العلم بوقت وقوعها ، فإن تحدد وقت وقوعها لا يعلمه أحد سوى الله - عز وجل - .

---

(١) سور النازعات الآية : ٤٢ - ٤٦ .

(ب) كذلك من علامات قرب الساعة : ما جاء فى الحديث الصحيح الذى أخرجه الشيخان وغيرهما ، عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لايرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخديه وقال : يامحمد أخبرنى عن الإسلام ؟

فقال له ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتوتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال صدقت . .

قال فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال ﷺ : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال صدقت .

قال فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال ﷺ : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال فأخبرنى عن الساعة أى : عن وقت مجيئها ؟ قال ﷺ ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

قال فأخبرنى عن أماراتها - أى : علاماتها - ؟ قال ﷺ أن تلد الآمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان . » .

أى : أن من علامات قرب قيام الساعة : كثرة عقوق الأبناء للآباء ، حتى ليخاف الوالد من ولده ، كما يخاف العبد من سيده . أو كثرة اتخاذ الإماء والزواج بهن ، فيأتين بأولاد يصبحون فى أعلى المناصب . وكثرة الذين كانوا حفاة فقراء ، وظيفتهم رعى الغنم ، فصاروا بعد ذلك من أصحاب المبانى الفخامة العالية ، ومن أصحاب السلطة الكبيرة .

(جـ) كذلك من علامات الساعة الصغرى : ما ذكره النبى ﷺ فى أحاديثه الصحيحة ، من أمور فيها ما فيها من العجائب والغرائب . . .

ففى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة . وحتى يُقبض العلم - أى : يقل العلم النافع بسبب موت العلماء - وتكثر الزلازل - أى : كثرة زائدة عما يعهده الناس - ويتقارب الزمان ، - أى : أن المسافات البعيدة تقطع فى زمن قليل - وتظهر الفتن ، ويكثر الهَرْج - أى : ويكثر التقاتل بين الناس - وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : ياليتنى مكانه - أى لما يرى من تقديم من يستحق التأخير ، وتأخير من يستحق التقديم بسبب ضياع الأمانة - . . . »

وهناك علامات أخرى جاءت فى بعض الأحاديث النبوية ، وهى علامات المتأمل فيها يرى أن معظمها قد تحقق فى أزمان متفاوتة .

وأما العلامات الكبرى التى تدل على قرب قيام الساعة، فمن أهمها:

خروج الدابة التى تكلم الناس:

قال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ (٨٢) ﴾[1] .

والدابة : اسم لكل حيوان ذى روح ، سواء أكان ذكرا أم أنثى ، عاقلا أم غير عاقل ، من الدبيب وهو فى الأصل : المشى الخفيف . واختصت الدابة فى العرف بذوات القوائم الأربع .

والمراد بوقوع القول عليهم : قرب قيام الساعة ، وانتهاء الوقت الذى يقبل فيه الإيمان من الكافر ، أو الوقت الذى تنفع فيه التوبة .

والمعنى : وإذا دنا وقت قيام الساعة ، وانتهى الوقت الذى ينفع فيه الإيمان أو التوبة ، أخرجنا للناس بقدرتنا وإرادتنا ، دابة من الأرض تكلمهم فيفهمون كلامها ،

(١) سورة النمل الآية: ٢٨ .

ويعرفون أن موعد قيام الساعة قد اقترب ، و «أن الناس» أى : الكافرين «كانوا بآياتنا» الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا «لا يوقنون» بها ، ولايصدقون أن هناك بعثا وحسابا .

فخرج الدابة : علامة الساعة الكبرى ، يخرجها الله - تعالى - ليعلم الناس ، قرب انتهاء الدنيا ، وأن الحساب العادل للمؤمنين والكافرين ، آت لاشك فيه ، وأن التوبة لن تقبل فى هذا الوقت ، لأنها جاءت فى غير وقتها المناسب .

وقد ذكر بعض المفسرين أو صافا كثيرة لهذه الدابة منها : أن طولها ستون ذراعا ، وأن لها وجه إنسان ، ورأس ثور ، وأذن فيل . . إلى آخر ما ذكروا من أوصافها .

والذى نعتقده ونؤمن به ، أن هناك دابة تخرج فى آخر الزمان ، كعلامة من العلامات الكبرى الدالة على قرب قيام الساعة ، وأنها تكلم الناس بكيفية لا يعلمها إلا الله - عز وجل - ، أما ما يتعلق بالمكان الذى تخرج منه ، أو بالهيئة التى تكون عليها من حيث الطول أو القصر أو غيرهما ، فنكل علمه إلى الله - تعالى - ، لأنه لم يرد حديث نبوى شريف يعتمد عليه فى بيان ذلك ، وما ذكره بعض المفسرين فى هذا الشأن لم يصح منه شىء .

إن خروج الدابة غيب من الغيوب التى استأثر الله - تعالى - بها ، ويجب علينا الوقوف عندما أخبر به القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، ولم يأت فيهما سوى أن دابة ستخرج وتكلم الناس ، ويكون ذلك من العلامات الكبرى لقيام الساعة

وليس فى خروجها وتكليمها للناس غرابة أو استحالة ، فسورة النمل التى ذكرت فيها هذه الاية الكريمة ، وهى قوله - تعالى - : «وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة . . . .» .

هى بذاتها التى ذكرت فى أوائلها جانبا من قصة سيدنا سليمان - عليه السلام - الذى علمه الله - تعالى لغة النملة ولغة الطيور ولغة غيرهما . .

قال - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾[(١)] .

(ب) طلوع الشمس من مغربها:

وقد وردت أحاديث صحيحة ، صرحت بأن خروج الشمس من مكان مغربها لا من مكان مشرقها ، دليل على قيام الساعة ، ودليل على أنه قد أزفت الآزفة ، التى ليس لها من دون الله كاشفة .

ومن الأحاديث النبوية التى وردت فى ذلك : ما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه والإمام أبو داود فى سننه ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : «إن أول الآيات خروجا : طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيتهما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على أثرها قريبًا» .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا جميعًا ، وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا» .

(جـ) خروج المسيح الدجال:

ومن العلامات الكبرى التى تدل على قرب قيام الساعة : خروج المسيح الدجال .

وقد سمى بهذا الاسم لأنه يمسح الأرض ويقطعها طولا وعرضا فى مدة زمنية قصيرة ، ولأنه أعور ممسوح العين .

(١) سورة النمل الآيات: ١٥ - ١٩ .

وعند ظهوره يدعى الألوهية ، ويحاول أن يفتن الناس عن دينهم بسبب الخوارق التى يأتى بها ، ثم ينتهى الأمر بقتله على يد عيسى - عليه السلام - ومن المؤمنين الصادقين .

وقد وردت أحاديث صحيحة تحذر المسلمين من شرور الدجال ، ومن هذه الأحاديث النبوية الشريفة ما جاء فى الصحيحين عن عمر - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ استنصت الناس يوم حجة الوداع - أى : طلب السكوت - فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر الدجال فأطنب فى ذكره وقال : ما بعث الله من نبى إلا أنذر أمته ، وإنه يخرج فيكم ، فما خفى عليكم من شأنه فلا يخفى عليكم . وإن ربكم ليس بأعور ، وإنه أعور العين اليمنى كأنه عينه طافية» .

وفى الصحيحين - أيضًا - عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : قام رسول الله ﷺ فى الناس ، فأثنى على الله - تعالى - بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : إنى لأنذركموه ، وما من نبى إلا وقد أنذر قومه ، ولكنى سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبى لقومه : إنه أعور ، وإن الله ليس بأعور» .

وفى حديث ثالث أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى عن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ قال : ما من نبى إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب ، ألا إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه كافر يقرأ كل مسلم»[1] .

(د) نزول عيسى - عليه السلام -

وردت أحاديث متعددة بلغت مبلغ التواتر المعنوى ، وتدل على أن من علامات الساعة الكبرى ، نزول عيسى - عليه السلام - حاكما بشريعة الإسلام ، التى جاء بها رسول الله ﷺ وأنه يقتل المسيح الدجال .

ومن هذه الأحاديث ما رواه البخارى والترمذى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال : والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم - عليه السلام - حكما مقسطا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية - أى

(١) **راجع كتاب :** التاج الجامع للأصول جـ ٥ ص ٣٤٩ لفضيلة الشيخ منصور على ناصف - رحمه الله .

يسقطها - ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، وحتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها» .

ثم قال أبو هريرة - رضى الله عنه : واقرءوا إن شئتم قوله - تعالى - : ﴿ **وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا** (١٥٩) ﴾[١] .

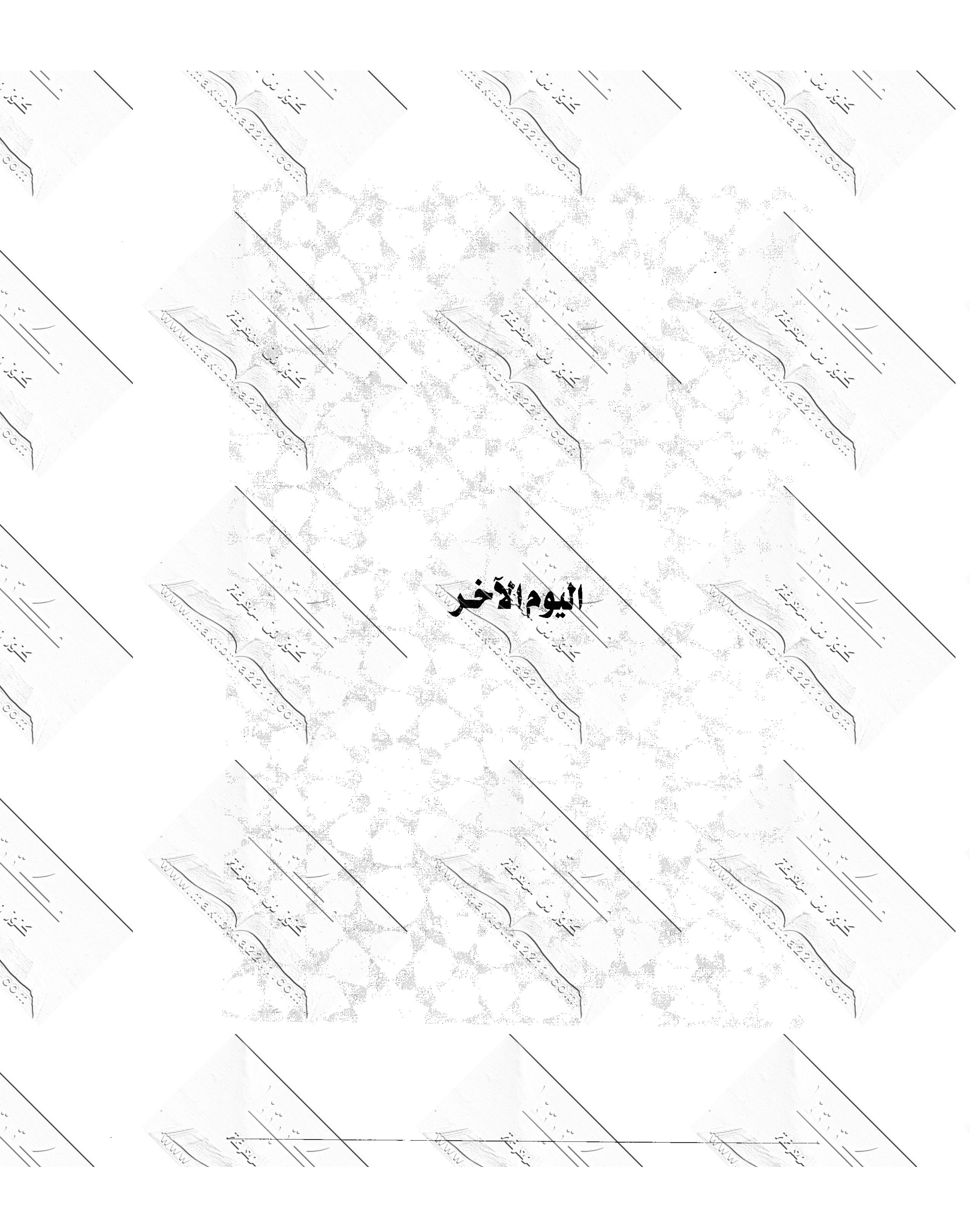
وروى الإمام مسلم فى صحيحة عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - أن رسول ﷺ قال : «يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين - لا أدرى أربعين يوما ، أو أربعين شهرًا أو أربعين عاما - فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود - أى : فى جماله وحسن هيئته - فيطلبه فيهلكه ، ثم ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة . .» .

هذا ، وقد ذكروا أن من علامات الساعة الكبرى - أيضا - : ظهور الإمام المهدى ، وأن اسمه محمد بن عبد الله ، أو أحمد بن عبد الله ، وأنه من بيت النبوة ، وأنه يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما ، وأنه يقيم شريعة الإسلام ، ويحيى ما اندثر من سنة النبى - عليه الصلاة السلام - وأن الإسلام تعلو كلمته فى عهده ، ويُمكن له فى الأرض ، ويكثر الرخاء ويعم الأمان ، وأنه يمكث سبع سنين ، فيخرج الدجال ، ثم ينزل عيسى - عليه السلام - فيتعاون عيسى - عليه السلام - مع المهدى على قتل الدجال ، ثم يموت المهدى ويبقى عيسى - عليه السلام - من بعده إلى الوقت الذى يشاؤه - تعالى - له[٢] .

---

(١) **سورة النساء الآية:** ١٥٩ .

(٢) **راجع كتاب:** «التاج الجامع للأصول» جـ ٥ ص ٣٤١ .



اليوم الآخر

اليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر ، أو بيوم القيامة ، وما فيه من بعث وحساب وثواب وعقاب : ركن من أركان الدين ، وجزء من أجزاء العقيدة السليمة ، ولا يكون الإنسان صحيح الإسلام ، إلا إذا آمن إيمانا راسخا ، بأن هذه الحياة الدنيا بما فيها وبمن فيها ، ستنتهي في الوقت الذى يريده الله - تعالى - وستعقبها حياة أخرى هى الحياة الباقية الدائمة ، كما فى قوله - سبحانه - :

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾[1] .

أى : إن هذه الحياة الدنيا وما فيها من مسرات وأحزان ، تشبه فى سرعة انقضائها ، وزوال متعها وشهواتها ، الأشياء يلهو بها الأطفال ، يجتمعون عليها وقتًا ، ثم ينفضون عنها !! أما الدار الآخرة فهى دار الحياة الباقية الدائمة ، التى لا يعقبها موت ، ولا يعتريها فناء ولا انتهاء . فالمقصود بلفظ «الحيوان» فى الآية الكريمة : الحياة الحقة التى لا زوال معها ولا انتهاء .

والسؤال الآن : كيف هيأت شريعة الإسلام الأذهان والقلوب والمشاعر والعواطف لتقبل عقيدة الإيمان باليوم الآخر ، وما فيه من حساب ، وما يترتب على هذا الحساب من سعادة أو شقاء ؟ وكيف حاورت المنكرين لهذا اليوم ، أو الشاكين فى حدوثه ؟ وكيف ردت على شبهاتهم بأسلوب يقنع كل ذى عقل سليم ؟ وكيف ساقت الأدلة الساطعة ، والبراهين الواضحة على أن هذا اليوم آت لاريب فيه ؟ وكيف غرست فى النفوس والمشاعر أن العدالة بكل صورها وألوانها تستلزم حدوث هذا اليوم ، حتى ينال كل مكلف ما يستحقه من ثواب أو عقاب ؟ !! وكيف صورت أهواله بأسلوب مؤثر حكيم ، يحمل العقلاء على حسن الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح ؟

---

(١) سورة العنكبوت الآية : ٦٤ .

للإجابة على هذه الأسئلة نقول : لقد سلك القرآن الكريم طرقا شتى ، لغرس عقيدة الإيمان باليوم الآخر ومافيه من حساب وثواب وعقاب ، وجاءت أحاديث النبى ﷺ ففصلت ما أجمله القرآن الكريم عن هذا اليوم الذى تعددت أسماؤه ، وتنوعت أهواله والذى هو من أمور الغيب التى يجب أن نؤمن بحدوثها ونكل كيفيتها إلى علم الله - تعالى - وإلى ما أخبرنا به عن ربه الصادق المصدوق - ﷺ - ومن أهم هذه الطرق التى اتبعها القرآن الكريم لغرس عقيدة الإيمان بيوم القيامة ما يأتى :

١ - بين لنا القرآن الكريم فى آيات كثيرة ، مراحل خلق الإنسان منذ بدايته إلى نهايته فى هذه الدنيا ، كما بين - أيضًا - مصيره بعد نهاية هذه الدنيا ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)** ﴾[1] .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة بعد أن أوضحت مراحل خلق الإنسان ذلك التوضيح البديع ، قد ختمت بقوله - سبحانه - «ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون»

أى : ثم إنكم بعد ذلك الذى ذكره - سبحانه - لكم أطوار خلقكم ، تصيرون أطفالا ، فصبيانا فغلمانا ، فشبانا ، فكهولا ، فشيوخا .. ثم مصيركم بعد ذلك كله ، أو خلال ذلك كله إلى الموت المحتوم الذى لا مفر لكم منه ، ولا مهرب لكم عنه ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون من قبوركم للحساب والجزاء .

ولا شك أن هذا التذكير للإنسان بأطوار نشأته ، وبحلقات حياته ، وبنهاية عمره ، وبحتمية بعثه ، فيه ما فيه من الاعتبار للمعتبرين ، ومن الاتعاظ للمتعظين .

٢ - مع أن الله - تعالى - قد بين للناس فى عشرات الآيات ، أن هذه الدنيا مصيرها إلى الزوال - كما سبق أن أشرنا - إلا أنه - سبحانه - قد أمرنا أن نعمر

(١) سورة المؤمنون الآيات: ١٢ - ١٦ .

حياتنا فيها ، بإخلاص العبادة له - عز وجل وبالأقوال الطيبة ، والأعمال الصالحة ، عن طريق التجارة أو الزراعة أو الصناعة ، أو غير ذلك من ألوان تبادل المنافع بين الناس فى حدود ما أحله الله - تعالى - فإن هذه الدنيا قد أوجدنا - سبحانه - فيها لتعميرها لا لتخريبها ، ولإصلاحها لا لإفسادها ، وهذا ما أعلنه كل نبى لقومه .

فهذا على سبيل المثال - سيدنا صالح - عليه السلام - يقول لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[1] .

أى : قال لهم على سبيل النصح والإرشاد : ياقوم أخلصوا العبادة لخالقكم فهو الذى خلق أباكم آدم من هذه الأرض ، وأنتم من نسله ، ومادام الأمر كذلك فكونوا معمرين لهذه الأرض لا مخربين لها .

ونراه فى مواطن آخر ينهاهم عن الإفساده فى الأرض فيقول : ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) ﴾[2] .

ومن أجمع الآيات التى أرشدت الإنسان إلى ما يجب عليه أن يعمله فى دنياه قوله - تعالى - : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾[3] .

ونرى سيدنا رسول الله ﷺ يؤكد هذه الحقائق فى أحاديث كثيرة منها : قوله ﷺ : «ما من مسلم يزرع زرعا ، أو يغرس غرسا ، فيأكل منه طير أو إنسان أو حيوان ، إلا كان له به صدقة» ومنها : قوله ﷺ : «إذا قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة - أى : نخلة صغيرة - فليغرسها» .

وقد يقول قائل : وما النتيجة لهذا التعمير للحياة الدنيا عن طريق الإيمان والعمل الصالح ؟ والجواب : النتيجة لذلك : السعادة فى الدنيا والآخرة ، بدليل قوله -

(١) سورة هود الآية : ٦١ .

(٢) سورة الشعراء الآية : ١٥١ ، ١٥٢ .

(٣) سورة القصص الآية : ٧٧ .

تعـالى - : ﴿مَنْ عَـمِلَ صَـالِحًـا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِـيَنَّهُ حَيَـاةً طَيِّبَـةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[1] . أى : من عمل عملا صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة فى الدنيا ، يظفر معها بالسعادة وصلاح البال ، والاطمئنان ، أما فى الإخرة فسنجزيه جزاء أكرم وأفضل مما كان يعمله فى الدنيا من أعمال صالحة .

والخلاصة : أن اعترافنا بأن حياتنا مهما طالت لها نهاية وبأن هذه الدنيا مهما توالت عليها من قرون إلى زوال لا يمنع كل من يعيش فيها بأن يعمل على تعميرها بالإيمان الصادق ، والعمل الصالح ، لأن ذلك هو طريق سعادته فى دنياه وفى آخرته .

٣ - أشار القرآن الكريم فى آيات متعددة إلى أن الإنسان لايكاد يترك هذه الحياة بعد انتهاء أجله فيها ، حتى يبدأ حسابه ، ويظهر ثوابه أو عقابه ، فالسعداء يبدأون حياة جديدة فيها كل ألوان النعيم ولكن بكيفية لا يعلمها إلا الله - تعالى - ، كما قال - سبحانه - : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2] .

أما الأشقياء فيبدأون حياة أخرى تعيسة ، كما قال - سبحانه - : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[3] .

بل أن السعداء الأتقياء ليرون بشارات الخير تسلق إليهم وهم فى اللحظات الأخيرة من حياتهم ، كما قال - عز وجل - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[4] .

---

(١) سورة النحل الآية : ٩٧ .
(٢) سورة آل عمران الآية : ١٦٩ .
(٣) سورة غافر الآية : ٤٦ .
(٤) سورة فصلت الآية : ٣٠ .

أى : تتنزل عليهم الملائكة لتقول لهم فى ساعة احتضارهم : لا تخافوا مما أنتم قادمون عليه فى المستقبل ، ولا تحزنوا على ما فارقتموه من أموال وأولاد ، وأبشروا بالجنة التى وعدكم ربكم بها ، أما الأشرار فنذر العذاب تواجههم وهم فى النزع الأخير من حياتهم ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾(1)

هذا ، والأدلة على نعيم القبر أو عذابه كثيرة ، وكلها تتوافق على إثبات أن القبر إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار ، وفى الحديث الشريف : (إن أحدكم إذ مات ، عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار . . . فيقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله بيوم القيامة) .

٤ - صرح القرآن الكريم فى آيات كثيرة أن يوم القيامة آت لاشك فيه ، ولكن فى وقت لا يعلمه إلا الله - تعالى - وحده .

ومن الآيات التى صرحت بأن يوم القيامة آت لاريب فيه قوله - سبحانه - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي

(1) سورة الأنعام الآية : ٩٣ .

الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾[1] .

والتأمل فى هذه الآيات الكريمة يرى أنها قد أقامت دليلين ساطعين على إمكانية البعث وإعادة الناس إلى الحياة مرة أخرى .

أما الدليل الأول : فعن طريق تطور خلق الإنسان من حال إلى حال .

وأما الدليل الثانى : فعن طريق مشاهدة الأرض وتنقلها من هيئة إلى هيئة أخرى . فكأن الله - تعالى - يقول : إن القادر على إيجادكم فى أطوار متعددة ، والقادر على تحويل الأرض من حال إلى حال ، قادر - أيضا - على إعادتكم إلى الحياة بعد موتكم .

٥ - حكى القرآن الكريم أقوال المنكرين لليوم الآخر ، كما حكى شبهاتهم حوله ، ثم رد عليها بما يبطلها بأساليب متعددة منها :

(ا) تفويض علم وقوع هذا اليوم إلى الله - تعالى - وحده .

ومن الآيات القرآنية التى أكدت هذه الحقيقة قوله - تعالى - : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾[2] .

أى : يسألك المشركون عن وقت قيام الساعة سؤال استنكار واستخفاف ، قل لهم - أيها الرسول الكريم - : علم قيامها لا يعلمه إلا الله - تعالى - وحده . ولا يكشف خفاءها إلا هو - عز وجل - .

---

(١) سورة الحج الآية: ٥ - ٧ .

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٨٧ .

ثم عظم - سبحانه - أمر قيام الساعة فقال : «ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة» أى : كبرت وشقت على أهلها لخوفهم من شدائدها وأهوالها وما فيها من محاسبة ومجازاة ، وهى لا تأتى إلا فجأة وبغتة دون توقع أو انتظار .

وقد وردت أحاديث متعددة تؤيد وقوع الساعة فجأة ، ومنها ما أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه . ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته - أى : ناقته - فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه - أى يطليه بالجص والطين - فلا يسقى فيه . ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فمه فلا يطعمها» .

ثم أكد - سبحانه - أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا هو وحده فقال : «يسألونك كأنك حفى عنها - أى : كأنك عالم بها مع أنك لا علم لك بوقت قيامها ، قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ولقد جاء فى الحديث الصحيح أن جبريل - عليه السلام - قد سأل النبى ﷺ عن وقت قيام الساعة ، فأجابه ﷺ بقوله : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» ثم قال ﷺ وسأخبرك عن أشراطها - أى : عن علاماتها : «أن تلد الأمة ربتها - أى : أن تلد غير الحرة سيدها - وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان» .

(ب) إنذار المنكرين ليوم القيامة بسوء المصير وأنهم سيتحسرون وسيندمون فى يوم لا ينفع فيه الندم بسبب هذا الإنكار .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١)﴾[1] .

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٣٠ - ٣١ .

أى : ولو ترى - أيها العاقل - حال المنكرين لليوم الآخر عندما يقفون للحساب لرأيت هولا كبيرا ، إذ سيسألهم ربهم : أليس هذا الذى تشاهدونه حقا ؟ وهنا لم يملكوا إلا أن يجيبوا بقولهم : بلى ياربنا هذا هو الحق بعينه ، وهنا يحكم الله - تعالى - فيهم بحكمه العادل فيقول : فانغمسوا فى العذاب بسبب إنكاركم هذا اليوم العصيب وهو يوم القيامة .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) ﴾[١] .

(جـ) تلقين الرسول ﷺ الإجابة على مزاعم المشركين الذين أنكروا يوم القيامة ومافيه من ثواب وعقاب .

وقد تكرر هذه التلقين عن طريق الحوار بألفاظ «قالوا وقل» فى كثر من الآيات القرآنية ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) ﴾[٢] .

أى : وقال الكافرون المنكرون ليوم القيامة للنبى ﷺ : أئذا كنا يامحمد عظاما بالية ، ورفاتا يشبه التراب فى تفتته ، أئنا لراجعون إلى الحياة مرة أخرى ؟ قل لهم - أيها الرسول الكريم - كونوا إن استطعتم حجارة أو حديدا أو أى شىء سوى ذلك ،

---

(١) سورة إبراهيم الآية: ٤٤ .

(٢) سورة الإسراء الآية: ٤٩ - ٥٢ .

فإن الله – تعالى – لن يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى لكى يحاسبكم على أعمالكم .

فسيقولون لك : من الذى سيعيدنا إلى الحياة مرة أخرى ؟ قل لهم : سيعيدكم إلى الحياة الله – تعالى – الذى أوجدكم فى هذه الحياة على غير مثال سابق .

ثم بين – سبحانه – ما يكون من هؤلاء الجاهلين من سوء أدب واستهزاء فقال : «أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا ؟ أى فسيحركون إليك رءوسهم عندما يسمعون ردك عليهم ويقولون على سبل الاستهزاء : متى سيأتى ذلك اليوم وهو يوم القيامة ؟ قل لهم : هذا اليوم الذى تنكرونه عسى أن يكون قريب الوقوع ، والله وحده هو الذى يعلم ذلك .

ولا شك فى أنه قريب الوقوع ، لأن لفظ «عسى» فى كلام الله – تعالى – لما هو محقق الوقوع ، وكل ماهو محقق الوقوع فهو قريب «وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون» .

وفى الحديث الشريف يقول ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بإصبعيه السبابه والوسطى . وشبيه بهذه الايات قوله – تعالى – : ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** (٧) ﴾[1] .

وقوله – تعالى – : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ** ﴾[2] .

وقوله – سبحانه – : ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ**

(١) سورة التغابن الآية : ٧ .
(٢) سورة سبأ الآية

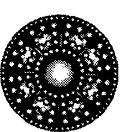
رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾[١] .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآيات ، أن أبىّ بن خلف وكان من زعماء المنافقين جاء إلى النبى ﷺ وفى يده عظم رميم ، فأخذ يفتنه ويذريه فى الهواء ويقول للنبى ﷺ يامحمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال له : ﷺ نعم يهلكك الله ويجعلك مثل هذا التراب ، ثم يبعثك ثم يدخلك النار .

وهكذا نرى أن الحديث فى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة عن اليوم الآخر ومافيه من ثواب وعقاب قد تكرر كثيرا ، وبأساليب تدل على إمكانيته ، وعلى تحقيق وقوعه ، وعلى شدة أهواله ، وقد لقن الله - تعالى نبيه ﷺ الإجابات السديدة والحكيمة ، عند مجادلة المشركين فى شأن هذا اليوم العصيب ، حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، ويقينًا على يقينه بأن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، وحتى يستعدوا له بكل ما يرضى خالقهم من أقوال وأفعال .

(١) سورة يس الآيات : ٧٨ - ٨١ .

العرش - اللوح - الكرسى - اليد



١ - ورددت ألفاظ فى القرآن الكريم يجب علينا أن نؤمن بها ، وفى الوقت ذاته فكل حقيقتها وكيفيتها وصورتها إلى الله - عز وجل - .

ومن هذه الألفاظ : لفظ «العرش» الذى تكرر فى القرآن الكريم أكثر من عشرين مرة[1] ، منها قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾[2] .

ولفظ «العرش» من حيث اللغة يدل على العلو والارتفاع ، يقال : عرشت العنب أعرشه عرشا ، إذا جعلته كهيئة السقف . فالمادة تدل على الرفع ومنها عرش الملك . أى : المكان المرتفع الذى يجلس عليه .

ولفظ «الاستواء» يطلق على معان مشتركة منها : الاستقرار ، كما فى قوله - تعالى - : «واستوت على الجودى» أى : واستقرت عند الجبل المسمى بهذا الاسم .

ومنها : الاستيلاء والسيطرة على الشىء ، كما فى قول الشاعر : «قد استوى بشر على العراق» أى : استولى عليه .

ومنها : القصد كما فى قول العرب : استوى إلى يخاصمنى ، أى : قصد إلى يخاصمنى .

أما الاستواء على العرش - كما جاء فى هذه الآية وفى غيرها - فمذهب سلف الأمة أنه صفة لله - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل لا ستحالة اتصافه - سبحانه - بصفات المحدثين ، ولو جوب تنزيهه عما لا يليق به ، كما قال - سبحانه - : «ليس كمثله شىء وهو السميع البصير» .

(١) راجع المعجم المفهرس للقرآن الكريم : ص ٤٥٦ للمرحوم محمد فؤاد عبد الباقى . .
(٢) سورة الأعراف الآية : ٥٤ .

وأنه يجب الإيمان بهذه الصفات وبتلك الألفاظ كما وردت ، وتفويض العلم بحقيقتها إليه - عز وجل - قال الراغب : وعرش الله مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم ، وليس كما تذهب إليه أوهام العامة .

وعن أم سلمة - رضى الله عنها - فى تفسير قوله - تعالى - : «الرحمن على العرش استوى» أنها قالت : «الكيف غير معقول . والاستواء غير مجهول ، والإقرار به من الإيمان ، والجحود به كفر» .

وقال الإمام مالك : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقال الإمام محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء جميعا على وجوب الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه .

وقال الإمام الرازى : إن هذا المذهب هو الذى نقول به ونختاره ونعتمد عليه .

وذهب بعض علماء الخلف إلى وجوب صرف هذه الألفاظ عن ظاهرها ، وأن المقصود من قوله - تعالى - «ثم استوى على العرش» . استقامة ملكه - تعالى - ، واطراد حكمه ، ونفاذ أمره فى مخلوقاته ، والله - تعالى - قد دل على ذاته وصفاته وكيفية تدبيره للعالم على الوجه الذى ألفه الناس من ملوكهم . واستقر فى قلوبهم تنبيها على عظمته - تعالى - وعلى كمال قدرته ، وذلك مشروط بنفى التشبيه ، لأنه - سبحانه - ، ليس كمثله شىء .

وما قلناه هنا فى لفظ «استوى» وفى لفظ «العرش» نقوله فى كل لفظ من الألفاظ التى وردت فى القرآن الكريم ، ولم يرد فى حقيقة معناها حديث نبوى يعتمد عليه .

٢ - فمثلا يقول الله - تعالى - : ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾(١) معناه : ليس الأمر كما قال الجاحدون من أن القرآن الكريم أساطير الأولين ، بل الحق أن هذا القرآن هو كلام الله - تعالى - البالغ النهاية فى الإعجاز وفى الشرف وفى الرفعة والعظمة ، وانه كائن فى لوح محفوظ من التغيير والتبديل ، ونحن نؤمن إيمانا عميقا بذلك ، إلا أننا نفوض حقيقة هذا اللوح وكيفيته إلى علمه - تعالى - لأنه

(١) سورة البروج الآية: ٢١ ، ٢٢ .

من أمر الغيب الذى تفرد الله بعلمه ، وما قيل فى وصف هذا اللوح لم يرد به حديث نبوى شريف بعتمد عليه .

٣ - ومن هذا القبيل قوله - تعالى - : ﴿ **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ** ﴾[1]

قال الراغب الأصفهانى فى كتابه «المفردات فى غريب القرآن» ص ٤٢٨ : «الكرسى فى تعارف العامة : اسم للشىء الذى يقعد عليه ، وهو فى الأصل منسوب إلى الكِرْس ، أى : الشىء المجتمع ، ومنه الكراسة لأنه تجمع العلم ، وكل مجتمع من الشىء فهو كِرس . .» .

وللعلماء - كما سبق أن أشرنا - اتجاهات مشهوران فى تفسير لفظ الكرسى هنا ، فالسلف يقولون إن لله - تعالى - كرسيا ، علينا أن نؤمن بوجوده وإن كنا لا نعرف حقيقته ، لأن ذلك ليس فى مقدور البشر .

والخلف يقولون : الكرسى المقصود به فى الآية الكريمة : عظم السلطان ونفوذ القدرة ، وسعة العلم ، وكمال الإحاطة . .

٤ - وشبيه بما سبق قوله - تعالى - : ﴿ **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ﴾[2] إن مذهب السلف فى هذه الآية وأمثالها من آيات الصفات ، أنه يجب الإيمان بها ، وتفويض علم معناها إلى الله - تعالى - ، وترك تأويلها مع تنزيهه - عز وجل - عن حقيقتها ، لاستحالة مشابهته - سبحانه - بالحوادث .

أما الخلف فمذهبهم تأويل هذه الصفات على معنى يليق بجلاله ، فيؤولون اليد هنا بالقوة أو بالقدرة . أى : قوة الله - تعالى - وقدرته ونصرته فوق قوتهم وقدرتهم ونصرتهم .

وقد قالوا : إن مذهب السف أسلم ، وإن مذهب الخلف أحكم .

وبعد ، فهذا جانب من السمعيات ، أى : الأمور الغيبية التى لا يمكن للعقل أن يستقل بإدراكها ، وإنما تتوقف معرفتها على ما ثبت عن الصادق المصدوق  .

---

(١) سورة البقرة الآية:٢٥٥ .

(٢) سورة الفتح الآية: ١٠ .

الأخلاق فى الإسـلام

أخلاق الإسلام

جوهر الرسالات :

من الحقائق التى اتفق عليها العقلاء ، أن الرسل الكرام الذين أرسلهم خالقهم - عز وجل - إلى الناس ، وقد جاءوا جميعًا برسالة واحدة فى أصولها وفى جوهرها ، ألا وهى : إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وغرس مكارم الأخلاق فى النفوس .

والدليل على ذلك أن كل نبى بعثه الله - تعالى - إلى قومه ، كانت الكلمة الأولى التى يقولها لهم : «ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره» .

قال - تعالى - : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾[1] .

وقال - سبحانه - : ﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾[2] .

وقال - عز وجل - : ﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾[3] .

وقال - تعالى - : ﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾[4] .

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٥٩ .
(٢) سورة الأعراف الآية : ٦٥ .
(٣) سورة الأعراف الآية : ٧٣ .
(٤) سورة الأعراف الآية : ٨٥ .

وقد أجمل القرآن الكريم هذا المعنى فى آيات كثيرة ، منها قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾[1] .

وكذلك كل نبى بعثه الله - تعالى - إلى قومه ، كانت الكلمة الثانية التى يقولها لقومه : هى دعوتهم إلى التحلى بالفضائل ، والتخلى عن الرذائل ، هى التحلى بمكارم الأخلاق والتخلى عن قبائحها .

خذ - على سبيل المثال - ما قاله - شعيب - عليه السلام - لقومه - وهو خطيب الأنبياء ، كما وصفه رسول الله ﷺ لقد قال لهم كما حكى القرآن عنه - : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) ﴾[2] .

فأنت ترى أن شعيبا - عليه السلام - بعد أن أمر قومه بإخلاص العبادة لله - تعالى - ، نهاهم عن التطفيف فى المكيال والميزان ، وبين لهم العاقبة السيئة التى تترتب على هذه الأخلاق القبيحة .

وانظر إلى هود - عليه السلام - لقد بعثه الله - تعالى - إلى قوم كانوا معروفين بالقوة والغرور والتكبر والتطاول على غيرهم ، فماذا قال لهم .

لقد قال لهم - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) ﴾[3] .

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ٢٥ .

(٢) سورة هود الآية : ٨٤ - ٨٦ .

(٢) سورة هود الآية : ٥٠ - ٥٢ .

وقال لهم فى موطن آخر : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ - أى : بكل مكان مرتفع - آية تَعبثونَ . وتتَّخذونَ مصانعَ - أى : قصورا ضخمة - لعلّكم تخلدون ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) ﴾[١] .

فهذه الآيات الكريمة تدل دلالة واضحة على أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - قد دعوا أقوامهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وإلى اعتناق مكارم الأخلاق .

ولقد بين الرسول ﷺ للناس أن على رأس المقاصد التى بعثه الله - تعالى - من أجل تحقيقها ، غرس مكارم الأخلاق فى النفوس فقال : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

العبادات والأخلاق

إن العبادات التى كلف الله - تعالى - بها عباده ، والتى هى من أركان الإسلام ، لم يشرعها الله - تعالى - عبثا ، وإنما شرعها الله لتثبيت الإيمان فى النفوس ، ولتطهير القلوب ، ولتعويد الإنسان على التمسك بمحاسن الأخلاق وبحميد الخصال ، وبجميل العادات .

والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية التى قررت هذه الحقائق كثيرة ومنها قوله - تعالى - فى شأن الصلاة : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾[٢]

وفى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه قال : سمعت النبى ﷺ يقول : «أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه - أى : من وسخه - شيء؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا» .

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٢٨ - ١٣٥ .

(٢) سورة العنكبوت الآية: ٤٥ .

وفى الحديث القدسى يقول الله - عز وجل - : «إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل بها على خلقى ، ولم يبت مصرا على معصيتى ، وقطع النهار فى ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل ، والأرملة ، ورحم المصاب» .

والزكاة من مقاصدها تزكية النفوس ، وتنقية المشاعر من رذائل البخل والشح والشره قال - تعالى - : ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا** ﴾[1] .

والصيام من غاياته العظمى غرس الخشية من الله - تعالى - فى القلوب والصيانة للنفس عما لا يليق قال - تعالى - : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)** ﴾[2]

والحج من مقاصده جمع المسلمين من مشارق الأرض ومن مغاربها ، للتعارف ، ولتجديد الإخاء والمحبة ، ولتبادل المنافع التى أحلها الله - تعالى - فيما بينهم ، وللإكثار من ذكر الله - تعالى - وعبادته .

قال - تعالى - : ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)** ﴾[3] .

وهكذا نرى أن العبادات التى هى من أركان الإسلام ، إنما شرعت لتعويد المسلم أن يحيا بأخلاق صحيحة ، وأن يظل مستمسكا بهذه الأخلاق ، مهما تغيرت أمامه الظروف .

الدين هو الأخلاق الكريمة

إن الأخلاق التى هى سلوك وسجايا وطبائع وهيئات تتعلق بالإنسان ، إذا حسنت واستقامت وصلحت فى كل ما يصدر عن صاحبها من أقوال أو أفعال ، كانت دليلا

(١) سورة التوبة الآية : ١٠٣ .
(٢) سورة البقرة الآية : ١٨٣ .
(٣) سورة الحج الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .

واضحا ، وبرهانا ساطعا على قوة الإيمان ، وعلى سلامة الوجدان ، وعلى صدق التقيد بما يرضى الخالق - عز وجل - .

بل إن بعض السلف الصالح كان يعتبر الدين هو الأخلاق الكريمة ، ويعتبر الأخلاق الكريمة هى الدين ، فقد فسر ابن عباس - رضى الله عنهما - قوله - تعالى - «وإنك لعلى خلق عظيم» .

بمعنى : إنك - أيها الرسول الكريم - لعلى دين قويم عظيم .

وقال الإمام ابن القيم : الدين كله خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق ، زاد عليك فى الدين .

وقال بعضهم : لكل بنيان أساس ، وأساس الإسلام حسن الخلق .

ولقد جاء رجل إلى النبى ﷺ فوقف بين يديه وقال : يارسول الله ما الدين ؟ فقال له : حسن الخلق ، فأتاه الرجل من جهة يمينه وقال له يارسول الله ، ما الدين ؟ فقال له : حسن الخلق ، ثم أتاه الرجل من جهة شماله وسأله يارسول الله ، ما الدين ؟ فقال له للمرة الثالثة : حسن الخلق . ثم جاءه الرجل من ورائه وسأله يارسول الله ما الدين؟ فالتفت إليه الرسول ﷺ وقال له : أما تفقه ؟ هو ألا تغضب» .

ولقد سأل هشام بن حكيم - رضى الله عنهما - السيدة عائشة - رضى الله عنها - عن خلق رسول الله ﷺ فأجابت بقولها : كان خلقه القرآن .

أى : كان ﷺ متمسكا بآداب القرآن وبأوامره وبنواهيه وبأحكامه وبتوجيهاته .

إنه لمن الحقائق التى اتفق عليه جميع العقلاء : أن الأخلاق الكريم هى ثمرة الإيمان القوى الصادق ، وأن الأخلاق السيئة هى وليدة ضعف الإيمان .

ولقد حضت شريعة الإسلام أتباعها على التمسك بالأخلاق الفاضلة ، وحذرتهم من الوقوع والاقتراب من رذائلها ، وبينت لهم أن حسن الخلق يرفع صاحبه إلى أعلى الدرجات ، بينما سوء الخلق يهوى بصاحبه إلى أسفل الدركات .

والأحاديث النبوية الشريفة التى أكدت هذه الحقيقة كثيرة ومتنوعة .

ومنها ما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن النواس بن سمعان - رضى الله عنه - قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والأثم فقال : «البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه» .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : لم «يكن رسول الله ﷺ فاحشا ولا متفحشا» .

وكان يقول : «إن من خياركم أحسنكم أخلاقا» .

وفى سنن الترمذى عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «ما من شىء أثقل فى ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وإن الله يكره الفاحش البذىء» .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟

فقال : «تقوى الله وحسن الخلق» وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ؟ فقال : «الفم والفرج» .

وعنه - رضى الله عنه قال : «قال رسول الله ﷺ : أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وخياركم خياركم لنسائهم» .

وأخرج أبو داود فى سننه عن عائشة - رضى الله عنها قالت : سمعت الرسول ﷺ يقول «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم» .

وعن جابر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى يوم القيامة ، الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون» .

قالوا : يارسول الله قد علمنا الثرثارين - أى : الذين يكثرون الكلام- والمتشدقون - أى : المتفاخرون فى كلامهم - فما المتفيهقون ؟ فقال - ﷺ - «المتكبرون» .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ قال : «والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن !! قيل من يارسول الله ؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه - أى : شروره»

وفى الصحيحين - أيضا - أن رسول الله ﷺ قال : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» .

وعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وأشرف المنازل ، وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة فى جهنم» .

ماذا نأخذ من هذه النصوص من دروس وعظات ؟

نأخذ منها أن الأفراد والجماعات والأمم التى تتمسك بمكارم الأخلاق رتعتنق الفضائل التى منها الصدق ، والعدل ، والعفاف ، والإخلاص ، والوفاء ، والأمانة ، والحياة ، والصبر والرحمة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. لابد أن تصل إلى ما تصبو إليه من سلام ورخاء وحياة طيبة ، وسعادة فى دنياها وآخرتها ، لأن الله - تعالى - وعد بذلك ولن يخلف الله وعده .

أليس هو القائل - عز وجل - : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً** (٣٠) ﴾[1] .

وأليس هو القائل - سبحانه - : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (٩٧) ﴾[2] .

أما الأفراد والجماعات والأمم التى تنهار فيها الأخلاق الحسنة ، وتشيع فيها الفاحشة ، ويتعامل أفرادها فيما بينهم بالغش ، والكذب ، وخلف الوعد ، وشهادة الزور ، والتقاطع ، وأكل الأموال بالباطل .. فإن مصيرها إلى الضعف والهوان وسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة .

القدوة الحسنة

إن حسن الخلق لا يتأتى عن طريق الأقوال وحدها ، وإنما يتأتى بصورة أكمل

(١) سورة الكهف الآية : ٣٠ .

(٢) سورة النحل الآية : ٩٧ .

وأفضل عن طريق الأسوة الحسنة ، والقدوة الطيبة ، والسلوك الحميد فالأولاد الذين يرون فى آبائهم كل سلوك فاضل ، وكل قول جميل ، ينشأون - فى الأعم الأغلب - وهم يعشقون كل خلق قويم ، وبنفرون من كل اتجاه .

ولقد كان الرسول ﷺ بين أصحابه مثلا أعلى للخلق الذى يدعو إليه ، وكان يغرس فى أصحابه هذا الخلق السامى بسيرته العطرة ، قبل أن يغرسه بما يقوله من حكم وعظات .

قال عنه خادمه أنس بن مالك - رضى الله عنه - : خدمت النبى ﷺ عشر سنين ، والله ما قال لى أف قط ، ولا قال لشىء فعلته لم فعلته ، ولا لشىء تركتُه لم تركتَه .

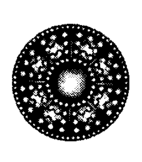
كانت الخادمة تأخذ بيده فتنطلق به إلى السوق ليعاونها فى قضاء ما كلفت به .

كان إذا صافح إنسانا لا ينزع يده من يده حتى يكون ذلك الإنسان هو الذى يبدأ بنزع يده .

وكان إذا جلس بين أصحابه جلس بوقار وتواضع .

وكان يقول لأصحابه : لا تبلغونى عن أحد شيئا أكرهه فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر .

العفاف



هناك ألفاظ عندما تطرق سمع الإنسان العاقل ، يرتاح لها قلبه ، وينشرح لها وجدانه ، ومن هذه الألفاظ : لفظ : العفة ، أو العفاف ، بمعنى الصيانة والبعد عن كل مالا يليق من الأقوال أو الأعمال أو غيرهما .

يقال رجل عفيف ، أى : حابس نفسه على كل ماهو حلال وجميل ، ومنزهها عن كل ماهو حرام أو قبيح .

ويقال : امرأة عفيفة أى : طاهرة نقية تصون عرضها وشرفها عن كل شبه أو دنية .

وجاء فى المعجم الوسيط : «عَف عفة وعفافا ، أى : كف عمالا يَحل ولا يجمل من قول أو فعل ، فهو وعفيف والجمع أعفة وأعفاء .... العفَّة : ترك الشهوات من كل شىء ، وغلب استعكال هذا اللفظ فى حفظ الفرج مما لَا يحل .. والعفيفة : المتصفة بالعفة والجمع عفائف»[1] .

وقد مدح القرآن الكريم الذين يتحلون بخلق العفاف فى مواطن متعدده ، منها قوله - تعالى - ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا .** ﴾ [2] .

أى اجعلوا نفقتكم وصدقتكم - أيها المؤمنون - لهؤلاء الفقراء الذين حصروا أنفسهم ووقفوها على الطاعات وعلى الجهاد فى سبيل الله ، والذين لم يستطيعوا الكسب بسبب مرضهم أو شيخوختهم ، والذين من صفاتهم أنهم إذا نظر اليهم الجاهل بأحوالهم ، يظنهم أغنياء لشدة تعففهم عن سؤال غيرهم ، ولكن صاحب الفراسة والنظرة الثاقبة السديدة ، بمجرد رؤيتهم يعرف أنهم فى حاجة إلى العون والمساعدة ، إذا أنهم يتعففون عن أن يطلبوا من أحد سوى خالقهم العون والمساعدة .

(١) **المعجم الوسيط** : جـ ٢ ص ٦١١ مجمع اللغة العربية .
(٢) **سورة البقرة الآية** : ٢٧٣ .

ففى هذه الآية مدح عظيم لأصحاب تلك النفوس العالية ، التى تعتز بكرامتها الإنسانية ، وتتعفف عن سؤال الناس ، حتى إنهم ليظنهم من لا فراسة عنده أغنياء .

وجاء الحديث عن فضيلة العفاف مرتين فى سورة «النور» تلك السورة الزاخرة بالآيات التى جاءت بالأحكام التى تصون الأعراض والحرمات وتأمر بغض البصر ، واستقامة الجوارح ، أما المرة الأولى ففى قوله - تعالى ﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾(١) .

أى : وعلى المؤمنين والمؤمنات الذين لا يجدون الوسائل والأسباب التى توصلهم إلى الزواج بسبب ضيق ذات اليد أو ما يشبه ذلك ، عليهم أن يتحصنوا بالعفاف ، وأن يصونوا أنفسهم عن الفواحش ، وأن يستمروا على ذلك حتى يرزقهم الله - تعالى - من فضله رزقا يستعينون به على إتمام الزواج .

فهذه الجملة الكريمة ، وعد من الله - تعالى - للتائقين إلى الزواج ، العاجزين عن تكاليفه ، بأنه - سبحانه - سيرزقهم من فضله رزقا طيبًا حلالا يستعينون به على إتمام الزواج الذى يزيدهم عفة وحصانة .

وأما المرة الثانية ففى قوله - سبحانه - : ﴿ **وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)** ﴾(٢) .

والقواعد : جمع قاعد - بغير تاء - لاختصاص هذه الكلمة بالنساء كحائض . قالوا : وسميت المرأة المتقدمة فى السن بذلك ، لأنها تكثر القعود لكبر سنها .

أى : ومن شأن النساء اللئى تقدمن فى السن ، ولا رغبة لهن فى الزواج أنهن لا حرج عليهن أن يتخففن من ملابسهن التى يؤدى التخفف منها إلى إظهار شىء من جسدهن أمر الله - تعالى - بستره ، وعليهن أن يخفين ما أمر الله - تعالى - بإخفائه من زينتهن .

---

(١) سورة النور الآية : ٣٣ .

(٢) سورة النور الآية : ٦٠ .

ومن الأفضل لهن ، والأليق بهن ، أن يلزمن العفاف ، بأن يبقين ثيابهن التى تمتاز بالاحتشام والوقار بدون خلع ، فذلك أطهر لقلوبهن ، وأبعد عن التهمة ، وأنفى لسوء الظن بهن .

وسمى الله - تعالى - إبقاء ثيابهن عليهن استعفافا ، أى : طلبًا للعفة ، للإشعار بأن الاحتشام والتستر ، خير للمرأة ، حتى ولو كانت من القواعد !!

فهل رأيت دعوة إلى العفاف والطهارة أحكم وأوضح من هذه الدعوة الربانية !!

ولقد أعطانا القرآن الكريم ، أروع صورة للعفة الجنسية فى قصة يوسف - عليه السلام - مع امرأة العزيز ، حيث يقول - عز وجل - عنهما : ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣)** ﴾[1] .

والمراودة - كما يقول الكشاف - مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب كأن المعنى خادعته عن نفسه ، أى : فعلت معه ما يفعله المخادع لصاحبه عن الشىء الذى لايريد أن يخرجه من يده . . .

والمعنى : وحاولت امرأة العزيز مرة تلو أخرى إغراء يوسف - عليه السلام - الذى يعيش معها فى بيتها ، أن يستجيب لهواها ، وأن يلبى لها رغبتها ، وبلغ بها الحال أن غلقت أبواب بيت سكناها الذى تبيت فيه بابًا بابًا ، ثم أضافت إلى كل ذلك أن قالت له (هيت لك) أى : هأنذا مهيأه لك وهذه الدعوة السافرة منه له ، تدل على أن تلك المرأة كانت قد بلغت النهاية فى الكشف عن رغبتها ، وخرجت عن المألوف من بنات جنسها ، فقد جرت العادة أن تكون المرأة مطلوبة لا طالبة .

وقولله - سبحانه - (قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون) بيان لما رد به يوسف عليها ، بعد أن تجاوزت فى إثارته كل حد .

أى : قال لها أعوذ بالله مما تطلبينه منى ، وأعتصم به اعتصامًا شديدا مما تحاولينه معى ، فإن ما تطلبينه يتنافى مع الدين والعفاف والشرف ، ولا يفعله إلا من خبث منبته . . .

---

(١) سورة يوسف الآية: ٢٣ .

ولقد أكرمنى الله - تعالى - أعظم إكرام حيث نجانى من الهلاك وأنا فى الجب ، وأكرمنى زوجك بالإحسان إلى فيجب على أن أصون عرضه وشرفه ، وإن كل من يرتكب ما نهى الله عنه يكون مصيره الخسران .

والمتأمل فى هذه الاية الكريمة ، يرى أن القرآن قد قابل دواعى الغواية الثلاث التى جاهرت بها امرأة العزيز - والمتمثلة فى المراودة ، وتغليق الأبواب ، وقولها هيت لك - بدواعى العفاف الثلاث التى رد بها عليها يوسف - عليه السلام - والمتمثلة فى قوله - كما حكى القرآن عنه - معاذ الله ، إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون .

وهكذا يصون الخالق - عز وجل - عباده المخلصين ، من كل ما يسوء ويؤذى ويشين .

العفاف فى السنة النبوية المطهرة

ولقد مدح ﷺ أيضا ـ المتعففين عن سؤال الناس فى أحاديث متعددة منها ما جاء فى الصحيحين - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال . قال ﷺ : «ليس المسكين الذى ترده اللقمة واللقمتان ، ولا التمرة ولا التمرتان ، إنما المسكين الذى يتعفف» .

وفى الصحيحين - أيضا - أن رسول الله ﷺ قال : «ليس الغنى عن كثرة العروض ، ولكن الغنى غنى النفس» .

وفى حديث ثالث أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : «قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه» .

ولقد بلغ من عفاف الصحابة - رضى الله عنهم - أن الواحد منهم كان إذا لمس من النبى ﷺ إشارة إلى أن التطلع إلى التكثر من المال لا يليق يعاهد الرسول ﷺ على أنه لن يسأل أحدا بعده ، ففى الصحيحين عن حكيم بن حزام - رضى الله عنه - قال : سألت الرسول ﷺ فأعطانى ، ثم سألته فأعطانى ، ثم سألته فأعطانى ، ثم قال : «ياحكيم هذا المال خَضِر حلو ، فمن أخذه بسخاوة نفس - أى ، بعفاف وقناعة - بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس - أى ، بطمع وشره - لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى» .

قال حكيم : فقلت يارسول الله ، والذى بعثك بالحق لا أَرْزَأ - أى : لا أسأل - أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا ، فكان أبو بكر يدعو حكيما ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئا ، ثم إن عمر دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله .

فقال عمر : يامعشر المسلمين أشهدكم على «حكيم» أنى أعرض عليه حقه الذى قسمه الله له فى هذه الفىء فيأبى أن يأخذه ، فلم يرزأ حكيم أحدا من الناس بعد النبى ﷺ حتى توفى» .

وفى الصحيحين - أيضا - أن رسول الله ﷺ قال : «ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله» .

هذا ، ومن الأحاديث النبوية الشريفة ، التى دلت على أن خلق العفاف متى استقر فى النفس ، سما بصاحبها إلى أرفع الدرجات وأعلاها ، ماجاء فى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال : اشترى رجل من رجل عقارا ، فوجد المشترى فيه جَرة فيها ذهب . فقال للبائع : خذ ذهبك منى ، إنما اشتريت منك الأرض ولم أبتع - أى : ولم اشتر - منك الذهب !!

فقال الذى شرى الأرض - أى : باع الأرض : إنما بعتك الأرض وما فيها .

فتحاكما إلى رجل فقال لهما : ألكما ولد ؟ فقال أحدهما : لى غلام . وقال الآخر لى جارية . فقال لهما : أنكحوا الغلام الجارية ، وأنفقوا على أنفسكما منه وتصدقا - أى : من هذا الذهب - .

تُرى أيوجد عفاف أسمى وأعظم من هذا العفاف ؟ أيوجد تنزه عن الشبهات أشد من هذا التنزه ؟ قل للذين يأكلون المال الحرام أكلا لما ، توبوا إلى رشدكم ، وخذوا العبر والعظات من هذه النصوص الإسلامية التى جاء بها الرسول ﷺ من عند الله الواحد القهار .

ومن الآيات القرانية التى دعا فيها الخالق - عز وجل - عباده إلى العفاف قوله - تعالى - فى شأن المحافظة على أموال اليتامى ، ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ

فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦)﴾[١] .

والمعنى ، عليكم - أيها الأولياء والأوصياء - أن تختبروا اليتامى ، وذلك يتتبع أحوالهم فى الاهتداء إلى ضبط الأمور ، وحسن التصرف فى الأموال وبتمرينهم على ما يليق بأحوالهم ، حتى لا يجىء وقت بلوغهم إلا وقد صاروا قى قدرتهم أن يتصرفوا فى أموالهم تصرفا حسنا ، فإن شاهدتهم وأحسستهم منهم «رشدا» أى ، صلاحا فى عقولهم ، وحفظا لأموالهم ، فادفعوها إليهم من غير تأخير أو مماطلة . .

ومن كان منكم - أيها الأولياء والأوصياء - غنيا فليستعفف ، أى : فليتنزه عن أكل مال اليتيم ، وليقنع بما منحه الله - تعالى - من رزق وفير ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ، بأن يأخذ من مال اليتيم على قدر حاجته الضرورية . . .

فإذا ما دفعتم إلى اليتامى أموالهم فأشهدوا عليهم عند الدفع ، لأن هذا الاشهاد أبعد عن التهمة ، وأنفى للخصومة ، وكفى بالله - تعالى - محاسبا لكم على أعمالكم .

وقد جاءت أحاديث متعددة تؤكد ما أمرت به الآيات القرآنية التى تدعو إلى التعفف عن مال اليتيم ، ومنها ، ماجاء فى الصحيحين عن سهل ابن سعد - رضى الله عنه - قال رسولل الله ﷺ «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى وفرّج بينهما» .

ومنها : ما رواه النسائى عن أبى شريح خويلد بن عمرو الخزاعى - رضى الله عنه - قال : قال النبى - ﷺ - «اللهم أنى أحرج حق الضعيفين اليتيم والمرأة» .

ومعنى «أحرج» : ألحق الحرج والإثم بمن ضيع حقهما ، وأحذر من ذلك تحذيرا بليغًا ، وأزجر عنه زجرا أكيدا .

ولقد أمر النبى ﷺ أتباعه بغض البصر ، وباجتناب كل ما يثير الشهوات

(١) سورة النساء الآية : ٦ .

المحرمة ، وبالعفاف الذى يحمى المسلم من كل علاقة سيئة بين الرجال وبين النساء ، ومن الأحاديث النبويةالشريفة التى وردت فى ذلك ، ما جاء فى الصحيحين عن عقبة بن عامر - رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ قال : «إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحَمَ يارسول الله ؟ فقال - ﷺ - : «الحم الموت» .

ولفظ «الحم» يطلق على أقارب الزوجة كالأخ وابن العم ، والمقصود أن دخول غير المحارم على النساء اختلاءهن بهن قد يؤدى إلى ارتكاب الفواحش ، التى بدورها قد تؤدى إلى القتل لمن ارتكبها .

وروى الطبرانى والحاكم عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال فيما يرويه عن ربه : «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، من تركها خوفا منى أبدلته إيمانا يجد حلاوته فى قلبه» .

وروى الإمام أحمد والطبرانى عن أبى أمامة - رض الله عنه - عن النبى - ﷺ - أنه قال «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ، ثم يغض بصره ، إلا أحدث الله - تعالى - له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه» .

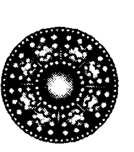
وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - أنه قال . «إياكم والجلوس فى الطرقات !! قالوا يارسول الله ، مالنا من مجالسنا بُد نتحدث فيها . فقال : فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه . قالوا وما حق الطريق ؟ قال غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

الخلاصة

إن الله - تعالى - يحب لعباده أن يتحلوا بالعفاف فى كل مجال من مجالات الحياة ، يحب لهم أن يتحلوا بالعفاف فى مجال الشهوة ، وفى مجال البعد عن الحرام وعن الشبهات ، وفى مجال السمع والبصر ، وفى مجال القول والفعل ، وفى مجال المعاملات المالية مع الغير ، وفى مجال المحافظة على الكرامة الإنسانية ، وفى الحديث الشريف : «ومن يستغن يغنه الله ، ومن يستعفف يعفه الله» .

العدل أساس الملك

العدل فضيلة:



لفظ العدل معناه : الإنصاف ، وهو إعطاء المرء ماله ، وأخذ ما عليه ، يقال فلان عادل فى حكمه ، إذا أعطى كل إنسان حقه دون محاباة أو ظلم ، وقد جاء فى بعض الآثار : بالعدل قامت السموات والأرض .

أى : بالعدل والإنصاف والمساواة بين الناس فى كل ما تجب فيه المساواة ، ينتظم هذا الكون ، ويسعد الناس فى تبادل المنافع التى أحلها الله - تعالى - فيما بينهم .

العدل من صفات الله - تعالى :

وفضيلة العدل من صفات الله - تعالى - لأنه منزه عن الظلم قال - تعالى- ، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾[1] .

وقال - سبحانه- : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾[2] .

وقال - عز وجل - : ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾[3] .

وقد أمر الله - تعالى - رسوله محمدًا- ﷺ - أن يلتزم العدل فى كل أقواله وأعماله ، فقال : ﴿ **فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ﴾[4] .

(١) سورة النساء: الآية ٤٠ .
(٢) سورة يونس: الآية ٤٤ .
(٣) سورة الكهف: الآية ٤٩ .
(٤) سورة الشورى: الآية ١٥ .

بل إن الله - تعالى - قد أمر رسوله بالتزام العدل فى الأحكام حتى مع غير المسلمين ، فقد قال -تعالى - : ﴿ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (١).

وكما أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بالعدل ، أمر الناس جميعاً بذلك ؛ لأن كل خطاب للرسول - ﷺ - هو خطاب لأمته إلا فى الخصوصيات .

أمرنا الله - تعالى - بالعدل فى القول فقال : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ (٢) .

وأمرنا - سبحانه - بالعدل فى الأحكام فقال : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ... ﴾ (٣).

وأمرنا - عز وجل - بالعدل فى الشهادة فقال : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ... ﴾ (٤).

وأمرنا بالعدل فى كتابة الديوان فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ... ﴾(٥) .

وأمرنا - سبحانه - بالتزام العدل عند الإصلاح بين الناس فقال : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾(٦) .

وأمرنا - عز وجل - أن نكون عادلين حتى مع الأعداء فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٧).

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٢ . (٢) سورة الأنعام: الآية ١٥٢ . (٣) سورة النساء: الآية ٥٨ .
(٤) سورة الطلاق: الآية ٢ . (٥) سورة البقرة: الآية ٢٨٢ . (٦) سورة الحجرات: الآية ٩ .
(٧) سورة المائدة: الآية ٨ .

أى : يا من آمنتم بالله - تعالى - وبرسوله إيمانا حقاً ، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم أن تقوموا لله - تعالى - وحده بالحق فى كل ما يلزمكم القيام به ، ومن العمل بطاعته ، واجتناب منهياته ، وليكن من دأبكم وشأنكم - أيضا - أن تلتزموا العدل فى شهادتكم ، ولا يحملنكم بغضكم الشديد لقوم على عدم العدل معهم ، فإن عدم العدل فى الأقوال والأحكام ، يتنافى مع تعاليم دين الإسلام ، الذى آمنتم به ، ورضيه الله لكم دينا .

وقوله - تعالى - : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » . تصريح بوجوب التزام العدل ، بعد ما علم من النهى عن تركه فى قوله : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » للتأكيد على وجوب اعتناقهم لفضيلة العدل ، ولبيان العلة فى تكليفهم بذلك .

أى : التزموا - العدل - أيها المؤمنون - فى كل أحوالكم ، فإن العدل مع الأعداء ومع غيرهم أقرب إلى اتقاء المعاصى ، وإلى صيانة النفس عن الوقوع فى المهالك .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾[1] .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم قد دعا إلى التزام فضيلة العدل فى شتى الأقوال ، والأفعال ، والسلوك ، فأخبرنا بأن العدل من صفات الله - عز وجل - ، وهو وظيفة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ثم أمرنا بالعدل فى الحكم وفى القول وفى الكتابة وفى الشهادة وفى الإصلاح بين الناس ، ومع العدو ومع الصديق ، ومع الغنى ومع الفقير ، ومع القريب ومع البعيد .

الظلم رذيلة :

وإذا كانت فضيلة العدل فى أسمى درجات الكمال ، فإن رذيلة الظلم فى أحط دركات النقصان .

---

(١) سورة النساء: الآية ١٣٥ .

والظلم - كما يقول الراغب فى مفرداته : » وضع الشى فى غير موضعه المختص به ، إما بنقصان أو بزيادة ، وإما بعدول عن وقته أو مكانه . . . والظلم يقال فى مجاوزة الحق . . ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز ، ولهذا يستعمل فى الذنب الكبير وفى الذنب الصغير[1] .

والذى يتدبر القرآن الكريم يجد أن تحريم الظلم ، والعذاب الشديد عليه ، قد ورد فى مئات الآيات فتارة يبين لنا القرآن أن الظلم يؤدى إلى سوء المصير فى الدنيا والآخرة .

قال - تعالى - : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[2] .

وقال - سحانه - : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾[3] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [4] .

وتارة ينهانا عن الاقتراب منهم فيقول : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [5] .

وتارة يخبرنا بأن الظالمين لن يقبل عذرهم يوم الحساب فيقول : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [6] .

وتارة يرشدنا إلى أن الظلم سيؤدى إلى الخسران فيقول : ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [7] .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٣١٥ للراغب الأصفهانى .
(٢) سورة الأنعام: الآية ٤٥ . (٣) سورة الكهف: الآية ٥٩ .
(٤) سورة يونس: الآية ١٣ . (٥) سورة هود: الآية ١١٣ .
(٦) سورة الروم: الآية ٥٧ . (٧) سورة الأعراف: الآيتان ٨ ، ٩ .

وتارة يصرح بأن الظلم عاقبته الخيبة فيقول : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾(١) .

وتارة يلفت أنظارنا إلى أن رحمة الله - تعالى - بالناس ، هى التى منعت نزول العذاب بهم مع ظلمهم فيقول : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٢) .

وتارة يبين لنا أن الظلم يؤدى إلى خراب الديار ، وانهيار البنيان فيقول : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

فأنت ترى فى هذه الآيات الكريمة ألوانا من التهديد والوعيد والتحذير ومن سوء المصير ، لأولئك الذين يعتدون ويظلمون ويفسدون فى الأرض ولا يصلحون .

أنواع العدل:

وقد اتفق العقلاء على أن العدل أنواع ، كما أن الظلم كذلك أنواع . .

فمن ألوان العدل لون تحكم العقول السليمة دائما بحسنه ، وهم المتمثل فى الإحسان إلى كل من أحسن إليك ، وفى كف الأذى عمن كف أذاه عنك .

قال - تعالى - : ﴿ هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسانَ ﴾ .

أى : ما جزاء الإحسان إلا الإحسان .

وقال - سبحانه - : ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٤) .

ونوع آخر أباحته شريعة الإسلام ، ومن أمثلته رد العدوان ، وتأديل الظالم ،

(١) سورة طه: الآية ١١١ . (٢) سورة النحل: الآية ٦١ .
(٣) سورة النمل: الآية ٥٢ . (٤) سورة التوبة : الآية ٧ .

واحتقار المغرور « ومقابلة المسىء بالعقوبة الرادعة التى تحمى أموال الناس وأعراضهم من شروره قال - تعالى - : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[1] .

أى : وقاتلوا - أيها المؤمنون - من أجل إعلاء كلمة الحق أعداءكم الذين أعدوا أنفسهم لقتالكم ، ولا تتجاوزوا فى قتالهم إلى من ليس شأنهم قتالكم ، كنسائهم ، وصبيانهم ، ومرضاهم ، والطاعنين فى السن من أعدائكم و واعلموا أن الله - تعالى - لا يحب المخالفين عن أمره ، المتجاوزين لحدوده .

وقال - سبحانه - : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [2] .

أى : إذا اعتدى عليكم المشركون فى الأشهر الحرم ، فدافعوا عن أنفسكم ، وردوا عدوانهم فى أى زمان أو مكان يقع فيه العدوان منهم عليكم ، فقد أباحت لكم شريعة الإسلام أن تقاتلوا من اعتدى عليكم وظلمكم ، بما يردعه ويخيفه ويهلكه إذا اقتضى الأمر ذلك .

وقال - تعالى - : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[3] .

أى : ولكم - أيها المؤمنون - فى عقوبة المعتدى عقوبة عادلة رادعة تمنعه من العدوان ، حياة عظيمة ، يظلها الأمان والسلام والرخاء والاطمئنان ؛ لأن المعتدين إذا لم يعاقبوا بما يمنع عدوانهم ، صارت الحياة فوضى ، وظلم القوى الضعيف ، وعم الفساد فى الأرض .

وإذاً فالاعتداء على المعتدى ، ومقابلة المسىء بالإساءة من قبيل العدل وليس من قبيل الظلم .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٠ . (٢) سورة البقرة: الآية ١٩٤ . (٣) سورة البقرة: الآية ١٧٩ .

سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١) .

ففى هذه الآيات الكريمة بين الله - تعالى - أن من صفات المؤمنين الصادقين أنهم ينتصرون لدينهم وكرامتهم من الباغين والظالمين ، وأنهم يقابلون عدوانهم بما يزيله ويمحقه ، وأنهم يعفون عند المقدرة ، وعندما تكون الحكمة والمروءة تقتضى ذلك ، وأن من انتصر لدينه وعرضه بعد ظلم الظالم له ، فلا حرج عليه لأنه باشر حقه الذى شرعه الله ، وأن المؤاخذة والمعاقبة إنما هى لمن يظلمون الناس ، ويبغون فى الأرض بغير الحق .

أقسام الظلم:

وأما أقسام الظلم فهى ثلاثة : الأول - كما يقول الراغب فى مفرداته : ظلم بين الإنسان وخالقه ، وأعظمه الشرك والكفر والنفاق ، ولذا قال - سبحانه - : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

والثانى : ظلم يقع بين الإنسان وغيره من الناس ، بأن يسىء إليهم ، أو يأخذ شيئا من حقوقهم .

قال - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣) .

والثالث : ظلم يقع بين الإنسان ونفسه ، بأن يتركها وهواها ، بحيث تقع فى الفواحش والآثام دون أن يحاسبها أو يمنعها من ذلك .

قال - تعالى - : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الشورى: الآيات ٣٩ - ٤٢ .
(٢) سورة لقمان: الآية ١٣ .
(٣) سورة الشورى: الآية ٤٢ .
(٤) سورة فاطر: الآية ٣٢ .

الترغيب فى العدل والترهيب فى الظلم:

ولقد أمر النبى ﷺ أتباعه بتحرى العدل ، ونهاهم عن كثير من أحاديثه عن الظلم ، ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن جابر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » .

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليملى للظالم - أى : ليمهل الظالم - فإذا أخذه لم يُفلته » .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : أتدرون من المفلس ؟ قالوا يا رسول الله : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال ﷺ : «المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » .

وعن أبى أمامة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : من اقتطع - أى : أخذ - حق امرئ مسلم فقد أوجب الله له النار ، وحرم عليه الجنة » . فقال رجل : وإن كان شيئاً يسيرا يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « وإن كان قضيبا من أراك » - أى : من شجر يؤخذ منه السواك .

وفى الحديث القدسى الذى رواه النبى ﷺ عن ربه : يقول الله - عز وجل - : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا . . . » .

والتزام العدل فى الأقوال وفى الأفعال ، وفى الأمور المادية التى يسهل وزنها وضبطها ، وفى الأمور العقلية والمعنوية التى يصعب وزنها ، ويحتاج ضبطها إلى جهد شديد .

التزام العدل فى كل ذلك يتحقق عند من أعطاهم الله - تعالى - الإيمان القوى ، والعزم الفتى ، والعقل الراجح ، والعلم النافع ، والقلب الشجاع الثابت على الحق .

لقد حدث فى العهد النبوى أن رجلا اسمه طعمة بن أبيرق ، سرق درعا من جار له اسمه قتادة بن النعمان ، ثم خبأها عند رجل من اليهود اسمه زيد بن السمين .

فسأل قتادة طعمة عنها فأنكرها ، وزعم أنه لا علم له بها ، فأخذ قتادة يبحث عنها حتى وجدها عند اليهودى ، وسأله فقال : دفعها إلى طعمة ، ورفع الأمر إلى النبى ﷺ فأحضر ﷺ طعمة وسأله أأنت سرقت هذه الدرع ووضعتها عند زيد بن السمين فأنكر ذلك ، وسأل ﷺ زيد بن السمين أعندك شهود على أن طعمة قد وضعها عندك ؟ فقال لا . وجاء أقارب طعمة يدافعون عنه .

وأمام هذه القضية الملتبسة نزل القرآن الكريم ليحق الحق ويبطل الباطل ؛ ليقيم العدل ويمنع الظلم نزل قول - تعالى - : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا** ﴾ .

ثم أخذ القرآن فى توبيخ الذى يستحون من الناس ولا يستحون من الله فقال : ﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا** ﴾ .

ثم وبخ - أيضا - الذين يدافعون عن غيرهم بالزور والباطل فقال : ﴿ **هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً** ﴾ .

ثم فتح - سبحانه - للخائنين باب التوبة ، وبين أن الأفعال السيئة يعود ضررها إلى صاحبها وحده ، وأنذر الذين يرتكبون ما نهى الله عنه ، ثم يلصقونه بغيرهم بسوء العاقبة فقال : ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا** ﴾ .

ثم ختمت هذه الآيات ببيان فضل الله - تعالى - على نبيه محمد ﷺ فقال - سبحانه - : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (١) .

والحق أن المتأمل فى هذه الآيات الكريمة ليراها تهدى الناس إلى العدل الذى لا يميل مع الهوى ، ولا مع العصبية ، ولا يتأرجح مع الحب أو البغض ، ولو كان الذى عليه الحق ممن يظهرون الإسلام ، والذى له الحق من غيرهم .

تُرى أتوجد عدالة تقترب من هذه العدالة فى سموها ونقائها واستقامة منهجها ؟

إن هذه الأبيات لتشهد أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - لأن البشر مهما استقامت طباعهم ، ليس فى استطاعتهم أن يصلوا إلى هذا المستوى الرفيع الذى تشير إليه الآيات ، والذى يكشف لكل عاقل أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

ولقد سار السلف الصالح على هذا الهدى الكريم الذى يحقق العدل ويزهق الظلم .

فهذا أمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضي الله عنه - يوصى الأشتر النخعى الذى ولاه على مصر بقوله : « أنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ، ومن لك فيه هوى على رعيتك ، فإنك إن لم تفعل تكن ظالما ، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه ، ومن خاصمه الله أبطل حجته ، وليس شىء أدعى إلى تغيير النعمة وتعجيل النقمة من الظلم ، فإن الله - تعالى - يسمع دعوة المظلومين ، وهو للظالمين بالمرصاد » .

ورحم الله القائل : « إن الله - تعالى - يقيم الدولة الكافرة مع العدل ، ولا يقيم الدولة المسلمة مع الظلم » .

ولقد قال بعض الحكماء : « لا ملك إلا بالرجال ، ولا رجال إلا بالمال ، ولا مال إلا بالتعمير ، ولا تعمير إلا بالعدل ، فالعدل أساس الملك » .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعاً ممن يلتزمون فضيلة العدل ، وينبذون رذيلة الظلم .

---

(١) سورة النساء: الآيات ١٠٥ - ١١٣ .

عليكم بالصدق

كلمة الصدق من الكلمات التى تطرق السمع ، فيرتاح لها القلب ، وتنشرح بها النفس ، وتهفو إليها االمشاعر ؛ لأنها كلمة جميلة تدل فى أصلها اللغوى على القوة والثبات . يقال : رمح صدق أى : صلب متين . والصدق بفتح الصاد مع التشديد : الكامل من كل شىء .

وقد عرف العلماء الصدق بأنه مطابقة ما ينطق به اللسان ، لما هو مستكن فى القلب والوجدان ، وبذلك يكون القول تام الصدق .

أما إذا قال الإنسان كلاماً بلسانه يخالف ما فى ضميره وما فى نفسه ، فلا يكون صادقا ، بدليل أن المنافقين كانوا يقولون بألسنتهم للرسول ﷺ نشهد إنك رسول الله ، ومع هذا كذَّبهم الله - تعالى - ولعنهم ؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم .

قال - تعالى - : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله » وهذا كلام صادق من جهة الواقع ، إلا أن الله - تعالى - أخبر وشهد بأنهم كاذبون وكذبهم ليس من جهة النطق باللسان ، ولكنه من جهة ما تضمره قلوبهم ، وما تخفيه نفوسهم الخبيثة من خداع وعداوة للرسول ﷺ .

وإذا قال الناس إن فلانا صادق ، فمعنى ذلك أنه يخبر بلسانه عما هو مستقر فى قلبه ، أما إذا قالوا بأن فلانا صديق فمعناه ، أنه ملازم للصدق فى أقواله وفى أفعاله وفى كل أحواله .

قال - تعالى - : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾(1) .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (2) .

(1) سورة مريم: الآية 41 .

(2) سورة مريم: الآيتان 56 ، 57 .

وقال - عز وجل - : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾[1] .

أى : أمه مريم موصوفة بملازمة الصدق والعفاف والطهارة فى كل أقوالها وأعمالها وسلوكها .

وكثيرا ما نرى القرآن الكريم يطلق فضيلة الصدق على كل قول طيب ، وعلى كل فعل جميل سواء أكان ظاهراً أم باطناً .

ومن الآيات القرآنية التى قررت هذه الحقيقة قوله - تعالى - : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾[2] .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - متضرعا إلى ربك : يا رب أدخلنى إدخالا مرضيا صادقا فى كل ما أدخل فيه من أمر أو مكان ، وأخرجنى كذلك إخراجا طيبا صادقا من كل أمر أو مكان ، واجعل لى - يا إلهى - من عندك حجة تنصرنى بها على من خالفنى ، وقوة تعيننى بها على إقامة دينك وإزالة ما سواه .

ومن الدعوات التى حكاها القرآن على لسان إبراهيم - عليه السلام - قوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾[3] .

أى : يا رب هب لى علما واسعاً مصحوبا بعمل نافع ، وألحقنى فى الجنة بعبادك الصالحين واجعل لى ذكرا حسنا .

أى سمعة طيبة ، وأثرا كريما فى الأمم التى ستأتى من بعدى ، وقد أجاب - سبحانه - دعاء نبيه إبراهيم ، فجعل من ذريته الأنبياء والصالحين ، وعلى رأسهم سيدنا محمد ﷺ .

كذلك من الآيات القرآنية التى تدل على أن فضيلة الصدق تطلق على كل فل فاضل قوله - تعالى - : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾[4] .

---

(١) سورة المائدة: الآية ٧٥ .

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٠ .

(٣) سورة الشعراء: الآيتين ٨٣ ، ٨٤ .   (٤) سورة يونس: الآية ٢ .

أى : وبشر الذين آمنوا أن لهم سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم ، جزاء أعمالهم الصالحة فى الدنيا .

وقال - سبحانه - : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (1) .

أى : فى مكان مرضى ، وفى مجلس كريم ، لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة .

وفضيلة الصدق صفة من صفات الله - تعالى - وهذا يدل على سمو مكانتها وعلو شأنها .

قال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ (2) ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾(3)

أى : لا أحد أصدق فى الحديث وفى القول من الله - عز وجل - .

وهى - أيضا - صفة من صفات رسوله محمد ﷺ قال - تعالى - : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (4) .

وهى كذلك صفة من صفات الرسل جميعاً ، كما قال - تعالى - : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (5) .

ولقد قرر كل ذى عقل سليم ، أن على رأس الصفات الواجبة فى حق الرسل جميعاً ، صفة الصدق .

الصادق الأمين:

وكان الرسول ﷺ حتى قبل بعثته ﷺ يلقب بالصادق الأمين فلما بعثه الله - تعالى - رحمة للعالمين ، ازداد تمسكا بهذه الفضيلة ، وشهد له أعداؤه بذلك ، بدليل أن أبا سفيان - وكان مازال كافرا - عندما سأله هرقل ملك الروم أسئلة معينة

(1) سورة القمر: الآيتين ٥٤ ، ٥٥ .
(2) سورة النساء: الآية ١٢٢ .
(3) سورة النساء: الآية ٨٧ .
(4) سورة الأحزاب: الآية ٢٢ .
(5) سورة يس: الآية ٥١ ، ٥٢ .

عن الرسول ﷺ وكان منها : بماذا يأمركم هذا النبى ؟ فقال أبو سفيان : يأمرنا بعبادة الله وبالصلاة وبالصدق .. فقال له : وهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقال أبو سفيان : لا .

فرد عليه هرقل بقوله : ما كان ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله !!

ولقد مدح الله - تعالى - عباده المؤمنين بهذه الصفة ، وأمرهم بالثبات عليها فقال : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ (١).

وقال - سبحانه - : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ (٢).

ولقد تكاثرت الأحاديث النبوية الشريفة التى تحض المسلم على التحلى بفضيلة الصدق ، ومنها ما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق ، حتى يكتب عن الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

ففى هذا الحديث الشريف دعوة قوية إلى التحلى بصفة الصدق ، والمداومة عليها ؛ لأنها تؤدى فى النهاية إلى أطيب الثمرات ، وأعلى الدرجات .

أما الكذب فيؤدى إلى الخروج عن الطاعات ، وإلى اكتساب السيئات وإلى أقبح الدركات .

وفى سنن الترمذى عن على بن أبى طالب - رضي الله عنه - أنه قال : حفظت من رسول الله ﷺ قوله : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينية ، وإن الكذب ريبة » .

ولقد أخبرنا ﷺ **بأن الصدق كما يكون فى الأقوال** ، يكون فى النيات ،

(١) سورة الحجرات: الآية ١٥ .
(٢) سورة التوبة: الآية ١١٩ .

ويكون فى المعامالات ، ويكون فى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الحق ، ويكون فى كل سلوك يرضى الله - تعالى .

يكون فى النيات بدليل قوله ﷺ فى الحديث الذى أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن سهل بن حنيف - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « من سأل الله - تعالى - الشهادة بصدق ، بلغه الله منازل الشهداء وإن مات فى فراشه » .

ويكون فى المعاملات بدليل قوله ﷺ كما جاء فى الصحيحين عن حكيم بن حزام - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » .

أى : أن البائع والمشترى إذا صدقا فى تعاملهما بارك الله لهما فى أموالهما أما إذا كذبا فى أقوالهما وفى سلوكهما ، وكتما ما لا يجوز كتمانة فى السلعة التى يتعاملان فيها ذهبت بركة أموالهما ولم يحصلا إلا التعب .

ويكون فى القتال من أجل إعلاء كلمة الحق ، بدليل أن أنس بن النضر - رضي الله عنه - الذى عاهد الله على الصدق فى الجهاد ، ثم استشهد فى غزوة أحد ، ووجد بجسده أكثر من ثمانين طعنة برمح أو ضربة بسيف ، فيه وفى أمثال نزل قوله - تعالى - :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾[1] .

ويكون الصدق فى كل سلوك يرضى الله - تعالى - بدليل قوله ﷺ : « تحروا الصدق ، وإن رأيتم فيه الهلكة فإن فيه النجاة » .

الصدق منهج تربوى إسلامى :

ولقد أمرت شريعة الإسلام أتباعها أن يغرسوا فضيلة الصدق فى أولادهم منذ الصغر ؛ لأن من شب على شىء شاب عليه ، ولأن من تعود الفضائل فى صغره سار عليها فى كبره .

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٣ .

فقد روى أبو داود فى سننه عن عبد الله بن عامر - رضي الله عنه - قال : دعتنى أمى يوما ، ورسول الله ﷺ قاعد فى بيتنا ، فقالت لى : ها تعال أعطك .

فقال لها النبى ﷺ يا أم عبد الله ، ما أردت أن تعطيه ؟ قالت : يا رسول الله ، أردت أن أعطيه تمرا .

فقال لها : « أمَا إنك لو لم تعطه شيئا لكتبت عليك كذبة » .

وهكذا يلفت الرسول ﷺ أنظار الآباء والأمهات إلى وجوب غرس فضيلة الصدق فى قلوب أولادهم منذ الصغر ، وأن يكونوا هم قدوة طيبة فى التزام الصدق أمام أبنائهم الصغار .

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « من قال لصبى : تعال ، هاك - أى : سأعطيك شيئا ، ثم لم يعطه ، فهى كذبة » .

وعن أسماء بنت يزيد - رضى الله عنها - قال . يا رسول الله ، إن قالت إحدانا لشىء تشتهيه ، لا أشتهيه أيعد ذلك كذبا ؟ فقال ﷺ : « إن الكذب يكتب كذبا حتى تكتب الكذيبة كذيبة » .

فانظر - أيها القارئ الكريم - كيف حرص الرسول ﷺ كل الحرص على التزام أمته للصدق ، وعلى تعليم الآباء والأمهات أن ينشئوا أبناءهم على هذه الصفة الكريمة ، وعلى أن يكونوا أسوة حسنة فى اعتناقهم لفضيلة الصدق ، وعلى تحريها وعلى التمسك بها حتى فى أيسر الأمور وأصغرها .

عاقبة الكذب :

وإذا كان الصدق - وهو يحتاج إلى عزيمة قوية ، وإلى إيمان عميق وإلى تحمل شديد ، وإلى شجاعة فائقة - فى أعلى درجات السمو والكمال ، فإن الكذب فى أحط دركات الهوان والنقصان .

ويكفى لبيان سوء عاقبة الكاذبين قوله - تعالى - : ﴿ **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ** ﴾ (١) .

---

(١) سورة النحل : الآية ١٠٥ .

وقوله – سبحانه – : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (١).

وفى سورة المرسلات هدد – سبحانه – المكذبين للحق عشر مرات فقال : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٢).

وقال – سبحانه – فى شأن الذين جحدوا الحق ، ونطقوا بالزور والبهتان : ﴿ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (٣).

وقد أكد – عز وجل – فى كثير من الآيات القرآنية خسران الكاذبين فى الدنيا والآخرة فقال : ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴾ (٤) .

فإذا ما اتجهنا إلى الأحاديث النبوية الشريفة رأينا كثيرا منها يحذر من رذيلة الكذب تحذيرا شديدا ، ويصف من يسلك هذا السلوك بأقبح الصفات . . .

فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب ، ما أطلع على أحد من ذاك بشىء فيخرج من قلبه حتى يعلم أنه قد أحدث توبة .

أى : أنه ﷺ كان إذا سمع إنسانا يكذب فى حديثه ، يعظه ويأمره بالتوبة وينفره من الكذب .

وعن أبى بريدة الأسلمى – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا إن الكذب يسود الوجه » .

(١) سورة الأنعام: الآية ١١ .
(٢) سورة المرسلات: الآية ١٥ .
(٣) سورة النساء: الآية ٥٠ .
(٤) سورة النحل: الآية ١١٦ .

وعن سعد بن أبى وقاص - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب » .

وعن صفوان بن سليم - رضي الله عنه - قال : قيل يا رسول الله أيكون المؤمن جبانا ؟ أى : خائفا غير شجاع . قال : نعم . فقيل له : أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال : نعم . فقيل له : أيكون المؤمن كذابا ؟ قال : لا » .

فهذه الأحاديث الشريفة يؤخذ منها ، أن الكذب أقبح القبائح حيث إن صاحبه يسود وجهه يوم القيامة ، وأن هذه الرذيلة لا تولد مع الإنسان ، وإنما يكتسبها بسبب فسوقه عن أمر ربه ، وبسبب تغلغل الفساد فى نفوس الذين ألفوا الكذب ومردوا عليه .

وكلما اتسع نطاق السوء الذى يترتب على الكذب كان العقاب أشد وأعظم .

فضرر الكذب الذى يترتب على إشاعته فى وسائل الإعلام المرئية أو المسموعة أو المكتوبة ، والذى يراه ويسمعه ويقرؤه الملايين من البشر أشد إثما ، وأقبح جرما ، من ضرر الكذب الذى يشيعه الكذاب بين جماعة محدودة العدد من الناس .

ولذا جاء فى الحديث الشريف الذى رواه البخارى عن سمرة بن جندب - رضي الله عنه - قال : قال النبى ﷺ : « رأيت الليلة رجلين أتيانى قالا لى : الذى رأيته يُشَق شِدْقُه - أى : يُقطَع من جسده - كذاب يكذب الكَذْبَةَ فَتُحملُ عنه حتى تبلغ الآفاق - أى : حتى تنتشر فى أقطار الأرض فيصنع به هكذا إلى يوم القيامة » .

وأقبح ألوان الكذب ما كان على دين الله - عز وجل - وعلى ما جاء به الرسول ﷺ من عند ربه ، عن طريق التحريف وعن طريق القول بغير علم ، وعن طريق تفسير حقائق الدين تفسيرا يتعمد فيه الكذب ، وعن طريق الفتوى التى لا أصل لها لا من النقل ، ولا من العقل وعن طريق نشر الإلحاد وإشاعة الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

ولذا جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن كذبا على ليس ككذب على أحد . فمن كذب على متعمدا ، فليتبوأ مقعده من النار » .

والأسباب التى تحمل بعض الناس على الكذب كثيرة ، منها الظاهر الواضح ، ومنها الباطن الخفى ، وكلها تدل على ضعف فى الدين ، وسقوط فى المروءة ، وعوج فى الأخلاق واستخفاف بالقيم الشريفة ، وبالسلوك القويم .

فمن الناس من يكثر من الأقوال الكاذبة حين يمزح مع غيره ، ويتوهم أن الكذب معفو عنه فى أحوال الممازحة وما يشبهها ، وهذا لون من الفهم السقيم لآداب الإسلام ؛ لأن الإسلام أباح الترويح عن النفس ، ولكن فى الحدود التى لا كذب معها ، فقد كان النبى ﷺ من صفاته أنه يمزح ، ولكن لا يقول إلا حقا وصدقا .

ومن الأحاديث النبوية الشريفة التى نهت عن المزاح الذى يكون معه الكذب ، ما أخرجه أبو داود الترمذى عن بَهْزٍ بن حكيم عن أبيه عن جده قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ويل - أى : هلاك - للذى يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب ، ويل له ، ويل له » .

وعن أبى أمامة - رضي الله عنه - قال : رسول الله ﷺ : « أنا زعيم - أى : كفيل - ببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا » .

ومن الناس من يستسهل الكذب ويستخف بالصدق من أجل التباهى والتفاخر ، فيتحدث عن نفسه وعن أسرته وعن أصوله بكلام فيه ما فيه من المبالغات الكاذبة ، ومن الأقوال التى تخالف الحقيقة .

وقد نهى الله - تعالى - عن هذا السلوك السيئ فى آيات منها قوله تعالى :

﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[1] .

وفى الحديث الشريف عن سلمة بن الأكوع - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه - أى يتكبر ويتفاخر كذبا - حتى يكتب فى الجبارين ، فيصيبه ما أصابهم » .

---

(١) **سورة لقمان**: الآية ١٨ .

وعن أبى هريرة - رضي الله عنه - قـال : « أمـرنا رسـول الله أن نحـثُـوَ فى وجـوه المداحين التراب » .

ومن الناس من يكذب على غيره من أجل ترويج تجارته أو صناعته أو زراعته أو غيـر ذلك من المنافع الدنيـوية ، توهمـا منه أن هذا الكذب من ورائه زيادة المنافع الدنيوية ، وقد يحلف بالأيمان الكاذبة فى سبيل الحصول على ربح مادى .

وقد نهى الإسلام عن كل ذلك نهياً قاطعاً ، فعن النواس بن سمعان - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك مصدق وأنت له كاذب » .

وقال ﷺ : « اليمين الفاجرة - أى : الكاذبة - منفقة للسلعة ممحقة للكسب » أى فإن الذى يحلف بالله - تعالى - كذبا من أجل ترويج بضاعته ، ستكون عاقبته الخسران والخذلان .

إن الصدق فى الأقوال يؤدى إلى الصدق فى الأفعال ، كما يؤدى إلى الصلاح فى الأوحوال ، وإلى شيـوع مالا يحصى من ألوان البر والمحبة والإخاء الخالص بين الأفراد والجماعات ، والأمة التى يكثر فيها الصادقون فى أقوالهم وفى أفعالهم وفى سلوكهم وفى أدائهم لما كلفوا به من أعمال ، لابد أن تظفر بما تصبو إليه من أمان واطمئنان ورخاء ورقى مطرد فى شئون الدين وفى شئون الدنيا ؛ لأن من سنن الله - تعالى - التى لا تتخلف أنه - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ولأنه القائل : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ** ﴾ [1] .

والمؤمنون الحقيقيون هم الذين يحرصون على التحلى بفضيلة الصدق ؛ لأنهم على تذكر دائم بحسن ثواب الصادقين ، وبعظيم نفعه لهم .

---

(١) سورة الزلزلة: الآيتين ٧ ، ٨ .

قال - تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١) .

ولأنهم يعلمون علم اليقين أن الكذب مآله الخزى والندامة ، والحسرة والمهانة .

قال - تعالى - : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (٢) .

وشريعة الإسلام التى هى شريعة الحق والعدل لم ترخص للإنسان أن يكذب إلا فى مواطن معينة ، ففى الصحيحين عن أم كلثوم - رضى الله عنها - أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى خيرا - أى فيبلغ غيره خيراً - أو يقول خيراً » .

وفى رواية لمسلم أنها قالت : « ولم أسمعه ﷺ يرخص فى شىء مما يقول إلا فى ثلاث ؛ تعنى : الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها » .

قال بعض العلماء : وإنما جاز الكذب فى هذه الأمور ؛ لأن الجيش حصن الأمة ، ولأن الشقاق رأس كل مصيبة ، ولأن النزاع بين الزوجين يعرض الأسرة للضياع وهى أساس المجتمع .

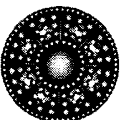
نسأل الله - عز وجل - أن يجعلنا جميعا من عباده الصادقين .

---

(١) سورة المائدة: الآية ١١٩ .

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٠ .

الصبر ضياء



من الصفات التى متى رسخت فى قلب الإنسان ، واستعملها فى موضعها كانت دليلا على قوة الإيمان ، وصدق اليقين ، صفة الصبر الذى عرفه علماء الأخلاق بأنه : حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع ، وضده الجزع بدليل قوله - تعالى - فى شأن أصحاب النار : ﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ** ﴾ (1).

والجزع : حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده لشدة اضطرابه وذهوله . يقال : جزع فلان ، إذا ضعف عن حمل ما نزل به ، أما الصبر فهو تحمل للآلام بثبات لا ضعف معه ، وباحتمال للكاره لا شكوى مع هذا الاحتمال إلا لله - عز وجل - وهذا هو الصبر الجميل .

أى : أن أهل النار عندما يرون سوء مصيرهم قول بعضهم لبعض : لقد تساوى عندنا الجزع مما نحن فيه من عذاب ، والصبر على ذلك ، وليس لنا من مهرب من هذا المصير الأليم .

والعقلاء من الناس فى كل زمان ومكان ، يوقنون بأن هذه الحياة صراع بين الحق والباطل ، ونزاع موصول بين الخير والشر ، وأن أحداثها عندما تستحكم ، ومصائبها عندما تتوالى ، وليلها عندما يطول ، فلا أمل فى انكشاف أثقالها إلا عن طريق الصبر والمصابرة ، واحتمال مكارهها بثبات وشجاعة ، والعمل على تخطى العقبات بصبر جميل ، وحكمة بالغة ، وعقل مستنير ، وعزيمة قوية .

ذلك لأن هذه الحياة التى نحياها ليست دار جزاء واستقرار ، وإنما هى دار عمل وجهاد وامتحان وكدح من أجل الحصول على مطالبها ، وكل ذلك يقتضى اختلاطا بالناس الذين اختلفت أمزجتهم ، وتباينت مصالحهم ، وتضاربت مقاصدهم وغاياتهم .

(1) سورة إبراهيم: الآية 21 .



وصدق الله إذ يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾ [1] .

أى : يا أيها الإنسان إنك باذل فى حياتك جهدا كبيرا من أجل مطالب نفسك ، وإنك لبعد هذا الكدح والعناء ، مصيرك فى النهاية إلى لقاء ربك ، حيث يحاسبك على عملك وكدحك .

وفوق كل ذلك فإن العقلاء - أيضاً - يعلمون أن إخلاصهم فى عبادة خالقهم ، وفى الإيمان برسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر ، سيجعل لهم أعداء يظهرون البغضاء وما تخفى صدورهم أكبر .

وهذا يستلزم من المؤمنين يقظة دائمة ، وصبرا حكيما ، وعزما مكينا ، حتى يتغلبوا على كيد أعدائهم .

قال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [2] .

أى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، اصبروا على طاعة الله ، وقابلوا صبرا أعدائكم بصبر أشد منه ، ودوموا على الاستعداد لدحر عدوانهم ، وصونوا أنفسكم عن المعاصى ، تظفروا بالفلاح والنجاح .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [3] .

أى : ولنعاملنكم - أيها المؤمنون - معاملة المختبر لكم بالتكاليف الشرعية المتنوعة ، حتى نبين لكم المجاهدين منكم من غيرهم ، والصابرين منكم وغير الصابرين ، وتظهر أخباركم حتى يتميز الحسن منها من القبيح .

فالمراد بقوله : « حتى نعلم المجاهدين » إظهار هذا العلم للناس ، حتى يتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، وصحيح العقيدة من سليمها ، والمتحلى بفضيلة الصبر من غيره » .

(1) سورة الإنشقاق : الآية ٦ .
(2) سورة آل عمران : الآية ٢٠٠ .
(3) سورة محمد : الآية ٣١ .

وقال - سبحانه - : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١) .

وبعض الناس يتوهمون أن الصبر معناه الخنوع والاستسلام للواقع الذليل ، والرضى بالهوان والضعف ، والسكوت عن معالجة الأمور والتثاقل عن أداء الواجب .

وهذا التوهم لا أساس له من النقل الصحيح أو من العقل السليم ؛ لأن الصبر الجميل الذى مدحه الله - تعالى - هو الذى يحمل صاحبه على بذل أقصى الجهد لاعتناق الفضائل ، واجتناب الرذائل ، وعلى السعى فى الأرض بالطرق الشريفة لتحصيل المنافع التى أحلها الله - تعالى - ، وللتعاون مع الغير على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

الصبر الجميل هو الذى يدفع صاحبه لتخطى العقبات ، وتحمل التبعات من أجل نشر الأمان والسلام والرخاء والعلم النافع ، والخير الوفير بين الناس .

ولذا قال بعض الحكماء : « الصبر هو تعويد النفس الهجوم على المكاره » .

وقال حكيم آخر : « تجرع الصبر - أيها الإنسان - أى : احتمله بثبات وقوة - فإن قتلك قتلك شهيدا ، وإن أحياك أحياك عزيزاً » .

وليس معنى ذلك أن الصبر يناقض الإحساس بالحزن ، والشعور بالآلام ؛ لأن هذا الشعور وذلك الإحساس أمران طبيعيان فى كل نفس إنسانية سوية ، وإنما الذى تأباه شريعة الإسلام هو الخضوع الخانع لهذا الإحساس ، والتصرف الذى يأباه الشعور الإنسانى السليم ، كأن يجزع جزعا يدل على عدم رضاه بقضاء الله وقدره ، وكأن يظهر من الهلع والخوف ما تأباه الرجولة ومكارم الأخلاق .

إن فضيلة الصبر تدل على أن صاحبها قد تحلى بضبط النفس ، وثبات القلب ، ورباطة الجأش ، وصدق الإيمان ، وكمال الرجولة ؛ لأن أثقال الحياة وتكاليفها وأحداثها لا يطيقها الضعاف المهازيل ، وإنما يطيقها أصحاب النفوس الكبيرة .

وحمل الأمانة التى رضى الإنسان بحملها ، لا يستطيع أداءها على الوجه الأكمل إلا الرجال الصابرون على البلاء الصادقون عند البأساء والضراء .

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٦ .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾(١) .

وقد قسم العلماء الصبر إلى ثلاثة أنواع ، وكل نوع له مجالاته الواسعة .

فهناك صبر على طاعة الله - تعالى - وأساسه أداء التكاليف الشرعية بإتقان وإحسان ومداومة وإخلاص ، ولا شك أن هذا الأداء الجامع لكل ألوان الفضل ، يحتاج إلى جهد وتعب ومشقة وصبر على أداء هذه الطاعات .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (٢) .

أى : واستعينوا - أيها الناس - على ترك ما تحبون من شهوات الدنيا بفضيلة الصبر ، وبفضيلة الصلاة التى تنهاكم عن الفحشاء والمنكر ، وإن الصلاة لشاقة إلا على الخاشعين الخاضعين لأوامر الله - تعالى - .

وهناك صبر على المعاصى ، أى : حرص دائم على الابتعاد عنها ، ولا شك أن ذلك يكلف الإنسان ما يكلفه من صبر وتحمل ومعاناة ، لا سيما فى زمن كثرت فيه المغريات ، وصارت فيه الشهوات المحرمة قريبة المنال ، سهلة القطاف .

وفى الحديث الشريف : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » .

وهناك صبر على المصائب التى تصيب الإنسان فى نفسه أو ولده أو ماله أو غير ذلك من النوازل التى تحزن وتؤلم .

وقد أخبرنا القرآن الكريم فى كثير من آياته أن هذه الحياة عرضة للآلام والمتاعب ، وأن الناس فيها يجب عليهم أن يوطنوا أنفسهم على تحمل أعبائها بصبر وجلد .

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٤٦ - ١٤٨ .
(٢) سورة البقرة: الآية ٤٥ .

ومن الآيات التى قررت هذه الحقيقة قوله - تعالى - : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [1] .

والمعنى : ولنصيبنكم - أيها المؤمنون - بشىء من الخوف ، وبشىء من الجوع ، وبشىء من النقص فى الأنفس والأموال والثمرات ، وبشر - أيها الرسول الكريم - الصابرين على هذه المصائب بالأجر الجزيل ، وهم الذين إذا نزلت بهم مصيبة قالوا إنا لله ملكا وتصرفا ، وإنا إليه راجعون يوم القيامة ، فيجازينا على صبرنا وعلى رضائنا بقضائه وقدره .

هؤلاء الذين أصبحت فضيلة الصبر كالطبع فيهم : عليهم مغفرة عظيمة أن يتحلوا بفضيلة الصبر ، ومدحت الصابرين مدحا عظيما ، وبشرتهم بحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة .

ومن هذه الأحاديث ما جاء فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنيه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر » .

ومنها ما جاء فى صحيح مسلم عن صهيب بن سنان - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سواء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له .

ومنها ما جاء فى صحيح البخارى عن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله - تعالى - : ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفيه - أى : حبيبه - من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة » .

(١) سورة البقرة: الآيات ١٥٥ - ١٥٧ .

وعن أنس - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله - عز وجل - قال : إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه - أى : عينيه - فصبر عوضته عنهما الجنة » .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال ما يصيب المسلم من نصب - أى : تعب - ولا وصب - أى : مـرض - ولا هم ولا حـزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكهما إلا كفر الله بهما من خطاياه » .

وفى الصحيحين - أيضا - عن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « ليس الشديد بالصرعة - أى : من يصرع الناس ، وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » .

وفـى الصـحيحـيـن - كــذلـك - عـن عبـد الله بـن أبـى أوفـى - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا » [١] .

وفضيلة الصبر والمصابرة خصال تتناسق وتتناسب مع سنن الله - تعالى - فى هذا الكون الذى نعيشه ، ومع نظامه فى مخلوقاته ، وقد ضرب لنا - سبحانه - الأمثال التى ترشدنا إلى وجوب التحلى بصفة الصبر والأناة ، فقد أخبرنا - سبحانه - بأنه قد خلق العالم فى ستة أيام مع قدرته على خلقه فى طرفة عين أو أقل ، ونحن لا نولد من بطون أمهاتنا كبارا ، وإنما نتدرج فى مراحل العمر من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب إلى الكهولة إلى الشيخوخة ، كما قال - سبحانه - : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ** ﴾ [٢] .

وهكذا نرى كل شىء فى هذا الوجود من زروع وثمار وحيوان .. تتدرج من حال إلى حال بنظام دقيق يدل على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته وهذا كله يدعونا إلى التمسك بفـضيلة الصبـر ، والتى هى ضـياء الحق ، والتى هى مـعول المسلم - أى : الآلة التى يستعين بها فى قضاء مصالحه ، وبلوغ مقاصده ، والوصول إلى غاياته الشريفة .

---

(١) راجع كتاب « رياض الصالحين » للإمام النووى ص ٣٢ والترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٧٤ للمنذرى .
(٢) سورة الروم: الآية ٥٤ .

ولقد قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : « خير عيش أدركناه ببركة الصبر » .

ولقد تكرر الحديث فى القرآن الكريم عن الصبر وفضائله وحسن عاقبة المتخلقين به فى عشرات المواضع ، وفى عشرات الأحاديث النبوية الشريفة .

فتارة نجد القرآن يخبرنا بأن الله - تعالى - يحب الصابرين ، وهو معهم برحمته وعونه .

قال - تعالى - : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [1].

وقال - تعالى - : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ .

وتارة يرشدنا إلى أن الصبر من أخلاق الرسل الكرام ، فقال عن أيوب - عليه السلام - : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [2].

وقال عن إسماعيل وإدريس وذى الكفل : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [3].

وأمر - سبحانه - المؤمنين فى شخص نبيهم محمد ﷺ بالتحلى بالصبر فيما يقرب من عشرين مرة ، ومن ذلك قوله - سبحانه - : ﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[4] .

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [5].

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾[6] .

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٦ .
(٢) سورة «ص»: الآية ٤٤ .
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٨٥ .
(٤) سورة هود: الآية ١١٥ .
(٥) سورة يونس: الآية ١٠٩ .
(٦) سورة الروم: الآية ٦٠ .

﴿ فاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً * إِنَّهُمْ يرونه بعيداً * ونراه قريباً ﴾ [1].

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾[2] .

﴿ فاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [3].

وتارة نجد القرآن الكريم يخبرنا بأن الصبر من أخلاق الرجال ، أصحاب العزيمة القوية .

والإرادة الماضية ، فيقول : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [4].

ويقول - سبحانه - : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾[5] .

ويقول - عز وجل - : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [6].

وتارة يسوق القرآن الكريم ألوانا من البشارات السارة ، ومن الخيرات الوفيرة ، ومن الدرجات العالية التى منحها - سبحانه - للصابرين .

فقد أخبرنا بأن أهل الصبر يستحقون البشرى فقال : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [7].

كما أخبرنا بأن الصبر هو طريق الخير فقال : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾[8] .

كما وعد - سبحانه - الصابرين بالثواب المضاعف فقال : ﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [9].

وأن الجنة هى نزلهم يوم القيامة فقال : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ [10].

(1) سورة المعارج: الآيات ٥ - ٧ .
(2) سورة المزمل: الآية ١٠ .
(3) سورة الأحقاف: الآية ٣٥ .
(4) سورة الشورى: الآية ٤٣ .
(5) سورة لقمان: الآية ١٧ .
(6) سورة آل عمران الآية: ١٨٦
(7) سورة البقرة: الآية ١٥٥ .
(8) سورة النحل: الآية ١٢٦ .
(9) سورة القصص: الآية ٥٤ .
(10) سورة الإنسان: الآية ١٢ .

وأن الإمامة والهداية إلى البر طريقها الصبر فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١).

وينتهى بنا القرآن فى تكريم الصابرين إلى أن ثوابهم غير محدود فيقول : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢) .

إن فضيلة الصبر هى جمع الفضائل ، وأساس مكارم الأخلاق ، ومتى توافرت فى الإنسان غرست فى قلبه الأناة والحكمة وفهم الأمور على وجهها الصحيح ، وكانت عاقبتها النجاح والفلاح والعطاء العظيم من الله - عز وجل - .

جاء فى الصحيحين عن أنس - رضي الله عنه - قال : مات ابن لأبى طلحة من أم سُلَيم فقالت لأهلها : لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه !! فجاء فقربت إليه العشاء فأكل وشرب ، ثم تصنعت له كأحسن ما تتصنع المرأة لزوجها فباشرها ، ثم قالت له : يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت ثم طلبوها منهم ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا . فقالت له فاحتسب ابنك - أى : فإنه كان أمانة عندنا وقد استرد الله أمانته - ، فذهب أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقص عليه ما حدث ، فقال رسول الله ﷺ : « بارك الله لكما فى ليلتكما » .

فحملت وولدت له غلاما وسماه النبى ﷺ عبد الله ، وعاش هذا الغلام حتى تزوج وكان له تسعة أولاد كلهم يحفظون القرآن الكريم .

ألا ما أجمل الصبر ، وما أحسن عواقبه ، ورحم الله القائل : بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين ، قال - تعالى - : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ .

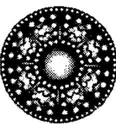
نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا من عباده الصابرين .

---

(١) سورة السجدة: الآية ٢٤ .

(٢) سورة الزمر: الآية ١٠ .

[وقل رب زدني علما]



نحن الآن فى عصر لا تتنافس الأمم فيه بضخامة أجساد أبنائها ولا بسعة أرضها ، ولابكثرة أفرادها ، وإنما نحن الآن فى عصر العلم .

فى العصر الذى تتنافس فيه الأمم وتتباهى ، بوفرة العلم النافع بين أبنائها ، وبرجاحة العقول ، وجودة الأفكار ، وبالتقدم والرقى فى شتى ألوان الاختراع والابتكار ، وفى غير ذلك من ثمرات البحث والدراسة والإطلاع والقراءة والتأليف فى مختلف العلوم الدينية والتربوية ، والاجتماعية ، والطبية ، والهندسية ، والفلكية ، والنفسية ، والرياضية ، والاقتصادية .

وهذا كله لا يتيسر لأية أمة إلا بالتبحر والرسوخ فى مختلف العلوم والمعارف ، التى أخرجت روائع العقل البشرى ، وعبقريات الفكر الإنسانى .

وكيف لا يكون الأمر كذلك ، وكل عاقل يعلم أن عظمة الدولة الإسلامية ، ما قامت إلا على أركان وطيدة من العلم النافع ، والفكر الثاقب ، والثقافة التى تعددت ألوانها ، وانبثقت ينابيعها من توجيهات الإسلام ، المستمدة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية المطهرة ، ومن نتاج العقول السليمة التى تبنى ولا تهدم ، وتعمر ولا تخرب ، وتصلح ولا تفسد ، وتجمع ولا تفرق ، وتعتنق الفضائل وتنبذ الرذائل .

ومن المتفق عليه بين العقلاء أن دين الإسلام يفرض على أتباعه أن يكونوا من أهل العلم ؛ لأن العلم فى الإسلام كالحياة للإنسان ، ويكفى أن أول ما نزل على الرسول ﷺ من قرآن هو قوله - تعالى - : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ .

فهل رأيت - أيها القارئ الكريم - صيحة سمت بقدر القلم ، ورفعت من شأن القراءة ، وعظمت من قيمة العلم ، كهذه الصيحة القرآنية ؟

لقد رفع القرآن الكريم من شأن العلم والعلماء من عشرات الآيات ، ومن ذلك أنه بين لنا أن آدم أبا البشر ، ما فضله الله - تعالى - على ملائكته المقربين إلا لأنه أعطاه علما لم يعطه لهم . ألم يقل - سبحانه - :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾(١) .

وتارة يخبرنا القرآن الكريم أن الذين يخدمون أمتهم عن طريق فقههم وعلمهم ، تتساوى درجاتهم عن الله - تعالى - مع الذين يخدمونها عن طريق بذل أموالهم وأنفسهم .

قال - تعالى - : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾(٢) .

أى : وما صح وما استقام أن يخرج المؤمنون جميعا لقتال أعدائهم إذا كان بعضهم يغنى فى دحر هؤلاء الأعداء ، ولكن الذى يصح ويستقيم أن يقسم المؤمنون أنفسهم إلى قسمين : قسم يقاتل الأعداء ، والقسم الآخر يتفرغ لنشر العلم وتعليمه لغيره .

وتارة يخبرنا - سبحانه - أن الأمثال التى يضربها للناس من أجل التوضيح والتذكير والاعتبار ، لا يفقهها إلا أصحاب العلم فيقول :

﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ (٣) .

وتارة يخبرنا بأن أكثر الناس خوفا من خالقهم ، وأشدهم معرفة بعظمته ووحدانيته وقدرته إنما هم الراسخون فى العلم فيقول :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾(٤) .

---

(١) سورة البقرة : الآيتان ٣١ ، ٣٢ .
(٢) سورة التوبة : الآية ١٢٢ .
(٣) سورة العنكبوت : الآية ٤٣ .
(٤) سورة فاطر : الآية ٢٨ .

وأحيانا يبين لنا أن العلم يرفع صاحبه إلى درجات لا يعلم مقدارها إلا هو - سبحانه - فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (١).

بل إنه - سبحانه - قد أعلمنا بأن على رأس الذين شهدوا له بالوحدانية هم العلماء فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٢) .

وتارة يرشدنا - سبحانه - إلى أن الطريق إلى المزيد من العلم ، يأتى بالإخلاص والتقوى فيقول : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٣) .

وأنه - سبحانه - ما أرسل رسوله محمدا ﷺ إلى الناس إلا من أجل تعليمهم وإرشادهم وتزكيتهم وسعادتهم . قال - تعالى - :

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤).

وتارة ينفى - سبحانه - المساواة بين أهل العلم ، وأهل الجهل فيقول : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾(٥) . ويقول : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٦).

وتارة يبين لنا - سبحانه - أن أصحاب الإيمان القوى ، والعقل الذكى ، والعلم النافع ، هم الذين يوقنون بكل ما أنزله الله - تعالى - على رسله وينفذون أمره ونهيه فيقول :

---

(١) سورة المجادلة: الآية ١١ .
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨ .
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٨٢ .
(٤) سورة البقرة: الآية ١٥١ .
(٥) سورة الزمر: الآية ٩ .
(٦) سورة الرعد: الآية ١٩ .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

وتارة يرشدنا القرآن الكريم إلى أن أصحاب العلم ، هم الذين يؤمنون بجميع الرسل ، وهم الذين تفيض أعينهم بالدموع تأثرا بكلام الله - تعالى - وهم الذين يزجرون المنقادين للشهوات والهوى ، وهم الذين يجهرون بكلمة الحق فى كل موطن من المواطن .

قال - تعالى - : ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾(٢) .

وقال - سبحانه - : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (٣) .

وقال - عز وجل - : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ (٤) .

أى : وقال العلماء الأتقياء الأنقياء لمن أعجبوا بقارون وزينته ، وتمنوا أن يكون لهم من المال والجاه ما لقارون : قالوا لهم على سبيل الزجر والتأديب : الويل والهلاك لكم إذا تمنيتم أن تكونوا مثل هذا الطاغية ، والخير والبر لكم إذا تمسكتم بالإيمان والعمل الصالح وبالمداومة على التحلى بفضيلة الصبر .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾(٥) .

(١) سورة آل عمران : الآية ٧ . (٢) سورة النساء : الآية ١٦٢ .
(٣) سورة الإسراء : الآيات ١٠٧ - ١٠٩ .
(٤) سورة القصص : الآية ٨٠ : (٥) سورة سبأ : الآية ٦ .

أى : لا تحزن – أيها الرسول الكريم – لما يقوله الجاهلون والجاحدون بشأنك ، فإن الذين أعطاهم الله – تعالى – العلم السديد ، يعتقدون ويعلمون أن ما أنزل إليك من ربك هو الحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وهو الصدق الذى لا يشوبه كذب ، وهو الكتاب الذى يهدى من اتبعه وعمل بأحكامه إلى الصراط المستقيم .

وتارة يخبرنا القرآن الكريم أن خير دعاء يتضرع به الإنسان إلى خالقه ، أن يسأله المزيد من العلم النافع ، وأن الإنسان مهما أوتى من علم فهو قليل .

قال – تعالى – : ﴿ **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ (1) .

وقال – سبحانه – : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾(2) .

وقال – عز وجل – : ﴿ **نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** ﴾ (3) .

وهكذا نرى القرآن ا لكريم ، يسوق عشرات الآيات القرآنية التى تدل على فضل العلم والعلماء .

فإذا ما اتجهنا إلى السنة النبوية المطهرة ، رأينا الكثير من الأحاديث الشريفة تصرح بفضل العلم والعلماء ، وتدعو إلى طلب العلم ، وترفع من منزلة أصحابه ، وتأمر بتبليغه ونشره ، وتنهى نهيا شديدا عن كتمانه ، وتوضح أن للعلم آدابا يجب أن يتحلى بها العالم وأن العلم النافع تبقى بركته ويبقى أثره الطيب لصاحبه بعد موته .

أما الأحاديث التى تتحدث عن فضل العلم والعلماء فمنها ما جاء فى الصحيحين عن معاوية بن أبى سفيان – رضى الله عنهما – عن رسول الله ﷺ أنه قال : من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين – أى : يفهمه أمور دينه ويوفقه للعمل بأحكامه ، وإنما أنا قاسم والله يعطى – أى : وإنما أنا أبلغكم عن الله ما كلفنى به ،

---

(1) سورة طه: الآية ١١٤ .

(2) سورة الإسراء: الآية ٨٥ .

(3) سورة يوسف: الآية ٧٦ .

وهو – سبحانه – الذى يعطى الفهم والعقل ، وأن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله .

وروى الإمام مسلم وأبو داود والترمذى عن أبى هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما ، سهل له طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم – أو يقرءون أحاديث رسول الله ﷺ إلا نزلت عليهم السكينة – أى : طمأنينية القلب – وغشيتهم الرحمة – وحفتهم الملائكة – أحاطت بهم فرحا بما هم فيه ، وذكرهم الله فيمن عنده ، أى : فى الملأ الأعلى برفع شأنهم – ومن بطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه ، أى : ومن أخره عمله السيئ ، لم ينفعه نسبه الشريف » .

وروى أبو داود والترمذى عن أبى الدرداء – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن العلماء ورثة الأنبياء – أى : فى تبليغ شريعة الله للناس – ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » .

وأما الأحاديث النبوية الشريفة التى تدعو إلى وجوب تبليغ العلم ونشره بين الناس ، فمنها ما رواه الشيخان – البخارى ومسلم – عن أبى بكرة – رضي الله عنه – عن النبى ﷺ أنه قال : ليبلغ الشاهد الغائب – فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه – أى : فلعل السامع يبلغ حديثى إلى شخص هو أحرص وأحفظ للحديث من السامع .

وروى البخارى والترمذى عن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنه – أن النبى ﷺ أنه قال : « بلغوا عنى ولو آية . . ومن كذب علىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده فى النار » .

وأما الأحاديث الشريفة التى تنهى عن كتمان العلم عمن هو فى حاجة إليه وعن الذى لا يوجد مانع من حجب العلم عنه ، فمنها ما رواه أبو داود والترمذى عن أبى هريرة – رضي الله عنه – عن النبى ﷺ أنه قال : « من سئل عن علم فكتمه ، ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » .

وفى حديث آخر : « نضر الله امرأ سمع منى حديثا فحفظه حتى يبلغه ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه » .

وأما آداب العلم وأخلاقياته فمنها : أن يقصد به وجه الله - تعالى - وخدمة دينه ، ومنفعة الناس ، ونشر الرخاء والخير ، فعن جابر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : العلم علمان . . علم فى القلب فذلك هو العلم النافع ، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم .

وعن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال . . عن عمره فيم أفناه ؟ وعن شبابه فيم أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ؟ وعن علمه ماذا عمل به ؟

كذلك من آداب العلم وأخلاقياته : أن يعمل العالم بما يعلمه ، فإن بركة العلم ليست فى كثرته ، وإنما بركته فى أن نعمل بمقتضى علمنا ، فقد ذم الله - تعالى - الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم فقال : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ (١) .

وقال - سبحانه - : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾(٢) .

وفى الصحيحين عن أسامة بن زيد - رضى الله عنهما - أنه سمع النبى ﷺ يقول : يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى به فى النار ، فتندلق أقتابه - أى : فتخرج أمعاؤه - ، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون له : يا فلان ، ما شأنك ؟ ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن الشر وآتيه .

كذلك من آداب العلم وأخلاقياته : أن يتثبت العالم من صحة ما يقول ، وألا يقول قولا دون أن يتأكد من صدقه وسلامته ، وأن يسأل غيره عما يجهله ، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أن من علامات قيام الساعة ، أن يكثر عدد الذين يفتون بغير علم . . .

---

(١) **سورة البقرة**: الآية ٤٤ .

(٢) **سورة الصف**: الآيتان ٢ ، ٣ .

ففى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ، لكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم ، اتخذ الناس رءوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا - أى : فى أنفسهم - وأضلوا - أى : وأضلوا غيرهم .

كذلك من آداب العلم وأخلاقياته : التواضع ونبذ الغرور والتباهى والتفاخر بكثرة العلم ، فمهما أوتى الإنسان من علم فهو قليل ، كما قال - تعالى - : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[1] .

وتجارب الحياة علمت العقلاء أن أوسع الناس علما هو المتواضعون الذى يقضون معظم أوقاتهم فى الاستزادة من العلم النافع دون ضجيج أو تفاخر وأن أكثر الناس إدعاء للعلم والمعرفة ، هم أنصاف المتعلمين وأشباههم ممن لا يعرفون من العلم إلا القشور دون اللباب .

وعندما نتحدث عن العلم إنما نقصد العلم بمعناه العام ، نقصد كل علم يخدم الحق ، وينشر الفضائل ، ويعود على الناس بما ينفعهم فى دينهم وفى دنياهم ، لا فرق فى ذلك بين العلوم الشرعية واللغوية ، والطبية ، والهندسية ، والرياضية ، وغير ذلك من شتى ألوان العلوم التى لا تتنافى مع شريعة الله - تعالى - ومع مكارم الأخلاق التى بعث الرسول ﷺ لإتمامها .

إن الله - تعالى - قد أخبرنا فى كتابه أنه قد علم بعض أنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - منطق الطير ، كما علمهم الصناعات المتنوعة كصناعة الدروع والأسلحة .

قال - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾[2] .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٨٥ .

(٢) سورة النمل : الآيتان ١٥ ، ١٦ .

وقال - تعالى - فى شأن داود - عليه السلام - : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ [1] .

أى : وبجانب ما منحنا عبدنا داود من فضائل ، فقد علمناه صناعة الدروع بحذق وإتقان ، وهذه الصناعة التى علمناه إياها بمهارة وجودة ، لتجعلكم فى حرز ومأمن من الإصابة بآلة الحرب ، وتقى بعضكم من بأس بعض ؛ لأن الدرع تقى صاحبها ضربات السيوف ، وطعنات الرماح .

قال الإمام القرطبى عند تفسيره لهذه الآية : وهذه الآية أصل فى اتخاذ الصنائع والأسباب ، وهو قول أهل العقول والألباب ، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك شرع للضعفاء ، فالسبب سنة الله فى خلقه ، فمن طعن فى ذلك فقد طعن فى الكتب والسنة ، وقد أخبر الله عن نبيه داود ، أنه كان يصنع الدروع ، وكان - أيضا - يصنع الخوص ، وكان يأكل من عمل يده ، وكان آدم حراثا ، ونوح نجارا ، ولقمان خياطا ، وطالوت دباغا ، فالصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس [2] .

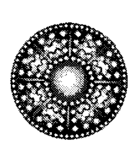
والرسول ﷺ أمر أتباعه بأن يتسلحوا بكل علم نافع ، وكان يرسل بعض أصحابه إلى البلاد الأخرى لكى يتعلموا منهم ما هم فى حاجة إليه من علم ، ففى صحيح البخارى عن زيد بن ثابت - رضي الله عنه - قال : أمرنى رسول الله ﷺ فتعلمت له يهود بالسريانية ، وقال : إنى والله ما آمن يهود على كتابى ، فما مر لى نصف شهر حتى تعلمته وحذقته ، فكنت أكتب له إليهم ، وأقرأ له كتبهم .

والخلاصة أن شريعة الإسلام تأمر أتباعها بالاستزادة من كل علم نافع ولو كان من عند غير المسلمين ، فقد استفاد النبى ﷺ من أسرى المشركين فى بدر فى تعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، والحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أحق الناس بها ، والعلم النافع يبقى أثره لصاحبه بعد موته كما جاء فى الحديث الصحيح : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٨٠ . (٢) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٣٢١ .

[ورحمتي وسعت كل شيء]



من الكلمات الجميلة التى يرتاح لها القلب ، وتحبها النفس ، وتهفو إليها المشاعر النقية : كلمة الرحمة التى تطلق فى اللغة على الرأفة والرقة والعطف والإحسان ولين الجانب .

قال - وتعالى - : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (1).

أى : فبسبب رحمة عظيمة فياضة سكبها الله - تعالى - فى قلبك - أيها الرسول الكريم - كنت لين الجانب مع أصحابك ، رءوفا بهم ، عطوفا عليهم ، فأحبوك حبا يفوق حبهم لأنفسهم ، ولو كنت جافيا خشن الجانب ، قاسيا فى أقوالك وأفعالك ، لا تتأثر بأحوال من أرسلت إليهم لتفرقوا عنك ، ولنفروا منك ، ولكرهوا اللقاء بك .

وضد الرحمة : القسوة ، وتبلد الحس ، وغلظ القلب ، وتحجر المشاعر ، وهى صفات قبيحة تدل على تغلغل الأنانية فى نفس صاحبها ؛ لأنه يحتكر الخير لنفسه ، ويهمل التفكير فيما سواه ، وقد ذم الله - تعالى - من قست قلوبهم ذما شديدا فقال :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (2).

أى : لقد آن الأوان أن تخشع قلوب الذين آمنوا لذكر الله وما نزل من قرآن كريم على قلب رسولهم ﷺ ، وآن الأوان - أيضا - ألا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلهم ، حيث طال عليهم الوقت وهم منغمسون فى الشهوات والملذات ، فقست

(1) سورة آل عمران: الآية ١٥٩ .
(2) سورة الحديد: الآية ١٦ .

قلوبهم ، وصارت لا تتأثر بالترغيب أو بالترهيب ، ولاتفرق بين الحلال والحرام ، وأصبح كثير منهم فاسقين عن أمر الله - تعالى - خارجين عن كل فضيلة .

فالآية الكريمة تشير إلى أن قسوة القلب رذيلة علتها وسببها الفسوق عن طاعة الله - تعالى - .

وفى الحديث الشريف : « أبعد الناس من الله - تعالى - القاسى القلب » .

أما الرحمة فى فضيلة سامية ، وصفة إنسانية عالية ، تشهد لصاحبها بالنيل والمروءة والنقاء ؛ لأنه يحس بآلام غيره ، ويقدر مشاعره ، ويسهم فى معاونته ، ويسعى فى إزالة الضرر عنه ، وفى الحديث الشريف « الراحمون يرحمهم الرحمن . . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

وفضيلة الرحمة فى أفقها الأعلى ، وفى شمولها المطلق ، صفة من صفات الله رب العالمين ، ولفظ الرحمن الذى وسعت رحمته كل شىء ، ولفظ الرحيم الذى لا تنقطع رحمته لحظة عن خلقه ، من أسماء الخالق - عز وجل - وهذا اللفظان قد تكررا فى القرآن الكريم عشرات المرات ، ونفتتح قراءتنا بقوله - تعالى - : « بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم » أى : الواسع الرحمة مع دوامها واستمرارها .

وقد وصف - سبحانه - ذاته بأنه أرحم الراحمين فى آيات متعددة ، منها قوله - سبحانه - : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [2] .

وقوله - عز وجل - على لسان نبيه موسى - عليه السلام - : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[3] .

ولقد صور الرسول ﷺ رحمة الله - تعالى - بعباده تصويرا بليغا حكيما ، ففى

(١) سورة يوسف: الآية ٦٤ . (٢) سورة الأنبياء: الآية ٨٣ .
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥١ .

صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : قدم على رسول الله ﷺ بسبى ، فإذا امرأة من السبى تسعى قد تحلب ثديها - أى : ملئ باللبن - ، إذ وجدت صبيا فى السبى أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته ، فقال رسول الله ﷺ : « أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ قلنا لا والله . فقال ﷺ : « فالله - تعالى - أرحم بعباده من هذه بولدها » .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا ، وأنزل فى الأرض جزءا واحدا ، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق ، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » .

ولقد وصف الله - تعالى - رسوله ﷺ بأنه رحمة للعالمين فقال :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (1) .

أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - بهذا الدين الحنيف وهو دين الإسلام ، إلا من أجل أن تكون رحمته للعالمين من الإنس والجن ، وذلك لأننا قد أرسلناك بما يسعدهم فى دينهم وفى دنياهم وفى آخرتهم ، متى اتبعوك واستجابوا لما جئتهم به ، وأطاعوك فيما تأمرهم به وتنهاهم عنه .

وفى الحديث الشريف : « إنما أنا رحمة مهداة » فرسالته ﷺ رحمة فى ذاتها ، ولكن هذه الرحمة انتفع بها من استجاب لدعوتها ، أما من أعرض عنها فهو الذى ضيع على نفسه فرصة الانتفاع .

لقد سكب الله - تعالى - فى قلب رسوله محمد ﷺ من العلم والحلم ، ومن الإيناس والبر ، ومن الرأفة والرفق ، ما جعله أزكى عباد الله رحمة ، وأوسعهم عاطفة ، وأرحبهم صدرا .

وقد لازمته ﷺ هذه الرحمة حتى فى أشد المواطن ، وفى أحرج المواقف ، وفى أعنف عدوان من المشركين عليه .

(1) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .

لقد آذاه السفهاء أذى شديدا حتى قذفوه بالحجارة التى أدمت جسده الشريف ، وحاولوا اغتياله فى غزوة « أحد » وقيل له يا رسول الله : ادع عليهم ، ولكنه ﷺ تغلبت عليه رحمته ، فكان دعاؤه « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » . فقال له جبريل : صدق من سماك الرءوف الرحيم .

وكما وصف الله - تعالى - رسوله محمدا ﷺ بالرحمة ، وصف أيضاً أصحابه بهذه الصفة فقال : ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ (1).

ولقد دعا ﷺ أتباعه إلى التراحم العام فيما بينهم ، وجعله من علامات صدق الإيمان ، وسلامة الوجدان ، وطهارة المشاعر .

ففى الصحيحين عن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

وقال ﷺ : « لن تؤمنوا حتى ترحموا . قالوا يا رسول الله : كلنا رحيم . فقال ﷺ إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ، لكنها رحمة العامة » .

وقال ﷺ : « لا تُنزع الرحمة إلا من شقى » . وقال : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » .

وفضيلة الرحمة لا تتعارض مع التأديب الواجب ، أو مع العقاب العادل الرادع ؛ لأن الخالق - عز وجل - وهو أرحم الراحمين ، هو الذى شرع العقوبات العادلة لصيانة نفوس الناس ، ولصيانة أموالهم وأعراضهم ، ولو ترك الناس دون حساب على جرائمهم وأخطائهم لعمت الفوضى ، ولساد الفساد فى الأرض .

إنه من الرحمة وليس من القسوة ، أن ينشأ الأطفال منذ الصغر على التزام مكارم الأخلاق ، وعلى أداء الواجبات ، ولو أدى ذلك إلى أخذهم بالشدة فى بعض المواطن ؛ لأنهم لو تركوا وأهواءهم ، لشبوا على اللهو واللعب ، ولعاشوا لا يحسنون صنعا فمن الرحمة بهم أن يُعوَّدُوا على أداء الواجب ، ولذا قال الشاعر الحكيم :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما　　　فليقس أحيانا على من يرحم

(1) سورة الفتح: الآية ٢٩ .

وإنه ليس من الرحمة أن يترك الطلاب أو الطالبات يغشون فى الامتحان ، وإنما الرحمة تقتضى منعهم من ذلك بكل حزم وقوة ، وحماية لهم من التردى فى خيانة الأمانة ، وفى عدم الشعور بالمسئولية ، وفى الوقوع فى منكرات وقبائح تؤدى إلى تقدم المتأخر ، وتأخر المتقدم .

وإنه ليس من الرحمة أن يترك المجرم ، أو أن يتستر عليه من يتستر ، بل الرحمة تقتضى محاسبته على جرائمه ، وعقابه عليها عقاباً أمرت به شريعة الإسلام ، وفى هذه العقوبة العادلة الرادعة رحمة به حتى يثوب إلى رشده ، ورحمة بالمجتمع حتى يعيش فى أمان وسلام .

ليست الرحمة حنانا لا عقل معه ، وليست شفقة تتنكر للعدل والنظام وإنما هى عاطفة عاقلة تضع الأمور فى نصابها ، فتحسن إلى من يستحق الإحسان ، وتحاسب وتعاقب من يستحق المحاسبة أو المعاقبة .

ومع أن شريعة الإسام قد أمرت بالتراحم العام ، إلا أنها خصت نوعا من الناس بالمزيد من الرحمة ، على رأس هذا النوع الذى يستحق المزيد من الرحمة : الآباء والأمهات ، ويكفى فى ذلك قوله - تعالى - : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ۞ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً** ﴾ [1].

أى : وقضى ربكم وحكم وأوجب - أيها المخاطبون - أن تخلصوا العبادة لخالقكم ، وأن تحسنوا إلى والديكم ، فإذا بلغ أحدهما أو كلاهما سن الكبر ، فلا تقل لأحدهما كلمة فيها تضجر ، ولا تسئ إليهما ، وقل لهما قولا حسناً ، وكن متواضعا معهما ، رحيما بهما ، وقل يا رب ارحمهما رحمة واسعة ، جزاء ما بذلا من رعاية لى فى صغرى .

كذلك تجب الرحمة بالأطفال الصغار ، لضعفهما وحاجتهما الشديدة إلى الرفق

(١) سورة الإسراء : الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

والرعاية ، وقد ضرب لنا سيدنا رسول الله ﷺ أروع الأمثال فى ذلك ، ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال : قَبَّلَ رسول الله ﷺ الحسن أو الحسين بن على ، وعنده الأقرع بن حابس التميمى . فقال الأقرع : إن لى عشرة من الأولاد ما قبلت منهم أحدا قط !! فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال : « من لا يرحم لا يُرحم » وفى رواية أنه قال له : « أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك » .

وفى صحيح مسلم عن أنس - رضي الله عنه - قال : دخلنا على رسول الله ﷺ على أبي سيف القين ، وكان ظئرا لإبراهيم ابن رسول الله ﷺ فأخذ رسول الله ابنه إبراهيم فقبله وشمه ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه ، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان . . فقال عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله ؟ كأنه تعجب مما حدث منه ﷺ من بكاء . فقال ﷺ : يا بن عوف إنها الرحمة ، ثم قال : إن العين تدمع ، وإن القلب يخشع ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » .

كذلك تجب الرحمة بالأقارب وذوى الأرحام ، فالله - تعالى - يقول :

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [1].

وفى الصحيحين عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله - تعالى - خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم - أى : أكمل خلقهم - قامت الرحمة فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة !!

فقال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ، قال : فذلك لك .

ثم قال رسول الله ﷺ اقرءوا إن شئتم : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » .

كذلك تجب الرحمة باليتامى الذين فقدوا الأب العائل ؛ لأن الرحمة بهم ، والإحسان إليهم ، والصيانة لحاضرهم ومستقبلهم ، من أفضل القربات التى يتقرب بها الإنسان إلى خالقه .

(١) سورة الإسراء : الآية ٢٦ .

وفى مطلع سورة النساء نجد خمس آيات شبه متوالية ، فيها ما فيها من الحض على رعاية اليتامى ، ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : « وآتُوا اليتامى أموالَهم ، ولاتَتبدَّلوا الخَبيثَ بالطيبِ ، ولا تأكلُوا أموالَهم إلى أموالِكُمْ إنْه حُوبًا كبيراً » .

وفى صحيح البخارى عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » وأشار ﷺ بالسبابة والوسطى وفرج بينهما .

وجاء رجل إلى النبى ﷺ يشكو قسوة قلبه ، فقال له ﷺ : « أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك ؟ ارحم اليتيم ، وامسح رأسه وأطعمه من طعامك ، يلن قلبك ، وتدرك حاجتك » .

كذلك تجب الرحمة بالشيوخ والمرضى الذين تقدمت بهم السن واقتربوا من نهاية حياتهم .

ففى سنن أبى داود والترمذى عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال : جاء شيخ كبير يريد النبى ﷺ فأبطأ القوم عنه أن يوسعوا له . فقال ﷺ : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقر كبيرنا » .

كذلك من مواطن الرحمة أن نحسن معاملة الخدم ، وأن نرفق بهم فيما نكلفهم به من أعمال .

ففى صحيح مسلم عن أبى مسعود البدرى قال : كنت أضرب غلاما لى بالسوط ، فسمعت صوتا من خلفى يقول : اعلم أبا مسعود ، فلم أفهم الصوت من الغضب ، فلما دنا منى إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول : « اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام » فقلت يا رسول الله هو حر لوجه الله - تعالى - فقال ﷺ : « أما لو لم تفعل للفحتك النار » .

بل إن شريعة الإسلام لم تكتف بالأمر بالرحمة بالإنسان ، بل أمرت برحمة الحيوان والطير وغيرهما .

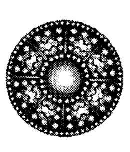
لقد رأى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رجلا يسحب شاة برجلها فقال له : « إن رحمتها رحمك الله » .

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث - من شدة العطش - فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا من البهائم أجرا ؟ فقال : نعم فى كل ذات كبد رطبة أجر » .

وروى أبو داود فى سننه عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فانطلقت لحاجتى ، فرأيت حُمَّرةً - نوعا من العصافير - معها فرخان ، فأخذت فرخيها ، فجاءت الحمرة فجعلت تُعرش - أى : تنتقل حزنا على فرخيها - فجاء النبى ﷺ فقال : من فجع هذه بولديها ؟ ردوا ولديها إليها .

ألا ما أجمل أن يتحلى الإنسان بفضيلة الرحمة ، التى متى توافرت بين الناس سعدوا فى دنياهم ، وظفروا برضاء الله - تعالى - فى أخراهم فالراحمون يرحمهم الله - تعالى - .

[وتعاونوا على البر والتقوى]



أوجد الله – تعالى – الناس فى هذه الحياة ، وسخر بعضهم لخدمة بعض ، لا يستطيع أحدهم أن يعيش فى عزلة عن غيره ، بل لابد من وجود التعامل بينهم فى شتى مطالب الحياة .

وهذا معنى قولهم : « الإنسان مدنى بطبعه » . أى أن الإنسان محتاج إلى غيره فى غذائه ، وشرابه ، وكسائه ، ودوائه ، وغير ذلك من شئون حياته ، ورحم الله القائل :

الناس للناس من بدو وحاضرة   بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة فى آيات متعددة ، منها قوله – تعالى – :

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ (١).

أى : نحن بقدرتنا ورحمتنا وحكمتنا ، قد قسمنا بين الناس أرزاقهم فى هذه الدنيا ، ولم نترك تقسيمها لأحد منهم .

ونحن الذين تولينا تبدير هذه الأرزاق ، وتوفير أسبابها ، ولم نكلها إليها ، لعلمنا بعجزهم وقصورهم .

ونحن الذين رفعنا بعضهم فوق بعض درجات فى الدنيا ، فهذا غنى وذاك فقير ، وهذا خادم وذاك مخدوم ، وهذا قوى وذاك ضعيف .

ثم ذكر – سبحانه – الحكمة من هذا التفاوت فى الأرزاق ، وفى المدارك وفى القدرات ، فقال : « ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » .

أى : فعلنا ذلك ليستخدم بعضهم بعضا فى قضاء حوائجهم ، وليعاون بعضهم بعضا فى قضاء مصالحهم ، وبذلك تنتظم الحياة ، وتسير فى طريقها الذى رسمه –

(١) سورة الزخرف: الآية ٣٢ .

سبحانه - لها ، فيترتب على ذلك التقدم العمرانى ، ويعم الخير بين الناس ، ويصل كل واحد إلى مطلوبه ، على حسب ما قدر الله - تعالى - له من رزق واستعداد ، ولو أنا تركنا تقسيم الأرزاق إليهم ، لتهارجوا ، ولتقاتلوا ، ولعم الخراب ؛ لأن كل واحد منهم يريد أن يأخذ ما ليس من حقه ، إذ الحرص والطمع من طبيعته .

ولفظ « سخريا » - بضم السين - مأخوذ من التسخير ، بمعنى تسخير بعضهم لخدمة بعض ، وتعاون بعضهم مع بعض ، فالغنى يتعاون مع الفقير ، والبائع يتعاون مع المشترى ، ورجل الأعمال يتعاون مع العاملين عنده . . وبذلك تنتظم أمور الحياة وتسير فى طريقها الصحيح .

ومن بلاغة القرآن الكريم أنه قال : « ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا » ولم يقل : ليتخذ الغنى الفقير ، أو القوى الضعيف سخريا ، للإشعار بأن الغنى فى حاجة إلى أن يتعاون مع الفقير ، والحاكم مع المحكوم ، والصانع مع الزارع ، وهكذا كل إنسان فى حاجة إلى التعاون مع غيره حتى يضمن الحصول على مطالب حياته .

فالآية الكريمة قد قررت سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن التعاون بين الناس أمر تفرضه طبيعة حياتهم ، وأنهم إذا ما استجابوا لقوله - تعالى - : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ عاشوا آمنين مطمئنين ؛ لأن التعاون معناه : تبادل العون والمساعدة بين الناس ، وهذا التبادل للمنافع يقوى رابطة الإخاء فيما بينهم .

ولعل هذا الشعور عند الإنسان بحاجته إلى غيره ، هو الذى دفعه منذ فجر التاريخ ، أن يلجأ إلى من يتعاون معه ، فبدأ بالأسرة ، ثم انتقل إلى القبيلة ، ثم انتقل إلى ما هو أوسع من ذلك .

وشريعة الإسلام تعد تعاون الناس فيما بينهم على البر والتقوى ، أصلا من أصول الدين ، ومبدأ من مبادئه ، بدليل أن الله - تعالى - قد أمر بذلك أمراً مؤكداً مستعملا صيغة الأمر العام ، حيث وجه الخطاب إلى الجميع بقوله : « وتعاونوا . . » .

والمسلم فى كل ركعة من ركعات صلاته يقرأ : « إياك نعبد وإياك نستعين » أى : نخصك يا ربنا وحدك بالعبادة ، ونخصك كذلك بطلب العون والمساعدة .

ولقد ساق لنا القرآن الكريم صورا متعددة ، لأناس بلغوا ما بلغوا من قوة الإيمان ، ومن علو الهمة ، ومن مضاء العزيمة ، ومع ذلك التمسوا من خالقهم أن يرزقهم من يتعاون على نصرة دينه ، وإعلاء كلمته ، والعمل الذى يرضيه - عز وجل - .

فهذا مثلا سيدنا موسى - عليه السلام - وهو واحد من أولى العزم من الرسل ، يأمره الله - تعالى - أن يذهب إلى فرعون ليأمره بإخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ولينهاه عن الطغيان والغرور ، فيلبى موسى عليه السلام - أمر ربه ، ويلتمس منه أن يجعل معه من يعينه على أداء رسالته ، ألا وهو أخوه هارون - عليه السلام - فيجيب الله - تعالى - دعاء عبده ورسوله موسى - عليه السام - واستمع إلى القرآن الكريم وهو يصور كل ذلك تصويرا بليغا مؤثرا فيقول على لسان موسى :

﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ (١) .

أى : قال موسى - عليه السلام - عندما أمره خالقه بالذهاب إلى فرعون أنه طغى : يا رب أسألك أن توسع صدرى بنور الإيمان ، وأن تجعله يتقبل تكاليفك بسرور وارتياح ، وأن تسهل لى ما أمرتنى به ، وأسألك يا إلهى أن تحل عقدة من لسانى حتى يفهم الناس قولى لهم .

وأتضرع إليك كذلك أن تجعل لى معاونا من أهلى فى إبلاغ رسالتك ، وهذا المعاون لى هو أخى هارون ، الذى أسألك أن تقوى به ظهرى .

وقد أجاب الله - تعالى - بفضله وكرمه دعاء نبيه موسى فقال : لقد أجبنا

(١) سورة طه: الآيات ٢٥ - ٣٦ .

دعاءك يا موسى ، وأعطيناك ما سألتنا إياه ، وجعلنا أخاك هارون معاوناً لك ، فطب نفساً وقر عينا .

وشبيه بهذه الآيات فى التماس موسى - عليه السلام - من ربه أن يؤيده ويشد أزره بأخيه هارون - عليه السلام - قوله - تعالى - :

﴿ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا - أى : عوناً ونصيراً - يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُون * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾[1] .

أى : قال الله - تعالى - لموسى : لقد استجبنا لرجائك يا موسى ، وسنقويك ونعينك بأخيك ، ونجعل لكما بقدرتنا ومشيئتنا حجة وبرهاناً تمنع الظالمين من التغلب عليكما ، ففوض أمركما إلينا ، وسيرا إلى فرعون ، وادعواه إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وستكونان فى النهاية من الغالبين له ولشيعته .

ومن أروع الأمثلة على أن التعاون مبدأ من المبادئ الدينية التى تساعد على انتشار الخير بين الناس ، وأن من أعظم الوسائل لإعلاء كلمة الحق ، من هذه الأمثلة ما ساقه القرآن لنا من قصة « ذى القرنين » الذى مكن الله - تعالى - له الأرض ، ومنحه القدرة والسلطان والقوة ، ومع ذلك نراه لم يستغن عن معونة غيره ، وإنما طلب من حوله أن يعاونوه لكى يحقق لهم - بإذن خالقه وخالقهم - ماطلبوه منه .

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى جانبا من قصة « ذى القرنين » بأسلوبه المؤثر الحكيم فيقول : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ .

أى : إنا مكنا له أمره من التصرف فى الأرض ، بأن أعطيناه من كل شىء أراده فى دنياه لتقوية ملكه ، ما يحقق له مقصوده ، فسار فى الأرض من نصر إلى نصر ، ومن تمكين إلى تمكين آخر .

---

(١) سورة القصص: الآيتان ٣٤ - ٣٥

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾ .

أى : حتى إذا وصل إلى منتهى الأرض المعمورة فى زمنه من جهة المغرب ، رأى الشمس فى نظره عند غروبها ، كأنها تغرب فى عين مظلمة وإن لم تكن هى فى الحقيقة كذلك ، ووجد ذو القرنين عند تلك العين على ساحل البحر قوما :
﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ [1].

أى : قال الله - تعالى - لذى القرنين على سبيل الإلهام ، وعن طريق ملك أخبره بذلك : ياذا القرنين إما أن تعذب هؤلاء القوم ، وإما أن تتخذ فيهم أمرا حسناً تقتضيه المصلحة والسياسة الشرعية .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله ذو القرنين مما يدل على سلامة تفكيره فقال :

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾[2] .

أى : ثم تابع ذو القرنين سيره من جهة غروب الشمس إلى جهة شروقها
﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ .

أى : الجهة التى تطلع من ناحيتها الشمس .

﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ .

أى : لم نجعل لهم من دون الشمس ما يستترون به من البناء أو اللباس .

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ .

أى : أمر ذى القرنين كان كذلك من حيث إنه آتاه الله من كل شىء سبباً ، فبلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها ، دون أن يغيب عن علمه - تعالى - شىء من ذلك .

(١) سورة الكهف: الآيات ٨٣ - ٨٦ . (٢) سورة الكهف: الآيات ٨٧ - ٩٧ .

وسار ذو القرنين فى طريقه ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ** ﴾ أى : الجبلين ﴿ **وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا** - أى : أجرا - **عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا** ﴾ .

أى : قال ذو القرنين لهؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا : إن ما أعطاه الله لى من قوة وخير أفضل من عطائكم فوفروا عليكم أموالكم ، ولكن الذى أريده منكم هو العون بقوة ، والمساعدة بجد واجتهاد ، فإنكم إذا تعاونتم معى فيما طلبتموه منى ، أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج حاجزا ضخما ، فقالوا له : نحن على استعداد للتعاون التام معك ، فقال لهم : أحضروا لى قطع الحديد الكبيرة ، فأحضروا له ما أراد ، حتى ساوى بين جانبى الجبلين ، قال : انفخوا فى النار على هذه القطع الكبيرة من الحديد ، حتى إذا صارت قطع الحديد الكبيرة كالنار فى إحمرارها وشدة توهجها ، قال لهم : أحضروا لى نحاساً مذابا ، لكى أفرغه على تلك القطع من الحديد لتزداد صلابة ومتانة وقوة ، فما استطاع قوم يأجوج ومأجوج أن يرتفعوا على ظهر السد ، وما استطاعوا - أيضا - أن يحدثوا فيه ثقباً لصلابته ومتانته .

وهكذا التعاون يؤدى إلى جلب الخير للناس ، وإلى صيانتهم من كيد أعدائهم .

فإذا ما اتجهنا إلى السنة النبوية الشريفة وجدنا عشرات الأحاديث النبوية التى تدعو إلى التعاون والتكاتف والتراحم بين الناس ؛ لأن هذا التعاون الصادق هو الذى يفضى بهم إلى الحياة الطيبة .

ومن هذه الأحاديث النبوية الشريفة ما جاء فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وشبك بين أصابعه .

قال شارح كتاب « رياض الصالحين » للإمام النووى عند تعليقه على هذا الحديث :

قال القرطبى : هذا تمثيل يفيد الحض على معاونة المؤمن للمؤمن ونصرته ، وأنه أمر متأكد لابد منه ، فإن البناء لا يتم ولا تحصل فائدته إلا بأن يكون بعضه يمسك بعضا ويقويه ، وإن لم يكن ذلك انحلت أجزاؤه ، وخرب بناؤه . وكذلك المؤمن لا يستقل بأمر دنياه ودينه إلا بمعاونة أخيه ومعاضدته ومناصرته ، فإن لم يكن ذلك عجز عن القيام بكل مصالحه ، وعن مقاومة من يناوئه ، فحينئذ لا يتم له نظام دنياه ولا دينه ويلحق بالهالكين » [1] .

وفى الصحيحين - أيضاً - عن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم - أى : فى تقرب كل واحد منهم إلى الآخر بما يحب - وتراحمهم ، وتعاطفهم ، كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضي الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال : من نفّس - أى : فرّج - عن مؤمن كربة من كرب الدنيا - أى : همًّا وغمًّا من هموم الدنيا ومصائبها - نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر ، يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة . والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » .

إن التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، وهو الركن الركين لتوفر الحياة الآمنة المطمئنة لناس ، التعاون فى كل مجالات الحياة سواء أكانت دينية أم اقتصادية ، أم اجتماعية ، أم حربية ، أم علمية ، أم غير ذلك مما تقتضيه مصالح الناس ، فالناس بخير ما تعاونوا .

وإن شريعة الإسلام تحض أتباعها على أن يكونوا متعاونين على تحقيق كل أمر يرضى خالقهم - عز وجل - ولقد ضرب لنا سيدنا رسول الله ﷺ أروع الأمثال فى تعاونه مع أصحابه ، وفى تعاونهم معه ، عند الهجرة ، وعند بناء المسجد النبوى بالمدينة ، وعند حفر الخندق ، وعند مجابهة الأعداء ، وفى غير ذلك من الأحداث التى يطول الحديث عنها ، وبفضل هذا التعاون الصادق ، فتح الله - تعالى - عليهم بركات من السماء والأرض فاللهم اجعلنا جميعاً من المتعاونين على البر والتقوى ، لا على الإثم والعدوان إنك أكرم مسئول ، وأعظم مأمول .

---

(١) راجع كتاب « رياض الصالحين » ص ١٢٦ شرح وتعليق الشيخ رضوان محمد رضوان - رحمه الله - .

المؤمن القوى

جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز . وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل . فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

ما المراد بالمؤمن القوى فى هذا الحديث الشريف ؟ المراد به فى نظرنا : المؤمن القوى فى تمسكه بأحكام دينه ، القوى فى اقتدائه بكل ما جاء عن رسول الله ﷺ القوى فى دفاعه عن عقيدته ، القوى فى نصرته للحق ، القوى فى تمسكه بمكارم الأخلاق ، القوى فى دحره للباطل ، القوى فى بدنه وجسده القوى فى كل أمر يحبه الله - تعالى - ويحبه رسوله ﷺ .

ولفظ « القوة » يدل على الصلابة والمتانة ، ويطلق على الأشياء المادية والحسية حقولك : فلان قوى البدن أو قوى اليد ، قال - تعالى - :

﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ** ﴾ (١).

فهذه الآية الكريمة جمعت مراحل خلق الإنسان بصورها الحسية المتنوعة والمشاهدة .

ويطلق لفظ « القوة » كذلك على الأشياء المعنوية ، كقوة العزيمة ، وقوة الإرادة ، ونرى ذلك واضحا فى آيات القرآن الكريم كقوله - تعالى - : ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ (٢).

أى : وقلنا لكم خذوا ما آتيناكم من هدايات بقوة ونشاط ، وتقبلوها بحرص وجد ، لا بضعف ووهن .

---

(١) سورة الروم: الآية ٥٤ .　　(٢) سورة البقرة: الآية ٦٣ .

وكقوله – سبحانه – : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾[1] .

أى : خذ أحكام التوراة واعمل بها بجد واجتهاد ، وقد أعطاه الله – تعالى – فهم التوراة والعمل بأحكامها وهو فى سن الصبا .

ومما يدل على شرف فضيلة القوة التى تنصر الحق وتخذل الباطل : أن الله – تعالى – وصف ذاته وجعلها اسما من أسمائه فى آيات كثيرة ، منها قوله – تعالى – : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[2] وقوله – عز وجل – : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾[3] وقوله – سبحانه – : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[4] .

والقوة صفة من صفات أمين الوحى جبريل – عليه السلام – قال – تعالى – : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴾[5] .

أى : علم القرآن للنبى ﷺ ملك من ملائكتنا الكرام ، وهو جبريل – عليه السلام – الذى من صفاته القوة فى الذات ، والقوة فى الفهم ، والقوة فى تنفيذ جميع أوامر الله – تعالى – .

والقوة صفة من صفات الملائكة الكرام . قال – تعالى – : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[6] .

والقوة صفة من صفات رسول الله ﷺ ومن صفات أصحابه . قال – تعالى – : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[7] .

---

(١) سورة مريم: الآية ١٢ . (٢) سورة المجادلة: الآية ٢١ .
(٣) سورة هود: الآية ٦٦ . (٤) سورة الأنفال: الآية ٥٢ .
(٥) سورة النجم: الآيات ١ – ٦ . (٦) سورة التحريم: الآية ٦ . (٧) سورة الفتح: الآية ٢٩ .

وقد أمرنا الله - تعالى - أن نعد العدة لدحر أعدائه وأعدائنا فقال : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[1] .

أى : عليكم - أيها المؤمنون - أن تعدوا لقتال أعدائكم ما تستطيعون إعداده ، من وسائل القوة على اختلاف صنوفها ، وألوانها وأسبابها ، من حصون ، وقلاع ، وسلاح ، ومن رباط الخيل للجهاد فى سبيل الله .

وجاء - سبحانه - بلفظ « قوة » بصيغة التنكير ، ليشمل كل ما يتقوى به فى الحرب كائنا ما كان ، وفى أى زمان أو مكان ، فمن وصايا أبى بكر الصديق لخالد ابن الوليد : « يا خالد حاربهم بما يحاربونك به ، إن حاربوك بالسيف فحاربهم بالسيف ، وإن حاربوك بالرمح فحاربهم بالرمح » .

فمن الواجب على المسلمين فى هذا العصر بنص القرآن ، أن يصنعوا أسلحة القتال الحديثة التى تفوق ما عند أعدائهم ، ليحافظوا على هيبتهم وحريتهم وكرامتهم ، كما يجب عليهم أن يتعلموا كل الفنون والصناعات التى تدحر من يعتدى عليهم .

وإذا كانت فضيلة القوة التى تحمى الحق من العدوان عليه فى أسمى درجات الشرف والكمال ، فإن رذيلة الضعف والعجز والذل فى أحط دركات النقصان .

قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾[2] .

وكما حاربت شريعة الإسلام الضعف والعجز والهوان ، حاربت - أيضا - القوة الغاشمة البغتة الفاجرة التى يستعملها أصحابها فى العدوان على الغير ، وفى أكل الأموال بالباطل ، وفى ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وفى إذلال كرامات الناس واستلاب حقوقهم .

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠ . (٢) سورة النساء: الآيات ٩٧ - ٩٩ .

ولقد حدثنا القرآن فى كثير من آياته عن أقوام تفاخروا بقوتهم ، واستعملوها فى العدوان على غيرهم ، وجحدوا نعم الله - تعالى - وأشركوا معه فى العبادة غيره ، فكانت عاقبتهم الدمار والهلاك .

استمع إلى قوله - تعالى - : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ ﴾ (١) .

واستمع أيضا إلى قوله - تعالى - : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ (٢) .

فهؤلاء الأقوام الذين استعملوا قوتهم فى العدوان لا فى نصرة الحق ، وفى البغى والظلم لا فى إقامة العدل ونشر الخير ، وفى الجحود والطغيان ، لا فى الإيمان والإحسان ، كانت عاقبتهم فى كل زمان ومكان الهلاك والخسران .

إن القوة الفاضلة العاقلة الرشيدة ، لا تنبع إلا من العقيدة القويمة المكينة السليمة ، لأن هذه العقيدة متى استقرت فى النفس ورسخت فى القلب ، جعلت صاحبها إذا تكلم كان قويا فى حجته وبيانه ، وإذا كلف بعمل من الأعمال كان قوياً فى أدائه بالطريقة التى تجعله ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وإذا اتجه إلى سلوك ما ، كان واضحا فى سلوكه ، قوياً فى أخذه وعطائه .

هذه العقيدة القويمة المكينة السليمة ، تجعل صاحبها يؤمن بما استقر فى عقله وفكره وقلبه ، إيماناً لا مكان معه للتردد أو الارتياب ، وتلك هى القوة الراسخة التى جعلت الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يقول كل واحد منهم لمخالفيه :

---

(١) سورة فصلت: الآيتان ١٥ ، ١٦ .

(٢) سورة محمد: الآية ١٣ .

﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (١).

أى : أن كل نبى كان يقول لمخالفيه من قومه بكل قوة - بعد أن نصحهم ووعظهم وأنذرهم - : يا قوم اعملوا ماشئتم عمله من العداوة لى ، والتهديد بآلهتكم ، فإنى سأقابل عملكم السيئ بعمل حسن من جانبى ، ولن ألتفت إلى تهديداتكم ، وسوف تعلمون من منا الذى سينجح فى عمله ، ومن منا سيأتيه عذاب يخزيه ويهينه فى الدنيا والآخرة .

هذه العقيدة المكينة السليمة ، هى التى جعلت أتباع الرسل فى كل زمان ومكان يقفون إلى جانب الحق ويدافعون عنه بكل قوة ، وبإيمان عميق وبعزم وثيق ، لذا مدحهم الله - تعالى - بقوله :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢).

والإنسان القوى فى عقيدته وفى خلقه وفى قوله وفى فعله ، وفى كل سلوك يرضى الله - تعالى - له علامات تهدى إليه ، وله مناقب يتحلى بها ولا يتخلى عنها .

فمن علاماته أنه يعامل الناس بوضوح ومكاشفة ، إن رآهم على الحق وقف إلى جانبهم ، وإن رآهم على غير ذلك تخلى عنهم ، متمثلا بقول الرسول ﷺ : « لا يكن أحدكم إمَّعة ، يقول : أنا مع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت !! ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » .

ومن علاماته أنه لا يبيع ذرة من دينه ، من أجل إرضاء الناس بشىء مما يكرهه

---

(١) سورة الزمر : الآيتان ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) سورة آل عمران : الآيات ١٤٦ - ١٤٨ .

الله - تعالى - لأنه لقوة إيمانه يعلم علم اليقين أن عطاء الله - تعالى - هو الباقى ، أما عطاء غيره فزائل .

قال - تعالى - : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

وقال - سبحانه - : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢) .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « من أسخط الله فى رضا الناس سخط الله عليه ، وأسخط عليه من أرضاه فى سخطه !! ومن أرضى الله فى سخط الناس رضى الله عنه ، وأرضى عنه من أسخطه فى رضاه ، حتى يزينه ويزين قوله وعمله فى عينيه » .

كذلك من علامات الإنسان القوى فى إيمانه وفى ثقته بخالقه - عز وجل - : أنه يباشر الأسباب التى شرعها الله - تعالى - للنجاح بكل إخلاص وإتقان وإحكام ، ثم بعد ذلك يترك النتائج لله - عز وجل - يسيرها حسب إرادته ومشيئته ، ولا يكون من أولئك الذين يقصرون فى واجب من الواجبات ، فإذا ما أخفقوا فى مسعاهم اعتذروا بالمعاذير الواهية .

أخرج أبو داود فى سننه عن عوف بن مالك قال : قضى رسول الله ﷺ بين رجلين ، فلما أدبرا قال المقضى عليه : حسبى الله ونعم الوكيل !! فقال له ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل : حسبى الله ونعم الوكيل » .

ومما يعين المسلم على أن يكون قويا : اعتصامه بحبل الله ، وأداؤه للتكاليف التى كلفه خالقه بها ، وتوكله عليه فى كل أموره ، وابتعاده عن كل ما لا يليق .

(١) سورة النحل: الآية ٩٦ .
(٢) سورة فاطر: الآية ٢ .

قال - تعالى - : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (1).

ولقد نصح هود - عليه السلام - قومه وكانوا ضخام الأجسام أقوياء البنيان ، أصحاب سعة فى المال والجاه والسلطان ، نصحهم بأن يشكروا الله على نعمه لكى يزيدهم قوة على قوتهم ، وغنى على غناهم ، فقال لهم - كما حكى القرآن عنه - :

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾(2) .

إن القوة العاقلة الفاضلة الرشيدة التى أمر الله - تعالى - عباده أن يعتنقوها : هى التى تأتى بالحياة الطيبة الآمنة المطمئنة ، أما الضعف فهو الموت ، هذا ما قاله التاريخ فى جميع أطواره الماضية ، وهذا ما سيقوله فى أدواره الآتية ، فالضعفاء الأذلاء ، ليس لهم فى دنيا الأقوياء نصيب .

ولقد كان النبى ﷺ كثيرا ما يدعو ربه بهذا الدعاء الذى يقول فيه : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » .

إن القوة التى يحبها الله - تعالى - تحمى أصحابها من أن تمتد أيدى الظالمين والمعتدين ؛ لأن الأمر كما قال الشاعر الحكيم :

متى تجمع القلب الذكى وصارما ... وأنفا حميا تجتنبك المظالم

وكما قال شاعر آخر :

إذا كنت بين ا لعالمين أخا قوى ... رعتك عيون الناس حتى تنام

حمى الغاب يأس الليث من كل طارق ... ولم ينج من فتك البزاة حمام

يقولون إن الحق من فوق قوة ... وما الحق إلا مدفع وحسام

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا أقوياء فى أدائنا لما كلفنا الله - تعالى - به من أقوال ومن أفعال ومن سلوك ، إنه على ما يشاء قدير ، نعم المولى ونعم النصير .

(1) سورة الطلاق: الآيتان ٢ ، ٣ . (2) سورة هود: الآية ٥٢ .

نعمة الأمان والسلام

من الدعوات الحكيمة المستجابة التى تضرع بها سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهو يرفع قواعد الكعبة المشرفة ، ومعه ابنه إسماعيل - عليهما السلام - من هذه الدعوات الخاشعات قوله : ﴿ **رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا** ﴾[1] . وفى آية أخرى : ﴿ **رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا** ﴾[2] .

والمقصود بالبلد فى الآيتين مكة المكرمة . أى : قال إبراهيم : أضرع إليك يا إلهى أن تجعل الموضع الذى فيه بيتك الحرام مكانا يأنس إليه الناس ، ويأمنون فيه من الخوف ، ويجدون فيه كل ما يرجون من أمان واطمئنان .

والمقصود بالدعاء إنما هو أمن أهله ؛ لأن الأمن والخوف لا يلحقان البلد ، وإنما يلحقان أهل البلد .

وإنما طلب إبراهيم - عليه السلام - من الله - تعالى - أن يجعل مكة بلدا آمنا ؛ لأن البلد إذا امتدت إلى سكانه ظلال الأمن ، وكانت مطالب الحياة عندهم ميسرة ، أقبلوا على طاعة الله - تعالى - بقلوب مطمئنة ، وتفرغوا لأمر معاشهم بنفوس مستقرة .

ولقد اقتدى يوسف عليه السلام - بجده الأكبر إبراهيم - عليه السلام - فى الاهتمام بنشر نعمة الأمان ، وفى الإعلاء من شأنها ، حيث قال وهو يستقبل أبويه وإخوته على مشارف مصر : ﴿ **ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** ﴾[3] .

أى : ادخلوا جميعا بلاد مصر وأنتم جميعا - إن شاء الله - فى أمان واطمئنان من كل سوء .

والأمان معناه : زوال الخوف عن النفس ، وشعورها بالطمأنينة والاستقرار ، وهذا الشعور له أثره الجليل فى حياة الأفراد والجماعات والأمة بأسرها ؛ لأن فقدان الأمان

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٦ . (٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٥ .

(٣) سورة يوسف: الآية ٩٩ .

والشعور بالخوف والفزع والاضطراب النفسى ، كل ذلك يؤدى إلى شيوع الفساد والتأخر والفقر فى الأمة ولقد تحدث القرآن عن نعمة الأمان حديثا مفصلا ، يؤخذ منه أن هذه النعمة هى مفتاح كل خير ، وأصل كل تقدم ورقى ، ومصدر كل سعادة وهناء .

إنه تارة يجعل هذه الصفة من صفات بيته الحرام ، الذى هو أول بيت وضعه الله - تعالى - فى الأرض لعبادته فيقول : ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا** ﴾ (1) .

أى : ومن التجأ إليه أمن من التعرض له بالأذى أو القتل ، ولا شك أن فى أمن من دخل هذا البيت العتيق ، أكبر آية على تعظيمه ، وعلى علو مكانته عند الله - تعالى - .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ** ﴾ (2) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ **وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ** ﴾ (3) .

وتارة يذكر القرآن الناس بهذه النعمة ، معطيا المثل بأهل مكة فيقول :

﴿ **لإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** ﴾ .

وتارة يرشد القرآن أتباعه أن المداومة على صدق الإيمان وعلى العمل الصالح ، يؤديان إلى المزيد من هذه النعمة فيقول : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ (4) .

---

(1) سورة آل عمران: الآيتان ٩٦ ، ٩٧ .
(2) سورة العنكبوت: الآية ٦٧ .
(3) سورة البقرة: الآية ١٢٥ .
(4) سورة النور: الآية ٥٥ .

وتارة يخبرنا بأن الأمة التى تتمتع بهذه النعمة ، ثم لا تعطيها حقها من الشكر لله - تعالى - تنقلب هذه النعمة إلى نقمة فيقول : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١) .

وتارة يوضح لنا أن الإنسان الذى استقر الإيمان فى قلبه ، وسرى من عروقه ودمائه ، فجعله بعيدا عن كل ظلم وجود ومعصية ، عاقبته الأمان والوصول إلى كل خير وسعادة فيقول : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٢) .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم قد بين لنا فى كثير من آياته ، أن نعمة الأمان على رأس النعم التى يجب أن يحافظ عليها الإنسان ، حتى يعيش عيشة فيها الاستقرار والرخاء ، والتواصل والإخاء ، وفيها شيوع الخير بين الناس .

كما بين لنا جحود هذه النعمة وعدم شكر الله - تعالى - عليها يؤدى إلى الخوف الذى يمنع صاحبه من التفرغ للإصلاح ، أو التعمير ، أو زيادة الإنتاج ، أو مواصلة طلب العلم ، أو غير ذلك من الأقوال أو الأفعال التى تعين على تحقيق الحياة الطيبة للإنسان .

ولفظ الأمان قريب فى المعنى من لفظ السلام ، إذ كلاهما يدل على السلامة من الخوف ، والخلاص من الفزع ، والخلو من الاضطراب ، والنجاة من كل ما يبعث على شيوع القلق والشرور بين الأفراد والجماعات .

ويكفى أن لفظ السلام من أسماء الله الحسنى ، ومن صفاته العظمى ، قال - تعالى - : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٣) .

(١) سورة النحل: الآية ١١٢ . (٢) سورة الأنعام: الآية ٨٢ .
(٣) سورة الحشر: الآية ٢٣ .



ولفظ السلام معناه : صاحب السلامة من كل ما لا يليق . أو صاحب السلام على عباده فى الجنة ، كما قال : ﴿ **سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ﴾ .

ويكفى - أيضا - أن لفظ الإسلام ذاته مشتق من السلام ، والمتأمل فى أحكام دين الإسلام ، يراه أحق العقائد والدعوات بأن يسمى دين السلام ؛ لأن نور السلام يشع فى أوامره ونواهيه ، يشع فى مظهره ومخبره ، وفى عباداته ومعاملاته ، فى أقواله وأعماله .

لقد أمر الإسلام أتباعه إلى نشر هذه الفضيلة فيما بينهم ، بل فيما بينهم وبين الناس جميعا فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ (1) .

أى : يا من آمنتم بالله - تعالى - إيمانا حقا ، اعلموا أن إيمانكم يوجب عليكم جميعا أن تكونوا متصالحين لا متعادلين ، متحابين لا متباغضين ، كما يوجب عليكم أن تسالموا من يسالمكم ، وأن تردوا بالرد المناسب على من يعتدى عليكم .

وأمرت شريعة الإسلام أتباعها أن ينشروا روح السلام حتى مع الجاهلين ، فجعلت من صفات عباد الرحمن أنهم : ﴿ **وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا** ﴾ (2) .

كما أمرتهم بأن يستجيبوا لروح السلام حتى مع الأعداء . قال - تعالى - : ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ (3) .

وقد جعل الخالق - عز وجل - من أسماء الجنة : دار السلام فقال : ﴿ **لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾(4) .

وجعل تحية المؤمنين فيها هى لفظ السلام فقال : ﴿ **تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا** ﴾ (5) .

---

(1) سورة البقرة: الآية ٢٠٨ .
(2) سورة الفرقان: الآية ٦٣ .
(3) سورة الأنفال: الآية ٦١ .
(4) سورة الأنعام: الآية ١٢٧ .
(5) سورة الأحزاب: الآية ٤٤ .

وجعل تحية المسلمين فيما بينهم هى : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

ولقد تكاثرت الأحاديث النبوية الشريفة ، التى أمرت المسلمين أن يستشعروا روح السلام فى أنفسهم ، وفى معاملتهم لغيرهم ، فلا يكون منهم إلى غيرهم أذى أو اعتداء .

ومن هذه الأحاديث الشريفة قوله ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

ولقد كان من الدعوات التى حرص ﷺ على الإكثار منها قوله : « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، فحينا ربنا بالسلام » .

وهكذا نرى أن فضيلة السلام أصل من أصول شريعة الإسلام ، وخلق من أخلاق القرآن ، وركن من أركان هدى الرسول - عليه الصلاة والسلام - .

ولكى يُثَبِّتَ الإسلام نعمة الأمان والسلام بين الناس ، ويزيد من رسوخها ومن غرس روحها فى النفوس والقلوب والعواطف ، شرع العقوبات العادلة الرادعة التى متى طبقت تطبيقا سليما : سادت هذه النعمة بين الناس .

هذه العقوبات التى شرعها أرحم الراحمين ، وأعدل العادلين ، لم يشرعها عبثا أو ظلما ، وإنما شرعها لصيانة نفوس الناس وأموالهم وأعراضهم من كل عدوان وبغى .

شرعها لكى تنتشر نعمة السلام والأمان والاطمئنان والاستقرار بين الأفراد والجماعات ، إذ لولا مشروعية هذه العقوبات لعَمَّ الخوف ، ولانتشر الفساد فى الأرض .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [1].

أى : ولولا أن الله - تعالى - يدفع أهل الباطل بأهل الحق ، لفسدت الأرض وعمها الخراب ؛ لأن أهل الفساد إذا تركوا من غير مقاومة ، استطارت شرورهم ،

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥١ .

وتغلبوا على أهل الاستقامة ، وتعطلت مصالح الناس وانتشر الفساد فى الأرض ، وحل الخوف محل الأمن ، والفزع محل السلام .

لقد بين لنا القرآن الكريم أن فى تطبيق العقوبات العادلة ، حياة آمنة للناس ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1] .

أى : ولكم - أيها المؤمنون - فى مشروعية القصاص من الظالم والمعتدى حياة عظيمة ، فيها ما فيها من الأمان والسلام والرخاء والاطمئنان ، فنفذوا ما شرعه الله - تعالى - فإن فى هذا التنفيذ سعادتكم وصلاحكم .

كما بين لنا القرآن الكريم فى موطن آخر ، أن من يعتدى بالقتل على نفس واحدة ، فكأنه قد قتل الناس جميعاً ، ومن عمل على نجاتها من الظلم والعدوان عليها فكأنه أحيا الناس جميعاً .

قال - تعالى - : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾[2] .

أى بسبب قتل قابيل لأخيه هابيل ظلما وعدواناً ، كتبنا فى التوراة على بنى إسرائيل « أنه » أى : الحال والشأن « من قتل نفساً » واحدة من النفوس الإنسانية « بغير نفس » أى : بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص منه « أو فساد فى الأرض » أى : بغير فساد فى الأرض ، يوجب إهدار الدم « فكأنما قتل الناس جميعاً » لأن الذى يقتل نفساً بغير حق يكون قد استباح دما مصونا قد حماه الإسلام بشرائعه وأحكامه ، ومن استباح هذا الدم فى نفس واحدة ، فكأنه قد استباحه فى نفوس الناس جميعاً ، إذ النفس الواحدة تمثل النوع الإنسانى كله « ومن أحياها فكأنما أحيا

(١) سورة البقرة: الآيتان ١٧٨ ، ١٧٩ .
(٢) سورة المائدة: الآية ٣٢ .

الناس جميعاً » أى : ومن تسبب فى إحيائها وصيانتها من العدوان عليها ، كأن استنقذها مما يؤدى بها إلى الهلاك والأذى الشديد ، أو مكن الحاكم من إقامة الحد على قاتلها بغير حق ، من فعل ذلك فكأنما تسبب فى إحياء الناس جميعاً .

وفى هذه الجملة الكريمة أسمى ألوان الترغيب فى صيانة الدماء ، وحفظ النفوس من العدوان عليها ، حيث شبه - سبحانه - قتل النفس الواحدة بقتل الناس جميعا ، وإحياءها بإحياء الناس جميعاً .

ولقد توعد القرآن الكريم من يقتل غيره عامدا بسوء المصير ، فقال : ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾(1) .

أى : ومن يقتل مؤمنا متعمدا قتله ، فجزاؤه الذى يستحقه بسبب هذه الجناية الكبيرة ، جنهم خالدا فيها مدة لا يعلم مقدارها إلا الله ، وغضب الله عليه بسبب ما ارتكبه من منكر ، ولعنه وطرده من رحمته ، وأعد له بعد هذه العقوبات كلها عذابا عظيما يوم القيامة .

ولقد بلغ من شناعة قتل النفس ظلما وعدوانا أن ابن عباس - رضى الله عنهما - حكم عند تفسيره لهذه الآية أن هذا القاتل لا تقبل له توبة ، وقال : «إن الرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه ، ثم قتل مؤمنا متعمدا ، فجزاؤه جهنم ولا توبة له » .

ولقد ساق صاحب الترغيب والترهيب ستة وعشرين حديثا نبويا فى الترهيب من قتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، ومن هذه الأحاديث ما رواه البيهقى فى سننه ، عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « لزوال الدنيا جميعا أهون على الله من دم سفك بغير حق » .

ومنها : ما رواه ابن ماجه فى سننه عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول : ما أطيبك وما أطيب ريحك ، وأما أعظمك وما أعظم حرمتك ، والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن - أى : لمنزلة المؤمن - عند الله أعظم من حرمتك .

(1) سورة النساء : الآية ٩٣ .

إن نعمة الأمان والسلام من أجَلِّ النعم وأعظمها ، وما حافظ عليها قوم إلا وعمهم الخير والبر والرخاء والاستقرار ، فالسلام من الإسلام ، والأمان من الإيمان ، وقد أمرتنا شريعة الإسلام بأن نقول للناس حسنا ، وبأن نعمل بكل وسيلة على أن تكون من الذين يستجيبون لقول الرسول ﷺ : « أفشوا السلام بينكم » .

وفى الحديث الشريف : « من أصبح آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

نسأل الله – تعالى – أن يرزقنا جميعا نعمة الأمان والسلام .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(تم بحمد الله تعالى)

الفهرس